جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر

المهدية في الإسلام

منذ أقدم العصور حتى اليوم

دراسة وافية لتاريخها العقدي والسياسي والأدبي

تأليف

سعد محمد حسن

من علماء الأزهر ومدرس بوزارة المعارف

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٣ م

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

الأهداء

لوجه الحق وحده

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

تقرير عن الكتاب
للأستاذ الكبير عبد الحميد العبادى(*)

موضوع « المهدية » من الموضوعات الطريفة فى التاريخ الإسلامى ، وهو يجمع بين طرافة التاريخ وطرافة القصة ، هذا فوق ما له من خطورة تاريخية نلحظها فى جميع عصور التاريخ الإسلامى وجميع أقطار الدول الإسلامية على وجه التقريب .

ومع أن المصادر العربية التاريخية فياضة بأخبار « المهدية » ومن ادّعوها فى مختلف العصور ، ومع أن غير واحد من المستشرقين قد كتب فى موضوع المهدية والمتمهديين كتابات تختلف إيجازاً وتفصيلاً ، فإنه لم يظهر بعد كتاب عربى واحد[1] يجمع شتات هذه « النظرية » أو « الفكرة » أو « الأسطورة » ويؤلف منها قصة تاريخية محكمة البنية حسنة العرض سهلة الأسلوب .

من أجل ذلك لا يسع محب الثقافة الإسلامية إلا أن يستقبل مع الابتهاج كتاب « المهدية فى الإسلام » لمؤلفه الأستاذ سعد محمد حسن ؛ فقد جاء الكتاب فى الوقت الذى أخذ الجمهور الإسلامى المثقف يتطلع فيه إلى ماضيه ليفهم حاضره ويدرك الاتجاهات التى يسير فيها العالم الإسلامى بوعى أو على غير وعى منه .

(*) كان من سوالف الأقضية أن تقدمت بكتابى هذا إلى « لجنة التأليف والترجمة والنشر » لطبعه ، فأحالته « اللجنة » على الأستاذ الكبير عبد الحميد العبادى ، وكان وقت ذاك عميداً لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ؛ وذلك لكتابة تقرير عنه ، فظفرنا من الأستاذ الجليل — وهو حجة فى التاريخ الإسلامى — بهذا التقرير ، وأصله مودع فى سجلات « اللجنة » وتحت أيدينا صورة منه ، وكان بعد ذلك أن اعتذرت « اللجنة » عن الطبع ...!

(١) أخرج الأستاذ الكبير أحمد أمين بعد كتابة هذا التقرير بسنوات كتيباً صغيراً للناس بعنوان « المهدى والمهدوية » ونشره فى سلسلة « اقرأ » وقد قمنا بنقده فى مجلة « الثقافة » العددين (٦٦٤ ، ٦٦٧) فارجع إليهما إن شئت .

وموضوع « المهدية » مع طرافته التاريخية السالفة موضوع شائك ، يقتضى فيمن يعالجه تعمقاً فى الفهم ولباقة فى العرض ؛ لأنه يتصل بشعور أقوام يدينون بالمهدية فى العراق وإيران والهند ، ولاشك أن الأستاذ سعد محمد حسن قد استوفى كثيراً من الشروط الأساسية اللازمة للإقدام على الكتابة فى هذا الموضوع ؛ فهو ذو ثقافة فقهية إسلامية أصيلة تمكنه من أن يخوض عباب هذا البحث دون أن يتورط فى الأخطاء التى قد يتورط فيها من ليست له هذه الثقافة متى تعرض لمثل موضوع « المهدية فى الإسلام » ، ثم إن الأستاذ قد أحاط بمادة الموضوع الواردة فى المراجع العربية واطّلع على ما وسعه الاطلاع عليه من المراجع الأجنبية المتعلقة بالمهدية والمترجمة إلى اللغة العربية ، ثم إن الأستاذ قد عرض هذه المادة عرضاً حسناً وفى أسلوب واضح لا تكلف فيه .

بقيت مآخذ يسيرة على الكتاب أرى من واجبى التنبيه عليها :

أولاً : أن الموضوع كما قدمت دقيق وشائك ؛ لذلك أرى أن يستبعد المؤلف من كتابه الصفات النابية التى وصف بها بعض من ادعوا « المهدية » من جهل أو شعوذة أو تخريف أو نحو ذلك ، حتى لا يؤلم شعور أقوام يعتقدون المهدية .

ثانياً : أن المؤلف فرّق بين كلامه على المهدية والشيعة وكلامه على المهدية والقرامطة ، والواقع أن القرامطة شعبة من الشيعة الإسماعيلية والباطنية ، وأرى أنه يحسن أن يجمع الموضوعين فى فصل واحد .

ثالثاً : يقول المؤلف (صفحة ٢٨[(١)]) إن ابن السوداء هو الذى نقل هذه النظرية (نظرية الجزء الإلهى) من المسيحية المفلسفة وزعمها فى علىّ وذريته ، وسبق أن ذكر (فى صفحة ١٤[(٢)]) أن ابن السوداء كان يهودياً ثم دخل فى الإسلام ونقل إليه عقيدة « الرجعة » من اليهودية !

---

(١) هذا الرقم للمخطوط ويقابله فى المطبوع ص ٧٩ .

(٢) يقابل هذا الرقم فى المطبوع ص ٣٨ ، وليس هنالك تناقض ؛ إذ هما نظريتان نقلهما ابن السوداء ، إحداهما وهى نظرية « الجزء الإلهى » نقلها عن المسيحية المفلسفة ، والأخرى وهى « الرجعة » نقلها عن اليهودية .

رابعاً : فى صفحة (٣٧[1]) : وعندئذ أخذ ابن الزبير يفتك بآل علىّ ، والثابت أن ابن الزبير لم يفتك بآل علىّ و إنما اضطهدهم وشتان بين الأمرين .

خامساً : فى صفحة (٣٩[2]) : تغلب المختار بمكره وسياسته المكياڤيلية على بساطة ابن الحنفية ، والأولى أن يقال : تغلب بمكره ودهائه على بساطة ابن الحنفية .

وسواء أخذ المؤلف بهذه الملاحظات أم لم يأخذ فإنى أرى أن كتاب « المهدية فى الإسلام » كتاب قيم وأنصح أن تنشره اللجنة[3] ضمن ما ينشر .

الإسكندرية فى ١٩٤٨/٤/٥ — عبد الحميد العبادى

هذه صورة طبق الأصل من تقرير حضرة صاحب العزة عبد الحميد العبادى بك

٢٩/٤/١٩٤٩

---

(١) يقابلها فى المطبوع ص ٩٧ ، ومع أن كلمة « يفتك » قد تستعمل فى معانى الاضطهاد على المجاز ، فقد أصلحنا العبارة كما أرادها الأستاذ الجليل .

(٢) يقابلها فى المطبوع ص ١٠٢ ، وقد أصلحنا العبارة كما أرادها الأستاذ الكبير

(٣) يقصد الأستاذ العبادى باللجنة هنا « لجنة التأليف والترجمة والنشر » .

تصـــدير

بقلم الدكتور عبد الحليم النجار

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

إن الله يأتى بالشمس من المشرق ، وكما تفتحت عين الإنسان — بادئ ذى بدء — على النور الحسّى فى مشرق الأرض قبل مغربها ، كذلك شاءت حكمة الله أن تتفتح القلوب والعقول على النور المعنوى بهذا الترتيب ، وكذلك كان المشرق مهبط الحكمة الإلهية ، والهداية السماوية ، والدين الذى ينفع الناس ويمكث فى الأرض .

و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، فهو — سبحانه — يصطفى من الناس رسلاً يصنعهم على عينه ، ويؤدبهم فيحسن تأديبهم ، ويؤتيهم الحكمة وفصل الخطاب ، ليكونوا جديرين بحمل ما ينوط بهم من أمانة ، وتبليغ ما يبعثهم به من رسالة : « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير » .

وهكذا شهد الشرق منذ نشأة الحياة وفجر التاريخ مُثلًا عليا للإنسانية ؛ ينتهى إليها جماع الحكمة وصواب الكلمة ، وتعلو بها راية الحق ، وتتمم مكارم الأخلاق ، يبعثها الله نوراً للناس تنصلح به أمور دينهم ودنياهم ، وتشرق نفوسهم وعقولهم ، وتخطو الإنسانية على هديه خطواتها المسددة فى مراحل الحضارة والعلم ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله .

كانت هذه المثل العليا للإنسانية كالماء الزلال يتدفق من الفيض الإلهى فلا يصيب أرضاً خصبة صالحة إلا أحياها ، وطهرها وزكاها ، وبدّلها من وحشة الجدب والإقفار ، نضرة الخضرة ونعشة الازدهار .

وكانت هذه المثل العليا — وهى فى الأرض كالنجوم والكواكب فى السماء — معقد آمال الناس ، ومناط رجائهم للخلاص من شر النفوس الأمارة بالسوء ، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، ولإشاعة العدل والمساواة ، ونشر المحبة والسلام فى العالمين .

فلا جرم كانت تترك أبعد الآثار فى نفوس الناس ، وتحتل أسمى مكانة من قلوبهم وأفئدتهم ؛ وسرعان ما تصير قيد الأبصار ، ومنتهى ما تبلغه التصورات والأفكار ، فتصبح صورها الحسية أو المعنوية خالدة فى النفوس يتوارثها جيل عن جيل ، حتى لكأن الفتنة بحبها ، والتعلق بها ، كانت تعمى الأبصار والبصائر دائماً عن مطلع النور الجديد ، ومبعث النبي العتيد :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ومن تمكن هذا الحب ، وتغلب ذلك الهوى ، حاول الناس فى كل عصر مكابرة الواقع ، ومغالبة الحق ، ومدافعة اليقين ، فأبوا أن يقبلوا على مثلهم العليا ما يجرى على سائر الناس من أطوار الحياة والممات بل أخذت فلسفتهم تفتن فى التماس الخلود الحقيقى لها أو لتعاليمها على وجوه شتى : فمن قائل بالرجعة ، ومن ذاهب إلى الاختفاء ، ومن آخذ أخيراً بالحيطة فى أمره مكتف بتقرير أن وفاة الجسد لن تحول دون بعث شخص آخر ، موافق في الاسم والرسم ، يحيى الفكرة ، ويهدى الأمة ، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

* * *

بيد أن فكرة المهدى قد احتلت عند المسلمين محلاً مكيناً ؛ وحسبك أن علماء الحديث يرون أنها بلغت مبلغ التواتر المعنوى ، وإن ثبتت برواية الآحاد فحسب ، وتجردت منها أصح كتب الرواية .

وليس المجال هنا مجال القبول أو الإنكار ، وإن حصل التشكك فى كثير من الأخبار والآثار ، ولكن الأمر لا يعدو الانطلاق فى مسارح الفكر ،

والاستظلال بحرية العقل ، وتسليط الأضواء من كل جانب على هذا الموضوع لبحثه من جميع أقطاره ، ليؤمن من آمن عن بيّنة ، وينـكر من أنـكر عن بيّنة .

وقد اضطلع الأستاذ سعد محمد حسن بالبحث فى جملة نواح من هذا الموضوع فوفّر على الناس كثيراً من عناء الدرس والتنقيب ، والاستدلال والاستنتاج . وليس ذلك على الأستاذ بجديد ؛ فقد عرفته عندما اشتد ساعده ، وامتد باعه ، ورسخت قدمه ، معنياً بتتبع الزوايا الغامضة من مسارب الفـكر ، ومسالك النظر ، يطلق عليها أنواراً مركزة من التفسير والتحليل تهتك عنها الحجب ، وتـكشف القناع ، فتسفر كالصبح لذى عينين .

فعل ذلك من قبل فى بحثه القيم عن : « ذى النون المصرى » ، وهو ذا الآن يقدم إلى القراء دراسته الممتعة للمهدى والمهدية ، فله جزاء العاملين المخلصين ، وأجر العلماء المجتهدين ، وإن كنّا نخالفه فى بعض ما وصل إليه من نتائج ، بعد الإفادة من المراجع القيمة التى لم يأل جهداً فى الاستناد إليها .

دكتور عبد الحليم النجار

الأستاذ بكلية الآداب — جامعة القاهرة

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ منك العون وعليك التكلان و بك وحدك نعتصم ، ولا علم لنا إلا ما علمتنا « وقل رب زدنى علماً » و بعد .

فهذه دراسة شاملة للتاريخ العقدى والسياسى والأدبى لمعتقد « المهدية » فى الإسلام أقدمها للقراء بعد أن شغلت نفسى بها سنوات متمطيات بأصلابها من أزهر أيام العمر وأنضرها ، عاملاً — ما وسعنى الجهد والقوة — على أن تكون دراسة علمية دقيقة ، نشداناً منّا للحق وحده وخدمة للمكتبة العربية .

ولا يسعنى فى نهاية المطاف — وعند الصباح يحمد القوم السرى — إلا أن أقدم أعمق الشكر وأصدقه للأستاذ الكبير عبد الحميد العبادى على حسن رأيه فى كتابنا ، وللأستاذ الدكتور عبد الحليم النجار لتفضله بكتابة « التصدير » ، ولا يفوتنى أن أوجه أجزل الشكر لجماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر ، وعلى رأسها الدكتور البحاثة محمد يوسف موسى فمن طريقهم عرف الكتاب سبيله إلى النور ، كما لا يفوتنى أيضاً أن أقدم الشكر الخالص من الأعماق لرجال « مطابع دار الكتاب العربى » وعلى رأسهم مديرها وصاحبها الشاب المؤمن الحاج محمد حلمى المنياوى ، والله نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه .

القاهرة فى { المحرم ١٣٧٣
سبتمبر ١٩٥٣ }

سعد محمد حسن
من علماء الأزهر ومدرس بوزارة المعارف

تصويب أخطاء الطبع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	ح رقم ١	ص ١٥٠٢	ص ٢١٥
٧٧	ح رقم ٤	ابن حزم حـ ٤	ابن حزم حـ٤ص ١٨٤ ، والفرق بين الفرق ص ١٤٦، والتبصير فى الدين للأسفراينى ص ٧٣
٧٨	٢	لم تحظ	لم نحظ
٩٨	١	وكهذا	وهكذا
١١٤	٣	نافع بن عمر	نافع مولى ابن عمر
١٣٦	١٢	إنساناً	إنسانا
١٦٢	الأخير	فاض	فاضل
١٧٥	ح رقم ١	لعقيدة أو	العقيدة و
١٧٩	٦	(السفيانى)	تشطب
٢٠٠	١٥	ولد ، أسماه	حفيد ، اسمه
٢٠١	٤	آمنة	زينب
٢١١	١٣	مهديتك	مهديتى
٢٤٧	١٠	بهاء الدين	بهاء الله
٢٤٧	١١	أرل	أزل
٢٥٢	٢٢	»	‘
٢٦٥	٢٦	Word	World
٢٦٩	٣	١٢٣٢ هـ	١٢٣٧ هـ
٢٧٣	٦	المجتمع	الجميع
٣٠١	١٩ عمود ٢	الإثنا عشرية	الإثنى عشرية

الفصل الأول

الإمامة في الإســــلام

لا بدّ لنا قبل الدخول فى موضوع البحث ، أن نلمّ إلمامة وجيزة بالإمامة الإسلامية؛ لما لها من وشيج الصلة ولحمة القرابة القريبة بموضوعنا ، ولما لها أيضاً من عظيم الأثر فيما نشب بين أهل السنة والشيعة من خلاف ، حتى لتكاد تصبغ معتقدات كل من الطائفتين بصبغة خاصة ولون خاص .

لما كان « القرآن » الكريم — وهو دائما المصدر الوثيق الهام للشريعة الإسلامية — لا يحدثنا بشىء عن هذا الموضوع الخطير ، ولما كان الرسول صلوات الله عليه قد لحق بالرفيق الأعلى دون أن يدلى فيه برأى صريح ينقله إلينا مصدر موثوق به ، فقد تشعبت الآراء وتباينت الأهواء وتحركت العصبية القبلية — التى لم يفلح الإسلام قط فى القضاء عليها و إنما فقط هذبها أو كبتها إلى حين — فظهرت كأشد ما تكون قوة وعنفاً تحت سقيفة بنى ساعدة ، ورسول الله مسجى فى بردته لم يدفن بعد !

وقد تمخض مؤتمر السقيفة — بعد صراع فى الرأى وجدال فى القول ولجاج — عن إمامة أبى بكر ، التى جاءت على حد تعبير ابن الخطاب « فلتة »[1] ، والتى لم

---

(١) قال عمر بن الخطاب « فلا يغرنّ امرءاً أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة ، فقد كانت كذلك ، غير أن الله وقى شرها » الطبرى : حـ ٣ ص ٢٠٠ ط الحسينية ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٥ ص ٢٤٥ ط السعادة ، وفى ابن الأثير « كانت فتنة » أنظر الكامل : حـ ٢ ص ١٢٤ ط الحلبى ، وفى شرح النهج « إن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها ، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه » مجلد ١ ص ١٢٣ وما بعدها ط القاهرة ، ومع ذلك فابن أبى الحديد يروى لنا أن أول من وصف أمامة أبى بكر بهذا الوصف « فلتة » هو أبو بكر نفسه ؛ ففى شرح النهج :

« قام أبو بكر فخطب الناس فاعتذر إليهم ، وقال إن بيعتى كانت فلتة وقى الله شرها ، وخشيت الفتنة ، وأيم الله ماحرصت عليها يوما قط ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية قط ، ولقد قلدت أمراً عظيما ما لى به طاقة ولا يدان ، ولقد وددت أن أقوى الناس عليه مكانى » ابن أبى الحديد مجلد٢ ص١٩ .

ترض بعض الأنصار ؛ فقد امتنع سعد بن عبادة عن مبايعة أبى بكر حتى مات[1] ، كما لم ترض بنى أمية بن عبد شمس . أما بنو هاشم فقد سخطوا عليها كأشد ما يكون السخط ، وعدوها اغتصاباً لحقوقهم و إهداراً لوجودهم ، فقد كانوا لقرابتهم من الرسول يتوقون إلى هذا الأمر من بعده .

وأكبر الظن أن علياً وحده هو الذى كان يطمع فى هذا الأمر إلى حد كبير ، ولقد نقم على مؤتمر السقيفة الذى أضاعه منه ، فتمثل بقول الشاعر :

وأصبح أقوام يقولون ما اشتهوا ... و يطغون لما غال زيداً غوائله

وفى هذا الصدد أنشد أبو القاسم الحسين بن على الوزير المغربى (المتوفى عام ٤١٨ هـ) قصيدة طويلة ، ملأها بالسخط والإنكار على المهاجرين الذين أبعدوا الأنصار عن الخلافة أولاً ثم أبعدوا عليًّا عنها ثانياً ، وفيها يقول متحيزاً للأنصار :

نحن الذين بنا استجار[2] فلم يضع ... فينا وأصبح فى أعز جـوار
بسيوفنا أمست « سخينة[3] » بُرَّكاً ... فى بدرها كنحائر الجزار
ولنحن فى أحـد سمحنا دونه ... بنفوسنا للموت خوف العار
فنجا بمهجته فلولا ذبُّنا ... عنه تنشَّبَ فى مخالب ضار

(١) قال ابن أبى الحديد « وحمل سعد بن عبادة وهو مريض فأدخل إلى منزله فامتنع من البيعة فى ذلك اليوم وفيما بعده ، وأراد عمر أن يكرهه عليها ، فأشير عليه ألا يفعل ، وأنه لا يبايع حتى يُقتل ، وأنه لا يُقتل حتى يُقتل أهله ، ولا يقتل أهله حتى يقتل الخزرج ، وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها وفسد الأمر ، فتركوه ، فكان لا يصلى بصلاتهم ، ولا يجمع بجماعتهم ، ولا يقضى بقضائهم ، ولو وجد أعواناً لضاربهم ، فلم يزل كذلك حتى مات أبو بكر ، ثم لقى عمر فى خلافته وهو على فرس وعمر على بعير ، فقال له عمر : هيهات يا سعد ، فقال سعد : هيهات يا عمر ، فقال : أنت صاحب من أنت صاحبه ، قال : نعم أنا ذاك ، ثم قال لعمر : والله ما جاورنى أحد هو أبغض إلىّ جواراً منك ، قال عمر : فإنه من كره جوار رجل انتقل عنه ، فقال سعد : إنى لأرجو أن أخليها لك عاجلا إلى جوار من هو أحب إلىّ جواراً منك ومن أصحابك ، فلم يلبث سعد بعد ذلك إلا قليلا ، حتى خرج إلى الشام ، فمات بحوران ولم يبايع لأحد ، لا لأبى بكر ولا لعمر ولا لغيرهما » شرح النهج مجلد ٢ ص ٤ .

(٢) يقصد النبى.

(٣) السخينة : طعام كانت تعمله قريش من دقيق وهو الخزيرة فكانت تسب به ، وفيه يقول حسان بن ثابت :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبنّ مغالب الغلاب

أنظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٦٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

إلى أن يقول :

ولنا يوم حنين آثار متى ... تذكر فهنَّ كرائم الآثار
لما تصدع جمعه فغدا بنا ... مستصرخاً بعقيرة وجُؤار
عطفت عليه كُماتُنا فتحصنت ... منا جموع هوازن بفرار
أفنحن أولى بالخلافة بعده ... أم عبد تيم حاملو الأوزار ؟
ما الأمر إلا أمرنا وبعدنا ... زُفت عروس الملك غير نوار
لكنما حسد النفوس وشحها ... وتذكُّرُ الأذحال والأوتار
أفضى إلى هرج ومرج فانبرت ... عشواء خابطة بغير نهار
وتداولتها أربع لولا أبو ... حسن لقلت لؤمت من أستار
من عاجز ضرع ومن ذى غلظة ... جاف ومن ذى لوثة خوّار
ثم ارتدى المحروم فضل ردائها ... فغلت مراجل إحنة ونفار
فتأكلت تلك الجذى وتلمظت ... تلك الظبا ورقى أجيج النار
تالله لو ألقوا إليه زمامها ... لمشى بهم سمحى بغير مِهار[1]
ولو أنها حلّت بساحة مجده ... بادى بدا سكنت بدار قرار
هو كالنبى فضيلة لكنَّ ذا ... من حظه كاسٍ وهذا عارى
والفضل ليس بنافع أربابه ... ألا بمسعدة من الأقدار
ثم امتطاها عبد شمس فاغتدت ... هزؤاً وبدِّل ربحها بخسار
وتنقلت فى عصبة أموية ... ليسوا بأطهار ولا أبرار
ما بين مأفون إلى متزندق ... ومداهن ومضاعف وحمار[2]

---

(١) قال صاحب القاموس : « المهار ككتاب : العود يجعل فى أنف البختى » والمعنى أن إمامة على لو ألقى الناس زمامها إليه لسارت بهم آمنين مطمئنين فى سهولة ويسر .

(٢) أورد ابن أبى الحديد هذه القصيدة فى شرحه للنهج وختمها بقوله : « فهذه الأبيات هى نظيف القصيدة ، التقطناها وحذفنا الفاحش ، وفى الملتقط المذكور أيضا ما لا يجوز ، وهو قوله نحن الذين بنا استجار — وقوله فنجا بمهجته البيت ، وقوله عن أبى بكر : عبد تيم ، وقوله لولا علىّ لقلت فى الأربعة إنهم أستار لؤم ، وذكره الثلاثة بما ذكرهم ونسبهم إليه ، وقوله إن عليا كالنبى فى الفضيلة ، وقوله إن النبوة حظ أعطيه وحرمه علىّ عليه السلام » شرح النهج مجلد ٢ ص٦ و ٧ .

وفى ذلك يقول أيضاً الشاعر المتشيع مهيار الديلمى (المتوفى عام ٤٢٨ هـ) :

أألله يا قومُ يقضى « النبىُّ » مُطاعاً فيُعْصى وما غُسِّلا ؟ !
ويجتمعون على زعمهم وينبيك « سعدٌ » بما أشكلا
فيُعْقِب إجماعَهم أن يبيـ ـت مفضولهُم يقدُمُ الأفضلا
وأن يُنزع الأمر من أهله لأن « عليّاً » له أُهِّلا
وساروا يحطون فى آله بظلمهمُ كاهلاً كاهلا
تدب عقاربُ من كيدهم فتفنيهمُ أولاً أولا
أضاليل ساقت مصاب « الحسين » وما قبل ذاك وما قد تلا
« أمية » لابسة عارها وإن خفى الثأرُ أو حُصِّلا
فيوم السقيفة يا ابن النبـ ـى طرّق يومك فى « كربلا »
وغصبُ أبيك على حقه وأمِّك حسَّن أن تُقتلا

ثم توجه إلى الرسول بقوله :

قضيتَ فأرمضنا ما قضيت وشرعك قد تم واستكملا
فرام ابن عمك فيما سننـ ـت أن يتقبل أو يَمْثُلا
فخانك فيه من الغادريـ ـن مَنْ غيَّر الحق أو بدَّلا
إلى أن تحلَّت بها « تيمُها » وأضحت بنو هاشم عُطَّلا
ولما سرى أمر « تيم » أطا ل بيت « عدىّ » لها الأحبُلا
ومدت أمية أعناقها وقد هُوِّن الخطب واستُسهلا[1]

ومهما يكن من شىء ، فقد نقم علىٌّ على مؤتمر السقيفة ، فامتنع عن مبايعة أبى بكر ، تؤيده فى ذلك وتشد أزره زوجه فاطمة ابنة الرسول ، ونفر من بنى هاشم ، وكثير من صحابة النبى ، منهم الزبير وعتبة بن أبى لهب ، وخالد بن سعيد بن العاص ، والمقداد

(١) ديوان مهيار طبع دار الكتب المصرية حـ ٣ ص ٤٨ وما بعدها .

ابن عمرو ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر ، وعمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبى بن كعب ، وأبو سفيان ، وقد قال عتبة بن أبى لهب فى ذلك :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم عنهم عن أبى حسن
عن أول الناس إيماناً وسابقةً وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهداً بالنبى ومن جبريل عونٌ له فى الغسل والكفن
من فيه ما فيهم لا يمترون به وليس فى القوم ما فيه من الحسن [١]

* * *

القرابة عند الشيعة :

ولمسألة « القرابة » عند الشيعة أهمية كبرى ، ليس فقط فى إثبات حقهم فى « الإمامة » بل ولفرض موالاتهم على الناس كافة ، متلمسين بذور ذلك فيما حاولوا — جاهدين — من تفسير قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » زاعمين — وهم فى زعمهم واهمون — أن القرآن يفترض على جميع المسلمين مودة قربى الرسول عليه السلام ، وهم هنا على وفاطمة والحسن والحسين ثم ذراريهم من بعدهم . وفى هذا الصدد يقول صاحب «الهاشميات» شاعر الشيعة الكميت بن زيد :

وجدنا لكم فى « آل حاميم » آية تأولها منا تقىٌ ومُعرب [٢]

والحق أن هذا التفسير للآية الكريمة قد أملاه الهوى والغرض ، ولم يجد سنداً من التاريخ وصحاح الأحاديث ، كما أنه بعيد كل البعد عن مادة اللغة وروح الإسلام ، كما أوضح ذلك بحق العلامة محمد إسعاف النشاشيبى [٣] .

فالآية من سورة « الشورى » وهى وشقيقاتها « آل حاميم » مكيات باتفاق ، فكيف يقصد بها علىٌ وفاطمة والحسن والحسين ، مع أن عليّاً لم يتزوج بفاطمة

---

(١) أنظر المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء حـ ١ ص ١٥٦ ط الحسينية بالقاهرة وانظر أيضاً تاريخ ابن الوردى حـ ١ ص ١٤١ ط المطبعة الوهبية بالقاهرة .

(٢) الهاشميات طبع الرافعى ص ٤٠ ، وتقى أى : متكتم متستر ، ومعرب أى : جاهر مفصح صادع .

(٣) الإسلام الصحيح حـ ١ ص ٥٩ وما بعدها ط القدس .

إلا بالمدينة بعد غزوة بدر وقد وُلد له الحسن فى السنة الثالثة من الهجرة والحسين فى الرابعة ؟ !

فالآية قد نزلت قبل وجود هذه القرابة ، فكيف يسألها الرسول — حاشاه — أجراً لدعوته ؟ !

وقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما « عن عبد الملك بن ميسرة قال : سمعت طاوساً عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (إلا المودة فى القربى) فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلتَ ، إن النبى لم يكن بطن من قريش إلا كان له منهم قرابة فقال : إلا أن تصلوا ما بينى و بينكم من القرابة » .

وفى مسند أحمد « سمعت طاوساً يقول : سأل ابن عباس المعنى عن قوله عزَّ وجل (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) فقال سعيد بن جبير : قرابة محمد . قال ابن عباس : عجلتَ ، إن رسول الله لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله فيهم قرابة فنزلت (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) إلا أن تصلوا ما بينى و بينكم » .

وفى تيسير الوصول وسنن النسائى وغيرهما مثل ذلك ، و يقول الطبرى فى تفسيره : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال : معناه قل لا أسألكم عليه أجراً — يا معشر قريش — إلا أن تودونى فى قرابتى منكم وتصلوا الرحم التى بينى و بينكم . و إنما قلت هذا التأويل أولى بتأويل الآية لدخول (فى) فى قوله (إلا المودة فى القربى) ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال : إلا أن تودوا قرابتى أو تقربوا إلى الله ، لم يكن لدخول (فى) فى الكلام فى هذا الموضع وجه معروف ، ولكان التنزيل (إلا مودة القربى) إن عنى به الأمر بمودة قرابة رسول الله » [1] .

على أن مسألة « القرابة » وحدها ليست مبرراً كافياً لمزاعم الشيعة عند غيرهم

(١) تفسير الطبرى ﺣ ٢٥ ص ١٧ ط بولاق .

من الطوائف الإسلامية ، وقد حدثنا ابن قتيبة أن المأمون قال يوماً لعليّ بن موسى الرضى : « بم تدّعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة عليّ من النبي و بقرابة فاطمة . فقال المأمون : إن لم يكن ها هنا شيء إلا القرابة ففيه من هو أقرب إليه من عليّ ومن هو فى القرابة مثله ، و إن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ، فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين وليس لعليّ فى هذا الأمر حق وهما حيّان ، و إذا كان الأمر على ذلك فإن عليّاً قد ابتزهما جميعاً وهما حيّان صحيحان واستولى على ما لا يجب له ، فما أحار عليّ بن موسى نطقاً[1] » .

ومهما يكن من شيء فقد أغفل مؤتمر السقيفة هذه القرابة ، وأسقطها من حسابه ، ولم يثرها أحد من المؤتمرين أنصاراً كانوا أم مهاجرين ، وكانت فرصة لأبى سفيان فرفع عقيرته منادياً : « أين الأذلان عليّ والعباس[2] » ؟

---

(١) عيون الأخبار حـ ٢ ص ١٤٠ وما بعدها ط الدار .

(٢) حدثنا الطبرى قال : « قال أبو سفيان لعلى : ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش ؟ والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا ، قال فقال على يا أبا سفيان : طال ما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئاً ، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا » .

وفى رواية أخرى يقول ابن جرير : « لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله أنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم آل عبدمناف ، فيما أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان على والعباس ؟ وقال : أبا حسن أبسط يدك حتى أبايعك ، فأبى على عليه ، فجعل يتمثل بشعر المتلمس :

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف معكوس برمته ... وذا يشج فلا يبكى له أحد

قال فزجره على ، وقال : إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة ، وإنك والله طال ما بغيت الإسلام شراً ، لا حاجة لنا فى نصيحتك » الطبرى : حـ ٣ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ط الحسينية .

وفى شرح النهج :

« لما بايع بشير بن سعد أبا بكر وازدحم الناس على أبى بكر فبايعوه ، مر أبو سفيان بن حرب بالبيت الذى فيه على بن أبى طالب عليه السلام ، فوقف وأنشد :

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم ... وليس لها الا أبو حسن على
أبا حسن فاشدد بها كفّ حازم ... فأنك بالأمر الذى يرتجى ملى
وأى امرىء يرمى قصياً ورأيها ... منيع الحمى والناس من غالب قصى

فقال على لأبي سفيان : إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه ، وقد عهد إلىّ رسول الله صلى الله =

وبإمامة أبى بكر ، وبامتناع سعد بن عبادة عن مبايعته حتى قضى ، وبتلكؤ على وشيعته ، يذكيه تعصب فاطمة[1] وخصومتها لأبى بكر ، ابتدأ المسلمون تتباين آراؤهم فى ماهية هذا المنصب ، وفى صحة إمامة أبى بكر أو بطلانها ، ثم فى أحقية عمر وعثمان فى الخلافة ، وفى موقف على وزوجه وأنصاره . وقد بدأ هذا الخلاف ضعيفاً ثم أخذ سبيله فى القوة والعنف مسلحاً بالسيف ، كما بدأ دينياً ، ثم تطور سريعاً إلى أن صار سياسياً عنيفاً ، وقد كان أول نتاجه أن أودى بحياة الخليفة السيئ الطالع عثمان ، الذى كان قتله فصلاً من فصول هذا الخلاف المتسق الحلقات ، وقد زاده سعيراً واشتعالاً ما بثه ابن السوداء عبد الله بن سبأ فى نفوس الجماهير ، فصبغ تاريخ الخلافة الإسلامية بلون أحمر بما أشاع على جوانبها من دماء .

= عليه وآله عهداً فأنا عليه ، فتركه أبو سفيان وعدل إلى العباس بن عبد المطلب فى منزله ، فقال يا أبا الفضل : أنت لها أهل وأحق بميراث ابن أخيك ، امدد يدك لأبايعك فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتى إياك ، فضحك العباس وقال : يا أبا سفيان ، يدفعها على ويطلبها العباس ، فرجع أبو سفيان خائباً » ابن أبى الحديد مجلد ٢ ص ٧ .

(١) فى شرح النهج : « أن عليا حمل فاطمة على حمار وسار بها ليلا إلى بيوت الأنصار يسألهم النصرة وتسألهم فاطمة الانتصار له ، فكانوا يقولون : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ، ما عدلنا به ، فقال على : أ كنت أترك رسول الله ميتاً فى بيته لا أجهزه ، وأخرج إلى الناس أنازعهم فى سلطانه ؟! وقالت فاطمة : ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغى له ، وصنعوا هم ما الله حسبهم عليه » ابن أبى الحديد مجلد ٢ ص ٥ .

وفى الطبرى : « إن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر . فقال لهما أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول : لا نورث ما تركناه فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد فى هذا المال ، وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ، قال فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت ، فدفنها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر ، وكان لعلى وجه من الناس حياة فاطمة ، فلما توفيت فاطمة ، انصرفت وجوه الناس عن على . فمكثت فاطمة ستة أشهر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توفيت ، قال معمر فقال رجل للزهرى : أفلم يبايعه على ستة أشهر ؟ قال لا ، ولا أحد من بنى هاشم حتى بايعه على ، فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ، ضرع إلى مصالحة أبى بكر » الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢ ط الحسينية ، وانظر المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ج ١ ص ١٥٦ ط الحسينية بالقاهرة ، وكذلك « تتمة المختصر » أو تاريخ ابن الوردى ج ١ ص ١٤١ ؛ ط الوهبية بالقاهرة .

الإمامة عند الفرق الإسلامية

يخلع السادة الفقهاء لقب « الإمام » على رأس الجماعة الإسلامية ويسمى عادة « بالخليفة » ، وهو زعيم دينى ودنيوى ، ويطلق على هذا المنصب اسم « الإمامة الكبرى » تمييزاً له عن « الإمامة الصغرى » وهى وظيفة من يؤم الناس فى الصلاة . وسنعرض هنا لهذا المنصب وطريق ثبوته وشروط القائم به من وجهة نظر أهل السنة والخوارج والشيعة .

الإمامة عند أهل السنة :

يحدثنا الإيجى — عضد الدين صاحب المواقف[1] — أن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد ، بل هى عند أهل السنة من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين ، وهى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص ، وهى واجبة سمعاً لتواتر إجماع المسلمين فى الصدر الأول ، بعد وفاة الرسول على امتناع خلو الوقت عن إمام ، حتى قال أبو بكر فى خطبته : « ألا إن محمداً قد مات ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به » . فبادر الكل إلى قبوله ، ولما فى الإمامة من دفع ضرر مظنون ، وهو واجب إجماعاً ؛ قال الإيجى :

« بيانه أنّا نعلم علماً يقارب الضرورة أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود والمقاصات ، وإظهار شعار الشرع فى الأعياد والجمعات ، إنما هو مصالح عائدة إلى الخلق معاشاً ومعاداً ؛ وذلك لا يتم إلا بإمام يكون من قبل الشارع ، يرجعون إليه فيما يعنّ لهم ، فإنهم — مع اختلاف الأهواء ، وتشتت الآراء وما بينهم من الشحناء — قلّما ينقاد بعضهم لبعض ، فيفضى ذلك إلى التنازع

---

(١) المواقف ص ٣٩٥ وما بعدها ط مطبعة العلوم عام ١٣٥٧ هـ .

والتواثب ، وربما أدّى إلى هلاكهم جميعاً ، ويشهد له التجربة والفتن القائمة عند موت الولاة إلى نصب آخر[(١)] » .

وتثبت الإمامة عند أهل السنة بالنص من الإمام السابق ، وببيعة أهل الحل والعقد . ولا بد فى القائم بها من شروط تؤهله لهذا المنصب فاشترطوا أن يكون[(٢)] :

١ — عالماً بأحكام الله منفذاً لها ، مجتهداً فى علمه ، لأن التقليد نقص والإمامة تستدعى الكمال .

٢ — عادلاً ؛ لأن الإمامة منصب دينى ينظر فى سائر المناصب التى اشترطت فيها العدالة ، فكانت العدالة بذلك أولى باشتراطها فى الإمام .

٣ — كفئاً ؛ أى جريئاً فى إقامة الحدود واقتحام الحدود ، والقوة على معاناة السياسة ؛ لكى يصح له بذلك ما جُعل إليه من حماية الدين ، وجهاد العدو ، وإقامة الأحكام وتدبير المصالح .

٤ — سويًّا فى خَلقه : سليم الحواس والأعضاء من النقص والتعطيل كالجنون والعمى والصمم والخرس وفقدان كلتا يديه أو قدميه ، فلا بد للإمام من السلامة منها جميعاً لتأثير ذلك فى تمام عمله . أما إذا كان النقص يشين منظره فقط كفقد إحدى عينيه أو إحدى يديه أو قدميه ، فشرط السلامة منه شرط كمال .

يقول صلاح الدين الصفدى :

« الإمام لا يجوز أن يكون أعمى ؛ قال الرافعى رحمه الله تعالى : وينعزل بالعمى والصمم والخرس ، ولا ينعزل بتمتمة اللسان ، ولا ثقل السمع .

« وقال الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى فى شروط الإمامة : وهى كونه مكلفاً مسلماً عدلا حراً ذكراً عالماً مجتهداً شجاعاً ذا رأى وكفاية سميعاً بصيراً ناطقاً قرشياً .

« وقال ، قال الماوردى : عشا العين لا يمنع انعقاد الإمامة ؛ لأنه مرض فى زمن

---

(١) المواقف ص ٣٩٦ .

(٢) أنظر مقدمة ابن خلدون ص ٩٤ ط بولاق عام ١٢٧٤ هـ .

الاستراحة ويُرجى زواله ، وضعف البصر إن كان يمنع معرفة الأشخاص ، مَنَعَ انعقاد الإمامة واستدامتها وإلاّ فلا .

« قلت [الصفدى] : ولهذا كان بنو بويه وغيرهم إذا خلعوا الخليفة سملوه حتى لا يعود تُرجى له الخلافة ، ولا انعقادُ الإمامة ، كما فعل بأمير المؤمنين المتقى إبراهيم بن جعفر ، وبأمير المؤمنين المستكفى بالله عبد الله بن على ، وبأمير المؤمنين الطائع عبد الكريم بن الفضل ، وبأمير المؤمنين القاهر محمد بن أحمد ، وكما فعل الإمام الناصر بابنه الإمام الظاهر محمد بن أحمد ، وحاول من فساد بصره ولم يقدره الله تعالى[1] » .

وهناك شرط خامس تنوزع فيه ، وهو كون الإمام « قرشياً » فقال به بعض العلماء لما ورد عن الرسول أنه قال : « الأئمة من قريش » ، ولاحتجاج أبى بكر بذلك على الأنصار وحجِّهم ، وأنكره آخرون كالقاضى أبى بكر الباقلّانى[2] .

وللمؤرخ الاجتماعى الكبير العلامة ابن خلدون حديث فى هذا الصدد لم يسبق إليه ؛ إذ يقول :

« ونحن إذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشى ، ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبى صلى الله عليه وسلم كما هو فى المشهور ، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلاً ، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت ، فلا بد إذاً من المصلحة فى اشتراط النسب هى المقصودة من مشروعيتها ، وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التى تكون بها الحماية والمطالبة ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ، فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها ؛ وذلك أن قريشاً كانوا أنف مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على سائر مضر العزةُ بالكثرة والعصبية والشرف ، فكان

---

(١) نكت الهميان فى نكت العميان ص ٥٦ ط المطبعة الجمالية عام ١٩١١ م .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٥ ط بولاق .

سائر العرب يعترف لهم بذلك ، ويستكينون لغلبهم ، فلو جُعل الأمر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكره ، فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة ، والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم ، لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية ، بخلاف ما إذا كان الأمر فى قريش ؛ لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم ، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة ؛ لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها ، فاشترط نسبهم القرشى فى هذا المنصب ، وهم أهل العصبية القوية ، ليكون أبلغ فى انتظام الملة واتفاق الكلمة ، وإذا انتظمت كلمتهم ، انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع ، فأذعن لهم سائر العرب ، وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ، ووطئت جنودهم قاصية البلاد »[(١)]

وطاعة الإمام عند أهل السنة واجبة على الرعية لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، بيد أنها مقيدة بطاعة الإمام نفسه لله ، فإن حاد قُوِّم فإن تمادى عُزل ، وقد قال الإمام الأول أبو بكر فى خطبته الأولى التى تعد دستوراً لسياسته :

« أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّمونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى منكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يَدَعْ أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ؛ فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم ألا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »[(٢)] .

* * *

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٥ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٠٣ ط الحسينية .

الإمامة عند الخوارج :

هى عندهم صالحة لأى إنسان يُحسن القيام بها ، عالماً بالكتاب والسنة منفذاً لأحكامهما ، وإن لم يكن عالىَ النسب ، سواء فى ذلك القرشى والعجمى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، و « كلكم من آدم وآدم من تراب » ، « ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، و « اسمعوا وأطيعوا ولو وُلّى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » ، و « سلمان منا أهلَ البيت » ، وقد قال عمر بن الخطاب فى شكاته التى مات فيها : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيّاً استخلفته »(١) .

لهذا كله ولتلك الروح الديمقراطية التى هى من وحى الإسلام الحق ، بايعت الخوارج أناساً ليسوا من قريش ، واعتبروهم أئمة كنافع بن الأزرق وقطرىّ بن الفجاءة وغيرهما(٢) .

أما « النجدات »(٣) منهم فلم تعترف بالإمامة أصلاً ، ورأت أن الأمة ليست فى حاجة إلى إمام ؛ لأن نصبه يثير الفتنة ؛ فالأهواء مختلفة وقد يدعى كل قوم إمامة شخص وصلاحه لها دون الآخر ، فيقع التشاجر والتناجز ، والتجربة شاهدة بذلك ، وعلى الناس أن تقيم كتاب الله فيما بينهم وهو حسبهم ، قال الشهرستانى : « وأجمعت النجدات على أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز(٤) » .

* * *

الإمامة عند الشيعة :

رأينا من هذا العرض أن « الإمامة » عند أهل السنة ليست من أصول الدين ، وهى عند الخوارج ليست بذات خطر ، أما فى الإسلام الشيعى فهى كل شىء ،

---

(١) أنظر الطبرى حـ ٥ ص ٣٤ ، وابن الأثير حـ ٣ ص ٢٥ .
(٢) أنظر أصول الدين لعبد القاهر البغدادى حـ ١ ص ٢٧٥ ط استانبول .
(٣) النجدات إحدى فرق الخوارج وهى منسوبة إلى زعيمهم نجدة بن عامر .
(٤) الملل والنحل حـ ١ ص ١٦٧ ، ص ١٦٨ على هامش « الفصل » لابن حزم ط المطبعة الأدبية عام ١٣١٧ هـ .

وهى قطب الرحى فى معتقداته ، مفلسفة كل التفلسف معقدة كل التعقيد ، ومع ذلك فهى تميت العقل وتشل التفكير .

جاء فى « النهج » : « لما سمع (أى علىّ) قولهم (أى الخوارج) لا حكم إلا لله ، قال عليه السلام : كلمة حق يراد بها الباطل . نعم لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله . وإنه لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويُبلِّغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفىء ، ويُقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ للضعيف من القوى حتى يستريح برّ ويستراح من فاجر » .

قال ابن أبى الحديد — شارح النهج وهو من معتدلى الشيعة — « هذا نص صريح منه (أى من علىّ) عليه السلام بأن الإمامة واجبة »[١] .

ويحدثنا المجلسى — العالم المتشيع المتوفى عام ١٧٠٠ م — فى كتابه « حياة القلوب » حديثاً عن الإمامة طريفاً حيث يقول :

« الإمام لغة : المقتدى به ، ومعناه فى اصطلاح الفرقة الناجية فى باب الصلاة غالباً من يؤمها ، أما فى علم الكلام ، فالمراد بالإمام هو الشخص المعين من الله للخلافة ، ونيابة حضرة صاحب الرسالة ، وقد يطلق فى بعض الأحوال على النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، وتدل بعض الأخبار المتيسرة التى سنذكرها فيما بعد إن شاء الله ، أن مرتبة الإمامة أعلى حتى من مرتبة النبوة ؛ فإن الله تعالى بعد أن أعطى النبوة لإبراهيم خاطبه بقوله (إنى جاعلك للناس إماما)[٢] .... !! »

والمجلسى كمتشيع يوجب على الله نصب الإمام لحفظ الشريعة من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان ؛ فآيات القرآن مجملة ، وأكثر الأحكام غير معلوم من ظاهر القرآن ، لذلك وجب وجود مفسر من جانب الله لاستنباط الأحكام من الله فالإمامة لطف من الله ، واللطف واجب عليه ؛ لأنه لا يفعل إلا الأصلح لعباده[٣] .

---

(١) شرح النهج مجلد١ ص ٢ . ١٥

(٢) عقيدة الشيعة لمؤلفه « دوايت دونلدسن » Doneldson ص ٣٠٤ نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة .   (٣) الشيعة فى الأصول معتزلة وفى الفروع أحناف .

وهكذا نرى أن الإمامة عند الشيعة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، لا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم .

حدثنا الشيخ أبوجعفر الأعور محمد بن يعقوب الكلينى — المتوفى عام ٣٢٨هـ— فى كتابه « الكافى » — بخارى الشيعة — نقلاً عن الإمام الرضى قال : « إن الإمامة هى منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء ، إن الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول ، ومقام أمير المؤمنين ، وميراث الحسن والحسين ، إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين ، إن الإمامة أسُّ الإسلام النامى وفرعه السامى ؛ بالإمامة تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، وتوفير الفىء والصدقات وإمضاء الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف . . . الخ[1] » .

فالإمام فى الإسلام الشيعى هو الرئيس الأوحد من الوجهتين الدينية والدنيوية ، وقد تلقى إمامته مباشرة من الله ، لا كذلك الذى يتقلد السلطة عن طريق اختيار المسلمين ، وبحق ما يقوله الأب لامنس Lammens من أن الخليفة عند السنة هو رئيس السلطة الزمنية فحسب، فهو مجرد من كل سلطة تتعلق بالعقيدة ، وليس الخليفة سوى حامى الشريعة والذائد عن حياض الإسلام ، وهو لا يشبه الإمام عند الشيعة الذى هو حبرها الأكبر ومعلمها المعصوم ، وهو ليس خليفة محمد الزمنى فحسب ، بل وارث مركزه والمنصوص عليه منه ومفسر وحيه ، وهو بكلمة مختصرة الزعيم الدينى والدنيوى ، ومركزه أسمى من مركز البابا فى الكنيسة الكاثوليكية ؛ إذ يمتاز فضلاً عن العصمة بالتنزيه ، والنصب من الله ، فهو الطريق الوحيد للوصول إلى معرفة الله .

وتؤثر الشيعة لقب « الإمام » على « الخليفة » لما يدل عليه الأول عندهم من معنى لا يلحظونه فى الثانى ، وأمامهم ليس من عامة الناس وأفنائهم ، بل هو عربى

---

(١) الكافى للكلينى ح ١ ص ٩٦ و ٩٧ ط طهران عام ١٢٨١ هـ .

قرشي هاشمي ؛ جاء فى (النهج) : « إن الأئمة من قريش غُرسوا فى هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم »(١) ، ومن الشيعة من حجَّر هذا الواسع بعض الشيء فقصرها على ولد فاطمة .

والإمام فى الإسلام الشيعى يُوحى إليه كالأنبياء والرسل ؛ جاء فى (الكافى) : « كتب الحسن بن العباس المعروفى إلى الرضى : جُعلتُ فداك ، أخبرنى ما الفرق بين الرسول والإمام والنبى ؟ فكتب أو قال : الفرق بين الرسول والنبى والإمام أن الرسول هو الذى ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحى وربما رأى فى منامه نحو رؤيا إبراهيم ، والنبى ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والإمام هو الذى يسمع الكلام ولا يرى الشخص »(٢) . ومن هنا جاءت عصمة الإمام عند الشيعة ، فهو عندهم معصوم من الكبائر والصغائر بيد أن له التقية ، وقال غلاتهم : لا بد من ظهور المعجزة على يديه ليُعلَم صدقه فى دعوى الإمامة ، ولا غرو فالإيمان به عندهم جزء من الإيمان ؛ جاء فى (الكافى) :

« عن أبى حمزة قال لى أبو جعفر : إنما يَعبد اللهَ من يعرف الله ، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالاً . قلت : جُعلتُ فداك فما معرفة الله ؟ قال : تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله وموالاة علىّ والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة إلى الله عز وجل من عدوّهم ، هكذا يُعرَف الله(٣) » ، « ومن لا يعرف الله عز وجل ويعرف الإمام منّا أهل البيت فإنما يعرف ويعبد غير الله »(٤) ، « وقال أبو جعفر : إن من أصبح من هذه الأمة لا إمام له ، أصبح ضالاً تائهاً ، وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق »(٥) .

---

(١) ابن أبى الحديد مجلد ٢ ص ٤٢١ .
(٢) الكافى حـ ١ ص ٨٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ٨٥ .
(٥) الكافى حـ ١ ص ٨٦ .

وإمامُ الشيعة الأول هو « على بن أبى طالب » قد اختاره النبي وعيَّنه صراحة ليخلفه بعد موته ، وذلك بنص أُعلن عند غدير « خُم » « من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه » قال الكميت فى « هاشمياته[1] » :

ويومَ الدَّوْح دوح غدير خُمٍّ أبان له الولاية لو أطيعا
ولكنّ الرجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً مَبيعا
فلم أبلغ بها لعناً ولكن أساء بذاك أوّلهُم صنيعا
تناسَوا حقه و بغوا عليه بلا تِرَةٍ وكان لهم قريعا

وفى هذا الصدد أيضاً يقول الشاعر المتشيع مهيار الديلمى[2] :

وقائلٍ لى « علىٌّ » كان وارثه بالنص منه فهل أعطوه أم منعوا ؟
فقلتُ كانت هَناتٌ لست أذكرها يجزى بها اللهُ أقواماً بما صنعوا
واسألهم يوم « خُمٍّ » بعد ماعقدوا له الولاية لِمْ خانوا ولمْ خلعوا ؟

وخُمٌّ هذا موضع بين مكة والمدينة به غدير أو بطيحة ؛ قال صاحب القاموس : « وخُمٌّ بئر حفرها عبد شمس بن عبد مناف بمكة ، وغدير خُمٍّ موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين » .

وقال الوزير أبو عبيد الله البكرى الأونبى فى معجمه « معجم ما استعجم[3] » :

« وغدير خمّ على ثلاثة أميال من الجحفة يَسْرَةً عن الطريق ، وهذا الغدير تصب فيه عين ، وحوله شجر كثير ملتف ، وهى الغيضة التى تسمى « خُمّ » و بين الغدير والعين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهناك نخلُ ابن المعلّى وغيره ، و بغدير خمّ قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ : (من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه) ، وذلك منصرفه من حجة الوداع ، ولذلك قال بعض الشيعة :

---

(١) الهاشميات ص ٨١ و ص ٨٢ طبع الرافعى

(٢) ديوان مهيار حـ ٢ ص ١٨٣ ط الدار .

(٣) معجم ما استعجم للبكرى حـ ٢ ص ٣٦٨ ط القاهرة .

ويوماً بالغدير غدير خمٍّ … أبان له الولاية لو أطيعا

ويقول البكرى أيضاً فى موضع آخر من معجمه :

« قال السكونىّ : موضع الغدير ، غدير خُمّ ، يقال له الخرّار ، وقال النُّصَيب :

وقالت بالغدير غدير خمٍّ … أُخىَّ إلى متى هذا الركوبُ ؟

ألم ترأننى ما دمتَ فينا … أنامُ ، ولا أنام إذا تغيبُ ؟

وقال الزبير : عن الأثرم عن أبى عبيدة ، خُمٌّ : بئر احتفرها عبد شمس بالبطحاء بعد بئره العَجُول ، قال : ومن حفائره أيضاً زُمٌّ ، وفى ذلك يقول :

حفرتُ خُمًّا وحفرت زُمًّا … حتى ترى المجد لنا قد تمَّا

خُمٌّ : عند ردم بنى جُمَح ، وزُمٌّ : عند دار خديجة بنت خويلد »[1] .

والشيعة تزعم أن النبى ، عند عودته من مكة بعد حجة الوداع ، وقف فى هذا الموضع وآخى بينه و بين على بن أبى طالب ورشحه بعده للأمامة قائلاً : « علىّ منى كهرون من موسى ، اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله[2] » .

قال القلقشندى :

« قد ابتدعت الشيعة عيداً ثالثاً وسموه عيد الغدير ، وسبب اتخاذهم له ، مؤاخاة النبى صلى الله عليه وسلم لعلىّ كرم الله وجهه يوم غدير خم . وهو غدير على ثلاثة أميال عند الجحفة يَسرَة[3] الطريق ، تصب فيه عين ، وحوله شجر كثير ، وهى الغيضة التى تسمى خُمًّا ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من حجة الوداع نزل بالغدير ، وآخى بين الصحابة ، ولم يواخ بين علىّ و بين أحد منهم ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم منه انكساراً ، فضمه إليه وقال : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟ » والتفت إلى أصحابه وقال : « من

---

(١) معجم ما استعجم حـ ٢ ص ٥١٠ .

(٢) أنظر الشهرستانى حـ ١ ص ٢٢٠ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

(٣) فى نهاية الأرب للنويرى حـ ١ ص ١٨٤ : « بسرة الطريق » .

كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة ، والشيعة يحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ، ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال ، وشعارهم فيه لبس الجديد وعتق العبيد ، وذبح الأغنام ، وإلحاق الأجانب بالأهل في الإكرام ، والشعراء والمترسلون يهنئون الكبراء منهم بهذا العيد[1] » .

وابن واضح اليعقوبي ، وهو مؤرخ متشيع ، يحدثنا حديث الغدير ؛ فيقول : « وخرج صلى الله عليه وسلم ليلاً منصرفاً إلى المدينة ، فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له (غدير خم) ؛ لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ، وقام خطيباً وأخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[2] . » الخ

ويقص علينا الملاّ محمد باقر المجلسي — أحد أعلام الشيعة في القرن السابع عشر — خلاصة لهذا الحدث ذي الأهمية البالغة في الإسلام الشيعي ، فيقول :

« لما انقضت مناسك الحج ، قفل النبي صلى الله عليه وسلم راجعاً من مكة إلى المدينة ومعه عليٌّ عليه السلام والمسلمون ، فلما بلغ غدير خم نزل هناك ، وهو مكان لم يكن نزول المسافر متعارفاً فيه ، والسبب في نزوله هناك ، ما أنزل عليه من القرآن بلزوم نصب عليٍّ عليه السلام خليفة من بعده ... ! ، وقد أنزل ذلك عليه عدة مرات ... ! ، غير أن الوقت لم يُعيَّن لتبليغه ، وقد أخر ذلك خشية اعتراض الناس ، ولو جاوز ذلك المكان ، أي غدير خم ، لتفرق الناس وذهبت كل قبيلة ناحية ، فأمر محمد صلى الله عليه وسلم الناس بالاجتماع ليقول لعليٍّ عليه السلام ما يجب أن يبلغهم جميعاً ، وقد أنزل الله عليه « يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن

---

(١) أنظر صبح الأعشى حـ ٢ ص ٤٠٧ ط الدار .

(٢) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٩٣ ط النجف بالعراق عام ١٣٥٨ هـ ، وانظر أيضاً ابن كثير ، البداية والنهاية حـ ٧ ص ٣٤٦ ط السعادة بالقاهرة .

لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس » ، وكان لذلك الأمر بنصب علىّ عليه السلام خليفة ، أن نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه فى ذلك المكان ، وكان الهواء فى غاية الحرارة ، والمكان مملوءاً بالأشواك ، حتى كان الرجل يضع الرداء تحت قدميه من شدة الرمضاء ، وأمر الرسول أن ينصب له منبر من أقتاب الإبل ، فلما نصب له واجتمع الناس ، ارتقى محمد صلى الله عليه وسلم المنبر ، ودعا عليًّا إلى يمينه ، و بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، أخبر الناس بدنوّ أجله قائلا : ولقد دُعيت إلى ربى و إنى مجيب ، و إنى مغادركم من هذه الدنيا ، و إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترةَ أهل بيتى — ثم قال : ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : نعم ، فأخذ بيد علىّ عليه السلام ورفعها حتى بان بياض إبطه وقال : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، فلما نزل النبى من على المنبر ، صلّى صلاة الظهر ، ثم ذهب إلى خيمته ، وأمر بنصب خيمة بجانب خيمته لأمير المؤمنين ، فجلس علىّ فى خيمته ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس أن يبايعوه بالإمامة ، و يسلموا عليه بأمرة المؤمنين ، ففعلوا نساء ورجالاً ، وسُرَّ عمر بذلك مثل غيره[1] . . . » ! !

وقد نظم شاعر الشيعة السيد الحميرى ، حادثة خُمٍّ هذه فى قصيدة ضافية ، قال فيها[2] :

عجبتُ من قوم أتوا أحمدا	بخُطةٍ ليس لهـا موضعُ
قالوا له لو شئت أعلمتنا	إلى مَنِ الغايةُ والمفزعُ
إذا تُوفِّيتَ وفارقتنـــا	وفيهمُ فى الملك مَن يطمع
فقال لو أعلمتــكم مَفْزَعاً	كنتم عسيتم فيه أن تصنعوا
كصُنع أهل العجل إذ فارقوا	هارونَ فالتَّركُ له أورع

---

(١) عقيدة الشيعة لدونلدسن ص ٢٥ ومابعدها وقد نقل هو عن حياة القلوب المجلسى ح ٢ ص ٣٣٩

(٢) انظر تفسير الألوسى شهاب الدين (روح المعانى) ح ٢ ص ٣٤٩ ط بولاق ، وانظر أيضاً ضحى الإسلام لأحمد أمين ح ٣ ص ٣٠٩ وما بعدها .

ثم أتته بعـــده عزمةٌ من ربه ليس لها مَدْفَع
أَبْلِـغْ وإلا لم تـكن مُبْلغاً والله منهم عاصم يمنع
فعنــدها قام النبي الذي كان بمــا يأمره يصدع
يخطب مأموراً وفى كفه كفُّ عليٍّ نورها يلمع
رافعها أكرِمْ بكفٍّ الذي يَرفع والـكف التى تُرفع
من كنت مولاه فهـذا له مولىً فلم يرضوا ولم يقنعوا
وظل قوم غاظهم قوله كأنما آنافهم تُجـــدَع
حتى إذا واروه فى لحده وانصرفوا عن دفنه ضيعوا
ما قال بالأمس وأوصى به واشتروا الضر بما ينفع
وقطعوا أرحامهم بعـــده فسوف يجزَون بما قطّعوا
وأزمعوا مكراً بمـــولاهم تبًّا لمـا كانوا به أزمعوا
لا همْ عليه يردوا حوضه غــداً ولا هوَّ لهم يشفع

والحق أننا لا ندرى من أى مصدر موثوق به استقى المتشيعون هذه الحادثة ، التى لم تر وها كتب التاريخ المعتبرة ، والتى لو وقعت حقاً — كما يزعمون — أمام هاته الآلاف من الناس ، لتحدث بها كل لسان ، ولما أجمع المؤرخون الثقات على إغفالها وإسقاطها ، ولـكانت نصاً صريحاً من النبي بخلافة علىّ من بعده ، فتـكون بذلك حداً فيصلاً حاسماً فى هذا الأمر ، فلا يكاد يختلف فيه بعد وفاة صاحبه اثنان ؟!

وابن أبي الحديد — وهو متشيع — ينـكر وجود نص من النبي بإمامة أحد من بعده ، علياً كان أو غيره ، ويقول : لو كان هناك نص لاحتج به أبو بكر على الأنصار لو كان يعنيه ، أو لاحتج به علىٌّ على أبى بكر لو أنه عثر عليه ، ولـكان ذلك من أكبر حججه ؛ ففى شرح النهج :

« ولقد قال أبو عبيدة لعلىّ ، لـما امتنع عن المبايعة : يا أبا الحسن إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى

أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً له واضطلاعاً به ، وسلِّم له هذا الأمر وارض به ، فإنك إن تعش و يطل عمرك فأنت لهذا الأمر خليق و به حقيق ، فى فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك .

« فقال علىّ : يا معشر المهاجرين ، الله الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره و بيته إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه ، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم ، أما كان منا القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بالسنة ، المضطلع بأمر الرعية ؟ والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً .

« فقال بشير بن سعد : لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علىّ قبل بيعتهم لأبى بكر ما اختلف عليك اثنان ، ولكنهم قد بايعوا » .

قال ابن أبى الحديد :

« وانصرف علىّ إلى منزله ولم يبايع ، ولزم بيته حتى ماتت فاطمة فبايع . قلت (ابن أبى الحديد) : هذا الحديث يدل على بطلان ما يُدَّعى من النص على أمير المؤمنين وغيره ، لأنه لو كان هناك نص صريح لاحتج به ، ولم يجر للنص ذكر ، و إنما كان الاحتجاج منه ومن أبى بكر ومن الأنصار بالسوابق والفضائل والقرب ، فلو كان هناك نص على أمير المؤمنين ، أو على أبى بكر ، لاحتج به أبو بكر أيضاً على الأنصار ، ولاحتج به أمير المؤمنين على أبى بكر ؛ فإن هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة ، يدل على أنه (علىّ) قد كان كاشفهم ، وهتك القناع بينه و بينهم ، ألا تراه كيف نسبهم إلى التعدى عليه وظلمه ؟ وتمنع من طاعتهم وأسمعهم من الكلام أشده وأغلظه ؟ فلو كان هناك نص لذكره ، أو ذكره بعض من كان من شيعته وحزبه لأنه لا عطر بعد عروس[1] » .

---

(١) شرح النهج لابن أبى الحديد المجلد ٢ ص ٥ ط القاهرة ، وانظر أيضاً ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٥ ص ٢٥٢ .

نعم لا عطر بعد عروس ، فلو صحت حادثة الغدير هذه ، لاحتج بها عليّ ما فى ذلك شك ، وأهل السنة ينكرون وجود عليّ يوم الغدير ، كما ينكرون بحق نصوص[1] الشيعة وأحاديثهم . وقد قال فى حقها المؤرخ العلامة ابن خلدون :

« لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع ، أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة[2] » .

وقال العلامة ابن حزم : « وأما من كنت مولاه فعليّ مولاه ، فلا يصح من طريق الثقات أصلاً ، وأما سائر الأحاديث التى تتعلق بها الرافضة فموضوعة ، يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار ونقلتها[3] » .

على أن نفس النص الذى أوردته الشيعة — على فرض صحته — لا يفيد مدّعاهم ؛ قال الإمام أبو بكر بن الباقلانى فى كتابه « التمهيد » :

« أما معنى مولى فإنه ينصرف على وجوه : فمنها المولى بمعنى الناصر ، ومنها المولى بمعنى ابن العم ، ومنها المولى بمعنى المُوالى المحب ، ومنها المولى بمعنى المكان والقرار ، ومنها المولى بمعنى المُعتِق المالك للولاء ، ومنها المولى بمعنى المعتَق الذى مُلك ولاؤه ، ومنها المولى بمعنى الجار ، و منها المولى بمعنى الصهر ، ومنها المولى بمعنى الحِلف ؛ فهذا جميع مايحتمله قوله مولى . وليس من معنى هذه اللفظة أن المولى إمامٌ واجب الطاعة .

« قال الله تعالى فى المولى بمعنى الناصر : « و إن تظاهروا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالحُ المؤمنين » يعنى ناصره ، وقال الأخطل :

فأصبحتَ مولاها من الناس كلهم وأحرى قريش أن تُهاب وتُحمدا

---

(١) أنظر ما كتبه العلامة ابن حزم فى هذا الصدد فى كتابه « الفصل » حـ ٤ ص ٩٦ وما بعدها ط مطبعة التمدن .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ ط بولاق عام ١٢٧٤ هـ ، وانظر أيضاً تفسير الألوسى حـ ٢ ص ٣٤٩ وما بعدها ط بولاق .

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل حـ ٤ ص ١٤٨ .

أى فأصبحت ناصرها وحامى ذمارها . وأما المولى بمعنى ابن العم فمشهور ؛ قال الله تعالى : « وإنى خفتُ الموالى من ورائى » يعنى بنى العم ، وقال الفضل ابن العباس بن عتبة بن أبى لهب يخاطب بنى أمية :

مهلاً بنى عمِّنا مهلاً موالينا لاتُنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لاتحسبوا أن تُهينونا ونـكرمكم وأن نـكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنّا لا نُحبُّـكُمُ ولانلومُـكُمُ ألاَّ تُحبُّونا

« وأما المولى بمعنى المعتِق والمعتَق ، فأظهر من أن يكشف ؛ يقال : فلان مولى فلان يعنى معتِقه ومالكَ ولائه ، وفلان مولى لفلان يراد به مُعتَقٌ له . وأما المولى بمعنى الموالى المحب فظاهر فى اللغة ؛ يقال فلان مولى فلان أى مُحبٌّ له وولىٌّ له ؛ وقد رُوى فى قول النبى صلى الله عليه : « مُزَينةُ وجُهَينةُ وأسلمُ وغِفارٌ موالى الله ورسوله » أى مُحِبُّون موالون لهما . وأما المولى بمعنى الجار فمعروف فى اللغة ؛ قال مِرْبَعُ بن دَعْدَعَة ، وكان جاور كُلَيْب بن يربوع فأحسنوا جواره :

جزى الله خيراً والجزاءُ بكفِّه كُلَيْبَ بن يربوع وزادهُمُ حمدا
هُمُ خلطونا بالنفوس وألجوا إلى نصر مولاهُمُ مُسَوَّمَةً جُردا

أى إلى نصر جارهم . وأما المولى بمعنى الصِّهر فمعروف أيضاً ؛ قال أبو المختار يزيد بن قيس الـكلابى فى ظلامته إلى عمر فى أُمرائه :

فلا تنسينَّ النافِعَيْن كليهما وهذا الذى فى السُّوق مولى بنى بدر

وكان الرجل صهراً لبنى بدر . وأما المولى بمعنى الحليف فمذكور أيضاً ؛ قال بعض الشعراء :

مَوَالىَ حِلْفٍ لامَوَالِى قرابةٍ ولـكنْ قطيناً يَعْصِرُون الصَّنَوْبرا

« فأما ماقصد به النبى صلى الله عليه بقوله : « من كنتُ مولاه فعلىٌّ مولاه » فإنه يحتمل أمرين ، أحدهما : من كنتُ ناصره على دينه وحامياً عنه بظاهرى و باطنى وسرى وعلانيتى ، فعلىٌّ ناصره على هذا السبيل ؛ فتكون فائدة ذلك الإخبار

عن أن باطن عليّ وظاهره فى نصرة الدين والمؤمنين سواءٌ ، والقطعَ على سريرته وعلو رتبته ، وليس يُعتقد ذلك فى كل ناصر المؤمنين بظاهره ؛ لأنه قد ينصُر الناصر بظاهره ، طلبَ النفاق والسمعة وابتغاء الرِّفد ومتاع الدنيا ؛ فإذا أخبر النبى صلى الله عليه أن نُصرة بعض المؤمنين فى الدين والمسلمين كنُصرته هو ، صلى الله عليه ، قُطع على طهارة سريرته وسلامة باطنه ؛ وهذه فضيلة عظيمة .

« و يُحتمل أيضاً أن يكون المراد بقوله : « فمن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه » أى من كنتُ محبوباً عنده ووليًّا له على ظاهرى و باطنى ، فعليٌّ مولاه ، أى إن ولاءه ومحبته من ظاهره و باطنه واجب ، كما أن ولائى ومحبتى على هذا السبيل واجب ، فيكون قد أوجب موالاته على ظاهره و باطنه ؛ ولسنا نُوالى كل من ظهر منه الإيمان على هذه السبيل ، بل إنما نواليهم فى الظاهر دون الباطن[1] » .

وأما الأبيات التى رواها لنا ابن الشيخ أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى فى كتابه « ألف با[2] » والتى يقول فيها عليٌّ معدداً مفاخره :

محمد النبى أخى وصهرى ... وحمزة سيد الشهداء عمى
و بنت محمد بيتى وعرسى ... منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها ... فأيكمُ له سهم كسهمى ؟
وجعفر الذى يمسى ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمى
سبقتكمُ إلى الإسلام طفلاً ... صغيراً مابلغت أوان حلمى
وأوجب لى الولا حقاً عليكم ... رسولُ الله يوم غدير خم

أقول أما هذه الأبيات فأكبر الظن أنها ليست لعلىّ وإنما هى لعلوى ، و إن صحَّ إسناد الأبيات الأولى لابن أبى طالب ، فالبيت الأخير — بيت القصيد — منحول عليه مافى ذلك ريب ، يؤيدنا فى ذلك ياقوت الحموى حينما حدثنا فى معجمه

---

(١) التمهيد للقاضى أبى بكر الباقلانى ص ١٧١ وما بعدها ط القاهرة ، وانظر أيضاً ماكتبه العلامة الألوسى الكبير فى تفسيره فى هذا الصدد حـ ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها ط بولاق .

(٢) ألف با حـ ١ ص ٤٣٩ ط القاهرة .

— معجم الأدباء[1] — حديث هذه الأبيات ؛ إذ لم يرو هذا البيت الأخير المنحول وكذلك فعل ابن كثير[2] .

وأهل السنة يحترمون عليًّا ويعتبرونه — دون مساس بحقوق أسلافه فى الخلافة — رجلاً ذا فضائل ومعارف تفوق المألوف ، وهو « ربانى هذه الأمة » كما لقّبه بذلك الحسن البصرى ، بيد أن الشيعة لم ترضهم هذه المرتبة المتواضعة ، فرفعه المعتدلون منهم إلى أخرى ، لا يدانيه فيها أحد ، حيث قالوا إن النبى قد بثّه علوماً كان يخفيها عن جمهور صحابته ؛ لأنهم لم يكونوا لها أهلاً ، وإن كان علىّ نفسه ينكر ذلك ؛ ففى مسند أحمد : « عن مخارق عن طارق (يعنى ابن شهاب) قال سمعت عليا يقول : ماعندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا ما فى القرآن وما فى هذه الصحيفة (صحيفة كانت فى قراب سيف كان عليه ، حليته حديد) ، أخذتها من رسول الله ، فيها فرائض الصدقة » .

وأكبر الظن أن عليًّا قد رُمى بذلك حال حياته حتى لينكره أشد الإنكار ، على أننا بذلك نجد مزاعم الشيعة تصعد بذورها إلى العصر الإسلامى الأول ، وفى هذا الصدد نجد أيضاً شخصيتين كبيرتين — صحابياً وتابعياً — هما ابن عباس وابن الحنفية ، من ولد علىّ ، يُسألان عن ذلك ، فيؤكدان أن النبى لم يترك سوى القرآن ؛ ففى « الجامع الصحيح » لمحمد بن إسماعيل البخارى الجعفى :

« حدثنا قتيبة بن سعد ، حدثنا سفيان (يعنى ابن عيينة) عن عبد العزيز بن رفيع قال : دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس ، فقال له شداد بن معقل : أترك النبى من شىء ؟ (زاد الإسماعيلى سوى القرآن) قال : ما ترك إلا ما بين الدفتين ، قال ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه ، فقال : ما ترك إلا ما بين الدفتين » .

وقد زعمت الصوفية هذا الزعم نفسه فى الصحابى « حذيفة بن اليمان » الذى

(١) معجم الأدباء حـ ١٤ ص ٤٨ ط دار المأمون .

(٢) البداية والنهاية حـ ٨ ص ٨ .

يشغل فى حياتهم ما يشغله علىّ عند شيعته ، وقد وصفه الخطيب البغدادى بأنه : « كان صاحب سرّ رسول الله ؛ لقربه منه وثقته به وعلوّ منزلته عنده[١] » ، ولكننا مع ذلك نجد أن عليًّا قد أربى فزاحم حذيفة لدى الصوفية ، حتى ليقول ابن الفارض فى « تائيته الكبرى » :

وأوضح بالتأويل ما كان مشكلاً علىٌّ بعلمٍ ناله بالوصية

وقد قالوا بخلوده ورجعته ؛ روى الشعرانى عن الصوفى « على وفا » أنه كان يقول : « إن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه رُفع كما رُفع عيسى عليه السلام ، وسينزل كما ينزل عيسى عليه السلام » ثم قال الشعرانى : « و بذلك قال سيدى علىّ الخوّاص رضى الله عنه فسمعته يقول : إن نوحاً عليه السلام أبقى من السفينة لوحاً على اسم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يُرفع عليه إلى السماء ، فلم يزل محفوظاً فى صيانة القدرة حتى رُفع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فالله أعلم بذلك[٢] » .

والإسلام السنّى يرفض بحق رفضاً باتاً أن يكون الرسول — حاشاه — قد خصّ أحداً من الناس بعلم كتمه عن جمهور صحابته ؛ قال العلامة ابن حزم :

« واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سرّ تحته ، كله برهان لا مسامحة فيه ، واتهموا كل من يدعو أن يتبع بلا برهان ، وكل من ادّعى للديانة سرًّا وباطناً ، فهى دعاوى ومخارق ، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب ، على شىء من الشريعة ، كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده عليه السلام سرٌّ ولا رمز ولا باطن ، غير ما دعا الناس كلهم إليه ولو كتمهم شيئاً لما بلّغ كما أمر[٣] » .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى حـ ١ ص ١٦١ وما بعدها ط القاهرة .
(٢) أنظر طبقات الشعرانى حـ ٢ ص ٥٠ ط بولاق عام ١٢٧٦ هـ .
(٣) الفصل حـ ٢ ص ١١٦ ط المطبعة الأدبية .

وعلىّ عند الشيعة هو وصىّ محمد ؛ إذ لابد للأنبياء عندهم من أوصياء ، كما تنص على ذلك تعاليم أستاذهم عبد الله بن سبأ ، و باختيار النبي لعلىّ خليفة له أصبح هذا وصيَّه ، قال ابن سبأ : « إن لكل نبي وصيًّا وإن عليا وصىّ محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء[1] » .

وقد روت الشيعة عن النبي أنه قال : « من الذى يبايعنى على ماله ؟ فبايعته جماعة ، ثم قال : من الذى يبايعنى على روحه وهو وصيي وولى هذا الأمر من بعدى ؟ فلم يبايعه أحد حتى مدّ أمير المؤمنين علىّ عليه السلام يده إليه فبايعه على روحه[2] » . وهم بأمثال هذا الخبر المختلق يحملوننا على تصديق اختيار النبي لعلىّ لولاية الأمر من بعده ، كما يريدون إيهامنا بأن لفظ « الوصىّ » جرى على لسان النبي وأنه من وضعه ، بيد أن هذا القول الفسل المنسوب إليه عليه السلام ، ليس له من القوة ما يحملنا على شىء من ذلك ، فهو ضعيف متهدم متهالك لا يكاد يقف على قدميه ودلائل نحله ظاهرة . وقد أنكرت عائشة ذلك كل الإنكار ؛ فنى صحيح البخارى :

« ذكروا عند عائشة أن عليًّا رضى الله عنهما كان وصيًّا ، فقالت متى أُوصى إليه ؟ ، وقد كنت مسندته إلى صدرى — أو قالت حجرى — فدعا بالطست ، فلقد انخنث فى حجرى ، فما شعرت أنه قد مات ، فتى أُوصى إليه[3] ؟ »

وقد لقب الخوارج عليًّا بهذا اللقب (الوصىّ) فيما دار بينهما من جدال بعد التحكيم ، وقد قبله منهم علىّ وارتضاه إذ يقولون له فى جدالهم ، كما يحدثنا ابن واضح اليعقوبى : « وزعم أنه وصىّ فضيَّع الوصية » ، فيجيبهم علىّ بقوله :

« وأما قولكم إنى كنت وصيًّا فضيعت الوصية ، وأن الله عز وجل يقول : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين)

---

(١) مختصر الفرق بين الفرق للرسعنى ص ١٤٣ ط القاهرة .

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستانى حـ ١ ص ٢٢٠ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

(٣) أنظر البخارى حـ ٤ ص ٣ و حـ ٦ ص ١٤ ط بولاق ، وأنظر أيضاً ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٥ ص ٢٥١ .

أفرأيتم هذا البيت لو لم يحج إليه أحد كان البيت يكفر ؟ إن هذا البيت لو تركه من استطاع إليه سبيلاً كفر ؟ وأنتم كفرتم بترككم إياى ، لا أنا كفرت بتركى لكم[1] » .

ونحن أمام هذا النص الذى جاءنا به اليعقوبى ، وهو مؤرخ متشيع ، إزاء فروض ثلاثة ؛ فإما أن يكون علىّ نفسه قد ابتدع هذا اللقب ابتداعاً وزعمه لشخصه ، حتى ليقول له الخوارج « وزعم أنه وصىّ » ، وهذا أضعف الفروض وأبعدها ، وإما أن يكون الناس فى عصره قد خلعوه — مع فلسفته — عليه خلعاً ، بتأثير عناصر أجنبية كتعاليم ابن السوداء مثلاً ، فلم يتردد هو فى قبوله ولو سياسياً لا دينياً . وقد يكون هذا الفرض قريباً إلى المعقول ، ولكن يمنعنا من الأخذ به دين علىّ وعدم معرفته بالسياسة ، التى أخفق فيها إخفاقاً تاماً . وأكبر الظن أن الاختلاق جاء فى نسبة هذا النص لعلىٍّ كدأب أشياعه دائما ، عادة معروفة من أخذم ، ولنا فى لغته الركيكة — التى لا تناسب بلاغة علىّ المعترف بها — وحججه الواهنة الصبيانية ، ورمى علىّ للخوارج بالكفر لمجرد تركهم له ، ما يقوّى كثيراً من هذا الظن ، وما آفة الأخبار إلا رواتها .

وابن أبى الحديد يحدثنا فى شرحه للنهج فيقول :

« لا ريب عندنا أن عليًّا عليه السلام كان وصىّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن خالف فى ذلك من هو منسوب عندنا إلى العناد ولسنا نعنى بالوصية النص على الخلافة ، ولكن أموراً أخرى ، لعلها إذا لمحت أشرف وأجل[2] » .

وأكبر الظن أن ابن أبى الحديد يقصد بهذه الأمور التى هى أشرف وأجل ، ما يزعمونه من اختصاص النبى لعلىّ بعلوم لا يشركه فيها غيره . وقد أورد شارح النهج أبيات قيلت فى الوصية[3] ، نقلها عن أبى مخنف لوط بن يحيى ، وعن نصر

---

(١) أنظر تاريخ ابن واضح اليعقوبى حـ ٢ ص ١٦٨ ط النجف .

(٢) شرح النهج مجلد ١ ص ٤٦ ط القاهرة .

(٣) المصدر السابق مجلد ١ ص ٤٧ وما بعدها .

ابن مزاحم بن يسار المنقرى ، منهـا قول عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب :

ومنّـا علىٌّ ذاك صاحب خيبر   وصاحب بدر يوم سالت كتائبه
وصىُّ النبى المصطفى وابن عمه   فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه

وقول أبى الهيثم بن التيهان وكان بدريا :

قل للزبير وقل لطلحة إننـا   نحن الذين شعارنا الأنصار
نحن الذين رأت قريش فعلنا   يوم القليب أولئك الـكفار
كنا شعار نبينا ودثاره   يفديه منـا الروح والأبصار
إن الوصىّ إمامنا وولينا   برح الخفاء وباحت الأسرار

ويقال إن رجلاً من قبيلة « الأزد » قال يوم الجمل : وإنك لتلمح فى شعره دلائل الوضع :

هـذا علىّ وهو الوصى   آخاه يوم النجوة النبى
وقال هـذا بعدىَ الولى   وعاه واع ونسى الشقى

ويقال أيضا إن غلاماً من بنى ضبة معلماً ، خرج من معسكر عائشة يوم الجمل وهو يقول :

نحن بنو ضبة أعداء على   ذاك الذى يعرف قِدماً بالوصى
وفارس الخيل على عهد النبى   ما أنا عن فضل علىٍّ بالعمى
لـكننى أنعى ابن عفان التقى   إن الولىّ طالب ثار الولى

ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يرفض بحق هذه الأبيات المنحولة ومثيلاتها ، أو على الأقل ما يشتمل منها على حديث الوصى والوصاية ، فقد وضعها دون ريب وزوّرها متشيعون علويون .

وقد ورث خلفـاء علىّ رئاسة الدولة وولاية الحـكم باعتبارهم الأئمة ، جاء فى الـكافى) :

« نحن شجرة النبوة و بيت الرحمة ، ومفاتيح الحكمة ومعدن العلم ، وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ، وموضع سرّ الله ، ونحن وديعة الله فى عباده ، ونحن حَرَمُ الله الأكبر ، ونحن ذمة الله ، ونحن عهد الله ، فمن وفّى بعهدنا فقد وفّى بعهد الله ، ومن خفرها فقد خفر ذمة الله وعهده [١] » ، « نحن خُزّان علم الله ، ونحن تراجمة وحى الله ، نحن الحجة البالغة على مَن دون السماء ومَن فوق الأرض » [٢].

ومن هؤلاء الأئمة الحُضَّر والغُيَّب ، الظاهرون والمختفون ، والمختفى كالظاهر فيما له من تقديس و إيمان ، جاء فى (الكافى) : « و إذا بلغكم عن صاحب هذا الأمر غيبة فلا تنكروها [٣] » .

وقد انحدرت إلى هؤلاء الأئمة من علىّ صفاته الروحية الخاصة ، وكلّ ما امتاز به من علوم وانفرد به من أسرار ؛ فورثوا عنه اسم الله الأعظم ، وجميع الكتب المنزلة التى يعرفونها بلغاتها المختلفة كما ورثوا « القرآن الصحيح » الذى لم يجمعه ولم يحفظه — كما أنزله الله — إلا علىّ فقط [٤] ..! ، كما ورثوا أيضاً مصحفاً آخر لفاطمة ، والجامعة ، والجفرين — الأكبر والأصغر — فهم يعلمون لذلك علم ما كان وما سيكون [٥] ، كما يعلمون متى يموتون ؟ ولا يموتون إلا بمحض اختيارهم ..! ، ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً أن هناك كتابا آخر خاصاً بآل البيت نزل به جبريل على محمد ، فدفعه إلى علىّ فخلّفه هذا لذريته الأئمة يتوارثونه من بعده إماماً بعد إمام ، حتى ينتهى به المطاف أخيراً إلى الإمام الأخير أعنى المهدى ، وفى هذا الكتاب أوامر من الله لكل إمام من الأئمة ؛ روى الكلينى عن معاذ بن كثير عن أبى عبد الله أنه قال :

« إن الله عز وجل أنزل على نبيه كتابا فقال جبريل : يا محمد هذه وصيتك إلى النجباء فقال : ومن النجباء يا جبريل ؟ فقال : على بن أبى طالب وولده ، وكان

---

(١) الكافى للكلينى حـ ١ ص ١٠٥ وما بعدها ط طهران .
(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٩١ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٨ وما بعدها .
(٤) المصدر نفسه ص ١١٠ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٢٦ .

على الـكتاب خواتم من ذهب ، فدفعه رسول الله إلى علىّ وأمره أن يفكّ خاتماً منه فيعمل بما فيه ، ثم دفعه إلى الحسن ففكّ منه خاتماً فعمل بما فيه ، ثم دفعه إلى الحسين ففكّ خاتماً فوجد فيه (أن اخرج بقومك إلى الشهادة فلا شهادة لهم إلا معك واشتر نفسك لله) ففعل ، ثم دفعه إلى علىّ بن الحسين ففكّ خاتماً فوجد فيه (أن اطرق واصمت والزم منزلك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ففعل ، ثم دفعه إلى ابنه محمد بن علىّ ففكّ خاتماً فوجد فيه (حدِّث الناس وأفتهم وانشر علوم أهل بيتك وصدق آبائك الصالحين ولا تخافن أحداً إلا الله فإنه لا سبيل لأحد عليك) ، ثم دفعه إلى جعفر الصادق فوجد فيه (حدِّث الناس وأفتهم ولا تخافنَّ إلا الله ، وانشر علوم أهل بيتك وصدق آبائك الصالحين ، فإنك فى حرز وأمان) ، ففعل ثم دفعه إلى موسى . . . » ، وهكذا إلى المهدى [١] .

وكل إمام من هؤلاء الأئمة وصىّ لسلفه الذى عيَّنه بإقراره الصريح ، موافقاً للترتيب الإلهى الذى سبق أن كتبه الله وقضى به ، ونفَّذه الرسول كتقليد إلهى لمنصب الحكم وولاية أمور الأمة ، كما لاحظ ذلك بحق سيد الباحثين العلامة الطيب الذكر جولدزيهر Goldziher [٢] .

وأبحاث الشيعة المعقدة فى الإمامة ، ونظرتهم القدسية إلى الإمام ، تلقى أضواء وهاجة قوية على تاريخ دولهم ؛ فنستطيع أن نعلل بها خضوع الناس واستكانتهم لحكامهم المقدسين الإلهيين ، مهما كانوا ظالمين جائرين ؛ إذ كل ما يقومون به من أفعال أو أقوال إنما مردّه إلى الله ، الذى يُجريه على أيديهم وألسنتهم ، فكان حتماً على الجماهير تلقّى ذلك بالرضى والقبول . وسنعرض فى هذا الصدد أبيات مختارة لشاعر الشيعة الإسماعيلية الفاطمية ، ابن هانئ الأندلسى تصور أثر هذه العقيدة تصويراً قوياً رائعاً .

---

(١) الـكافى للكلينى حـ ١ ص ١٣٣ وما بعدها .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام (الترجمة العربية) ص ١٧٥ ط القاهرة .

قال ابن هانئ من قصيدة يمتدح بها المعز لدين الله أبا تميم معداً :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار !!
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشّرنا به فى كتْبها الأحبار والأخبار
هذا إمام المتقين ومن به قد دُوخ الطغيان والكفار
هذا الذى تُرجى النجاة بحبه وبه يُحط الإصر والأوزار
هذا الذى تُجدى شفاعته غداً حقاً وتخمد أن تراه النار

* * *

أبناء فاطم هل لنا فى حشرنا لجأٌ سواكم عاصمٌ ومُجار
أنتم أحبّاء الإله وآله خلفاؤه فى أرضه الأبرار
أهل النبوة والرسالة والهدى فى البينات وسادةٌ أطهار
والوحيِ والتأويل والتحريم وال‍ تحليل لاخلفٌ ولا إنكار
إن قيل مَن خير البرية لم يكن إلّا كُمُ خلقٌ إليه يُشار
لو تلمسون الصخر لانبجست به وتفجرت وتدفقت أنهار

* * *

شرُفت بك الآفاق وانقسمت بك ال‍ أرزاق والآجال والأعمار !
جلّت صفاتك أن تُحدَّ بمقولٍ ما يصنع المصداق والمكثار
والله خصّك بالقرآن وفضله واخجلتى ما تبلغ الأشعار ؟ ![1]

* * *

ويقول فى المعز أيضاً :

وما سار فى الأرض العريضة ذكرُه ولكنه فى مسلك الشمس سالك
وما كُنهُ هذا النور نور جبينه ولكنّ نور الله فيه مشارك !![2]

(١) ديوان ابن هانىء ص ٦٢ ط بولاق عام ١٢٧٤ هـ .
(٢) المصدر السابق ص ٩١ .

وفيه أيضاً يقول ابن هانئ :

هو علّةُ الدنيا ومن خُلقت له ... ولعلةٍ ما كانت الأشياء

ليست سماء الله ما ترونها ... ولكنّ أرضاً تحتويه سماء

أمّا كواكبها له فخواضع ... تُخفى السجود ويظهر الإيماء !

هذا أمين الله بين عباده ... وبلادِه إنْ عدّت الأمناء

نزلت ملائكة السماء بنصره ... وأطاعه الإصباح والإمساء !

والدهر والأيام فى تصريفها ... والناس والخضراء والغبراء !(١)

* * *

ويقول :

هذا معدٌّ والخلائق كلها ... هذا المعزُّ متوجاً والدين

هذا ضمير النشأة الأولى التى ... بدأ الإله وغيبها المكنون !

من أجل هذا قُدِّر المقدور فى ... أمِّ الكتاب وكوِّن التكوين !

وبذا تلقّى آدمٌ من ربه ... عفواً وفاءَ ليونس اليقطين !

النور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل قدرٍ دون

فارزق عبادك منك فضل شفاعة ... واقربْ بهم زلفى فأنت مكين !

لك حمدُنا لا أنه لك مفخر ... ما قدرُك المنثور والموزون

قد قال فيك الله ما أنا قائل ... فكأن كل قصيدة تضمين(٢)

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

الفصل الثاني

الرجعة :

« الدور » أو عودة الأشياء بعينها إلى الوجود فى آماد لا نهائية ، نظرية فلسفية يونانية تُنسب إلى الفيثاغوريين أتباع « فيثاغورس Pythagore » ، حتى ليقول « أوديموس Eudème » تلميذ « أرسطو Aristote » مخاطباً تلاميذه : « إذا صدّقنا الفيثاغوريين فسيجىء يوم نجتمع ثانية فى هذا المكان ، فتجلسون كما أنتم لتسمعوا إلىّ وأتحدث أنا إليكم كما أفعل الآن[1] » . وهذا الرأى الفلسفى ليس من قبيل « الرجعة » التى نحن بصدد دراستها فى هذا الفصل ؛ إذ الأول فلسفى عام لكل الكائنات فى دورات متعاقبة لا نهاية لها ، أما الثانى فمعتقد دينى ساذج مقصور على أناس بأعيانهم فى دورة واحدة فقط قبل نهاية هذا العالم ، يعقبها فناء تام شامل للأكوان وانتقال إلى عالم آخر .

فالرجعة التى نحن بصددها هى : عودة الميت أو المختفى إلى الظهور أو الحياة من جديد فى الدور الأخير دور الاحتضار لهذا الكون . ويرجع تفسيرها السيكلوجى إلى وجود زعيم روحى أو سياسى ، ذى شخصية قوية تساعده على فرض تقديره وإجلاله وحُبّه فى قلوب الأشياع والأتباع ، المجردين عادة من التفكير والإرادة ، فينساق هؤلاء طواعية نحو ضوئه القوى الوهاج ، متهافتين بين أحضانه تهافت الفراش ، مُسلمين له القياد والأزمّة ، مخلصين له الحب الواله ، من أبعد أعماق القلوب غوراً ، فينسيهم ذلك إنسانيته وخضوعه لسنن الكون ونواميسه ، فلا يفكرون قط فى موته كأى إنسان تجرى عليه قوانين الطبيعة ، فإذا قضت عليه هذه القوانين الصارمة بالموت ، وهى لا بدّ فاعلة فى غير هوادة ولا لين غير عابئة بشىء ، أصابهم

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٢٩ الطبعة الأولى .

الجزع والهلع وأذهلتهم المفاجأة ، فتدور رءوسهم ولا ترى أعينهم ، فيسرع إليهم الشك فى موت صاحبهم ، ثم يرفع هذا الشكّ إلى رتبة اليقين ، ما تسعفهم به أحلام اليقظة من تسليتهم وتهدئة انفعالاتهم وإثلاج صدورهم بغيبة صاحبهم الذى لم يمت ، بل تزيد فتحدد لهم مدة غيبته عنهم ، وتكون بادئ الأمر قصيرة كل القصر ، لتمتلئ حياتهم أملاً خالصاً بعودته ورجوعه ، ولكن الغيبة تطول بل وتسرف فى الطول ، ولا يرى الأتباع لعودة صاحبهم ظلاً ولا يلمسون لرجوعه عيناً ولا أثرا ، ولكن الحيلة لا تعوزهم فيحتالون ويلجأون إلى التأويل فى مدة الغيبة ، فاليوم ليس كأيامنا والعام ليس كأعوامنا ، وإن لهم فى القرآن القائل : « إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » لمثالاً يحتذى ، فتستقر قلوبهم بعد اضطراب وتهدأ نفوسهم بعد قلق ، وينقلب الأمل فى عودة صاحبهم إلى عقيدة راسخة ذات أصول وجذور ، يورثها الأجداد للأحفاد ، ويأخذها الأخلاف عن الأسلاف .

وإنا لنكاد نطبق شيئاً من هذا التفسير السيكلوجى للرجعة على موقف عمر ابن الخطاب من موت الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ فقد ذُهل الناس واشتد بهم الهلع حتى فقد البعض صوابه ، وكأنهم كانوا لفرط ولههم به وحبهم له لايتوقعون له موتاً ، وقد أنستهم الفاجعة كل ماورد فى القرآن مؤكداً موت النبى كسائر البشر كقوله : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، « أفإن مت فهم الخالدون » .

حدثنا اليعقوبى — المتوفى بعد عام ٢٩٢ هـ — فى تاريخه ، وهو من أقدم مصادر التاريخ الإسلامى على تشيّع فيه ، فقال :

« ولما توفى صلى الله عليه وسلم قال الناس ما كنا نظن أن رسول الله يموت حتى يظهر على الأرض ، وخرج عمر فقال : والله ما مات رسول الله ولا يموت وإنما تغيَّب كما غاب موسى بن عمران أربعين ليلة ثم يعود ، والله ليقطعن أيدى قوم وأرجلهم ! . وقال أبو بكر بل قد نعاه الله إلينا فقال (إنك ميت وإنهم ميتون)

فقال عمر : والله لـكأنى ما قرأتها قط ! ثم قال : لعمرى لقد أيقنتُ أنك ميت ، ولـكنما أبدى الذى قلته الجزعُ[1] ! »

فعمر رضوان الله عليه محب للرسول عليه السلام ، ولـكنه يوقن مع هذا الحب بموته صلوات الله عليه كـكل كائن حى ، فلما واجهته الـكارثة أذهلته حتى لقد

---

(١) أنظر اليعقوبى حـ ٢ ص ٩٥ ط النجف ، وفى رواية أخرى أن الآية الـكريمة التى نطق بها أبو بكر فى هذا الظرف هى قوله تعالى « وما محمد إلا رسول . . . » الآية ؛ ففى الطبرى :

« لـما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى ، وإن رسول الله — والله — ما مات ، ولـكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات ، قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة ، ورسول الله مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة ؛ فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً ، ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج — وعمر يكلم الناس — فقال : على رسلك يا عمر فأنصت ، فأبى ألا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس — فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ثم تلا هذه الآية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » إلى آخر الآية . قال فوالله لـكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، قال وأخذها الناس عن أبى بكر فإنما هى فى أفواههم ، قال أبو هريرة ، قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى وعرفت أن رسول الله قد مات » الطبرى حـ ٣ ص ١٩٧ وما بعدها ط الحسينية ، وأنظر أيضاً ابن الأثير حـ ٢ ص ١٢٣ ط الحلبى ، وانظر كذلك صحيح البخارى حـ ٦ ص ١٤ ط بولاق .

أما ابن أبى الحديد فيجمع بين الروايتين إذ يقول : « روى جميع أصحاب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لـما توفى ، كان أبو بكر فى منزله بالسنح ، فقام عمر بن الخطاب فقال : ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يموت ، حتى يظهر دينه على الدين كله ، وليرجعن فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم ممن أرجف بموته ؛ لا أسمع رجلا يقول مات رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ضربته بسيفى ، فجاء أبو بكر وكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : بأبى وأمى طبت حياً وميتاً ، والله لا يذيقك الله الموتتين أبداً ، ثم خرج — والناس حول عمر وهو يقول لهم إنه لم يمت ويحلف — فقال له أيها الحالف على رسلك ، ثم قال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ؛ قال الله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) قال عمر : فوالله ما ملـكت نفسى حيث سمعتها أن سقطت إلى الأرض وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات » أنظر شرح النهج مجلد ١ ص ١٢٨ .

أنسته آية من الذكر الحكيم ما كان لمثله أن ينساها لولا هولُ المصاب ، وألجأته حالته النفسية الجياشة الثائرة إلى أن يقول بغيبة الرسول وعودته ويقسم على ذلك أحنث القسم ، ولكن سرعان ما قام أبو بكر الذى كان يبدو فى هذا الظرف العصيب — رغم شيخوخته — أملك لأعصابه وأحضر لذهنه وأجمع لعقله ، فأرجع عمر إلى صوابه ورشده .

* * *

يهودية « الرجعة » وتسربها إلى الشيعة :

الرجعة فى جملتها معتقد يهودى ؛ حدثنا الشهرستانى أن اليهود اتخذوا من قصة « عزير » — حيث أماته الله مائة عام ثم بعثه — مبرراً للقول بها ، كما رأوا ذلك فى موت هارون ، قال الشهرستانى :

« وأما جواز الرجعة فإنما وقع لهم من أمرين ، أحدهما حديث عزير إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه ، والثانى حديث هارون عليه السلام إذ مات فى التيه وقد نسبوا موسى إلى قتله ، قالوا حسده لأن اليهود كانت إليه أميل منهم إلى موسى ، واختلفوا فى حال موته ، فنهم من قال : مات وسيرجع ، ومنهم من قال : غاب وسيرجع[١] » .

وقد دخل هذا المعتقد البيئة الإسلامية على يد عبد الله بن سبأ ، اليهودى اليمنى المتمسلم المعروف بابن السوداء ، الذى يرجع إليه الكثير من الأفكار والمذاهب الغريبة عن الإسلام ، كما أنه أول من قال بها فى المجتمع الإسلامى ؛ إذ زعمها بادئ الأمر فى الرسول عليه السلام حيث يقول :

« لعجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع[٢] ، ويكذّب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل (إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد) محمد أحق بالرجوع من عيسى[٣] » .

---

(١) أنظر الملل والنحل حـ ٢ ص ٥١ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .
(٢) رجعة عيسى فى الإسلام أثر مسيحى .
(٣) أنظر الطبرى حـ ٥ ص ٩٨ ط الحسينية .

ثم نجده قد تحول فقالها فى علىّ بن أبى طالب ، الذى اختاره ليكون قطباً لرحى أفكاره ، تدور حواليه كل مايدور برأسه من آراء ومعتقدات .

وإذا تركنا القرن الأول الهجرى ، وجدنا فى أوائل المائة الثانية أحد وضّاعى الحديث المعروفين وهو جابر بن يزيد الجعفى[١] الكوفى ، يردد نداء ابن السوداء ويقول برجعة علىّ وقد رأى فى قوله تعالى « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » مستنداً لأقواله ، مدعياً أن الآية تشير إلى الرجعة ، زاعماً أن الدابة هنا هى علىّ بن أبى طالب[٢] . . . !

وقد حدثنا ابن قتيبة حديثاً فى هذا الصدد لايخلو من طرافة حيث يقول : « بلغنى عن أبى عاصم عن إسماعيل بن مسلم المكى قال : كنت بالكوفة فإذا قوم من جيرانى يكثرون الدخول على رجل فقلت : من هذا الذى تدخلون عليه ؟ فقالوا : هذا على بن أبى طالب ، فقلت أدخلونى معكم ، فمضيت معهم وخبأت معى سوطاً تحت ثيابى ... ، فدخلت فإذا شيخ أصلع بطين[٣] ، فقلت له : أنت علىّ ابن أبى طالب ؟ ! فأومأ برأسه ، أى : نعم ، فأخرجت السوط فما زلت أقنّعه وهو يقول : لتاوى لتاوى ... فقلت لهم : يافسقة ، على بن أبى طالب نبطى ... ! ،

---

(١) توفى عام ١٢٨ هـ وقد قال فيه أبوحنيفة : « ما رأيت أكذب منه » . انظر الألوسى جـ ٦ ص ٣١٢ ط بولاق ، حيث نقل ذلك عن ميزان الاعتدال للذهبى .

(٢) ويزعم جابر أن رجلا قال لعمار بن ياسر : « ياأبا اليقظان ، آية فى كتاب الله تعالى أفسدت قلبى ، قال عمار : وأية آية هى ؟ فقال : قوله تعالى « وإذا وقع القول عليهم ... » الآية ، فأية دابة هذه ؟ قال عمار : والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أريكها . فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه ، وهو يأكل تمراً وزبداً ، فقال ياأبا اليقظان هلم ، فجلس عمار يأكل معه ، فتعجب الرجل منه ، فلما قام عمار ، قال الرجل : سبحان الله حلفت أنك لا تجلس ولا تأكل ولا تشرب حتى تريفيها ! قال عمار : قد أريتكها إن كنت تعقل ... ! ! » انظر الألوسى جـ ٦ ص ٣١٢ ط بولاق .

وأكبر الظن أن لتعاليم ابن السوداء ضلعاً فى ذلك ، حتى ليرمى على بهذا الإفك حال حياته ؛ روى الألوسى : « قيل لعلى كرم الله وجهه إن ناساً يزعمون أنك دابة الأرض ، فقال : والله إن لدابة الأرض لريشاً وزغباً وما لى ريش ولا زغب ، وإن لها لحافراً وما لى من حافر ... » الخ انظر المصدر السابق .

(٣) كان على أصلع بطيناً .

ثم قلت له : ويلك ماقصتك ؟ فقال : جعلت فداك ، أنا رجل من أهل السواد ، أخذنى هؤلاء فقالوا : أنت على بن أبى طالب[1] ...! »

ولقد دانت الشيعة بهذا المعتقد، معتقد الرجعة ، الذى وجد فى تربتها أرضاً خصبة صالحة للنمو والازدهار ، وذلك يرجع إلى ماسبق أن قدمناه لك من نظرتهم القدسية إلى أئمتهم ؛ قال أبو جعفر الكلينى فى تفسير قوله تعالى (فلا أقسم بالخنَّس الجوار الكنَّس) « إمام يخنس[2] فى زمانه ثم يبدو كالشهاب الواقد فى ظلمة الليل[3] » .

وتسوق الشيعة قوله تعالى (أو كالذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه) فى مقام الاحتجاج على صحة ماذهبت إليه ، كما تردد ما قاله اليهود من قبل فى هذا الصدد ، وقد رأت فى إحياء عيسى الموتى دليلاً على وقوع الرجعة التى يدينون بها .

ومن الشيعة من يدين بعودة أناس ليسوامن أئمتهم ، وذلك لتعذيبهم والتنكيل بهم فقط من قِبل الإمام ، جزاء وفاقاً لما قدموا فى حياتهم الأولى من ظلم وغصب لآل البيت ؛ فالشريف المرتضى يقول برجعة أبى بكر وعمر فى آخر الزمان عند ظهور المهدى وأنهما سيصلبان على شجرة[4] ... ويجوز فى عودة هؤلاء الأعداء بنوع خاص ، أن تكون فى غير صورهم الإنسانية زيادة فى النكال بهم ، فاضطُّر المتشيعون إلى القول بالتناسخ ، حتى ليأخذ أحدهم — فيما يقول ابن حزم — البغل أو الحمار فيعذبه ويضربه ويعطشه ويجيعه ، على أن روح أبى بكر أو عمر قد حلّت فيه[5] ....!

ومن طريف ماحدثنا به الأغانى فى هذا الصدد أن رجلاً قال للسيد[6] الحميرى :

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٩ طبع الدار .
(٢) أى يختفى .
(٣) الكافى ح ١ ص ١٤٩
(٤) ضحى الإسلام لأحمد أمين ح ٣ ص ٢٤٦
(٥) أنظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل ح ٤ ص ١٨٢ طبع مطبعة التمدن .
(٦) شاعر الشيعة الكيسانية ، توفى ببغداد عام ١٧٩ هـ .

« بلغنى أنك تقول بالرجعة فقال السيد : صدق الذى أخبرك وهذا دينى . قال : أفتعطينى ديناراً بمائة دينار إلى الرجعة ؟ قال السيد : نعم وأكثر من ذلك إن وثّقتَ لى بأنك ترجع إنساناً ... قال : وأى شيء أرجع ؟ ! قال : أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً فيذهب مالى[1] .... » .

والشيعة الإمامية الاثنا عشرية يسألون الله فى دعوات حارة أن يرجعهم بعد موتهم إلى هذه الدنيا ، ليكونوا فى جيش المهدى محمد بن الحسن العسكرى و بصحبته، كما سنحدثك عن ذلك فيما بعد .

يقول العلامة « جولدزيهر » Goldziher :

« والرجعة إحدى العناصر الجوهرية فى نظرية الإمامة عند كافة فروع الشيعة[2] » ويقول : « وفكرة الرجعة ذاتها ليست من وضع الشيعة أو من عقائدهم التى اختصوا بها ، ويحتمل أن تكون قد تسربت إلى الإسلام عن طريق المؤثرات اليهودية والمسيحية[3] » . ويقول أيضاً « والاعتقاد بالإمام الخفى يسود كافة فروع الشيعة ، و يعتقد كل فرع منها بخلوده وعودته إلى الظهور فى المستقبل مهدياً[4] » .

وفى ختام حديثنا عن الرجعة نعرض هنا أبيات فيها رائعة لشاعر الشيعة الكيسانية السيد الحميرى (المتوفى عام ١٧٩ هـ) قال[5] :

إذا ما المرء شاب له قَذال[6]	وعلَّله المواشط بالخضــــاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى	فقم بأبيك فابك على الشباب
فليس بعائد ما فات منــه	إلى أحــد إلى يوم المآب

(١) الأغانى حـ ٧ ص ٢٤٢ طبع الدار .
(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام (الترجمة العربية) ص ١٩١
(٣) المصدر السابق ص ١٩٢
(٤) المصدر نفسه ص ١٩١
(٥) أنظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٠٧ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وانظر كذلك مقدمة ابن خلدون ص ٩٧ طبع بولاق ١٢٧٤ هـ .
(٦) القذال : جماع مؤخر الرأس .

إلى يوم يؤوب الناس فيه ... إلى دنياهُم قبل الحساب
أدين بأن ذاك كذاك حقاً ... وما أنا فى النشور بذى ارتياب
لأن الله خبَّر عن رجال ... حيوا من بعد دسٍّ فى التراب

وقال[1] يرثى أخاه معتقداً رجعته :

يا ابن أمى فدتك نفسى ومالى ... كنتَ ركنى ومَفزعى وجَمالى
ولعمرى لئن تركتك ميتاً ... رهن رمسٍ ضنكٍ عليك مُهال
لوشيكاً ألقاك حياً صحيحاً ... سامعاً مبصراً على خير حال
قد بُعثتم من القبور فأُبتم ... بعد ما رمَّت العظام البوالى
أو كسبعين وافداً مع موسى ... عاينوا هائلاً من الأهوال
حين راموا من خبثهم رؤية اللـ ... ـه وأنَّى برؤية المتعالى
فرماهم بصعقة أحرقتهم ... ثم أحياهُم شديدُ المِحال

* * *

عقيدة « المخلص » فى الشرق القديم وأثرها فى معتقد المهدية :

لقد ابتليت الشعوب الشرقية القديمة بحكومات الاستبداد المطلقة ، فرسخت تحت نيرها الثقيل قروناً متطاولة وأحقاباً متمطية بأصلابها ، تسودها ظلمات الجهل وبداوة الفكر ، كان الناس فيها مقرَّنين فى أصفاد من الانحطاط الفكرى ومن ظلم الحاكمين بأمرهم ، الذين كانوا يفترضونهم كالأنعام ، ويسومونهم شتى صنوف الذل والخسف والحرمان ، ويسوقونهم — بالعدوان — إلى حيث يرغبون ، كقطيع من الأغنام لا تدرى أين المساق ؟ فعصا الراعى تدفعهم بعنف تارة إلى المزرعة وأخرى إلى المجزرة ! ، وقد وطَّد لهؤلاء الحاكمين الغاشمين ، ما ابتدعوه من حقوق إلهية مقدسةٍ ، لاقت رواجاً وقبولا لدى الجماهير ، الذين ظنوا — واهمين — أن بين

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٤٠٧

سادتهم و بين السماء نسباً وصهراً ، فزاد ذلك فى رضوخهم وفناء ذاتياتهم ، الذى قوبل من جهة السادة بالإمعان فى الخسف والتنكيل ، والإسراف فى الاضطهاد والتقتيل .

غير أن الشعوب الشرقية قد بدأت تشعر بالظلم وتحس بألمه ، فاستيقظت بعد نوم ، وصحت بعد سكرة ، ولكن الناس يقومون من نومهم حيارى ، ويفتحون عيونهم بعد طول إغماض ، فيرون أهوالاً تشيب الولدان وخطوباً لا تطيقها الجلاميد الصُمّ ، فرجعوا إلى أنفسهم ، فما آنسوا فيها القوة على الخروج والثورة على حكامهم وسادتهم ، فآثروا الهرب من الواقع المرير ، حيث وجدوا فى الخيال الجميل متنفساً بثّوا فيه نجواهم وشكاتهم ، بزفرات حارة ملتهبة وأنفاس حبيسة مكبوتة ، وقد أوحت إليهم هذه الأحلام الجميلة بالخلاص من هذا الجحيم فى المستقبل القريب أو البعيد ، على يد « المنقذ » مبعوث العناية الإلهية ، و إن لهم فى ذلك لعزاء وسلوى .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الروح الشرقية العامة — كما لاحظ ذلك بحق العلامة « ڤان ڤلوتن » Van Vloten — تصبو دائماً إلى كل ما له علاقة بالتنبؤ وكشف حجب الغيب عن المستقبل المجهول[1] . فعقيدة « المخلِّص » أو « المنقذ » المواءمة للطبيعة الشرقية والناجمة عن ظلمات الجهل والاستبداد ، نجدها ذائعة أيما ذيوع بين جميع الشعوب الشرقية القديمة ؛ فمسيحيو الأحباش ينتظرون عودة مايكهم « تيودور » كمهدى فى آخر الزمان ، كما يؤمن كثير من المسيحيين برجعة المسيح لإنقاذ العالم من ظلم الإنسان وفتكه بأخيه الإنسان ،و يعتقد المغول أن « تيموچين » (چنكيزخان) — الذى تُقدم على ضريحه القرابين — كان قد وعد قبل موته بعودته إلى الدنيا بعد تسعة قرون لتخليص قومه من نير الحكم الصينى . ولا يعسر على الباحثين الاهتداء إلى بذور هذا المعتقد بين قدامى المصريين ، وفى القديم من كتب الصينيين ، وعند الفارسيين ، وكذلك فى تناسخ « براهما » إحدى عقائد

---

(١) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية (الترجمة العربية) ص ١٠٢

الهنود ، الذين ينتظرون هم الآخرون عودة « فشنو » إلى الوجود[1] .

ولقد كانت عقيدة « المخلِّص » هذه — أكبر الظن — من أهم العوامل التى خلقت عقيدة « المهدى » فى المجتمع الإسلامى ، فحيكت هذه على غرار تلك ، أما حاكتها فهم الشيعة على يد ابن السوداء ، اليهودى المتمسلم الغالى فى تشيعه الموهوم .

والمهدية من الحركات الثورية الهدامة فى التاريخ الإسلامى ، شغلت صحائفه قروناً عديدة بما أوحت من فتن واضطرابات ، و بما أقامت من حكومات وأسقطت من أخرى ، و بما أفسدت من عقول ساذجة ، خدعها بريق الفكرة ولونها الدينى فأجابت — دون وعى — كل ناعق وناعب ، وانساقت — يلهبها الشعور والعاطفة — وراء كل ثائر وداعية ، منذ فجر التاريخ الإسلامى حتى القرن المنصرم ، فاعجب لأسطورة تسلب الناس إرادتهم ثم تخلق تاريخاً . وتاريخ كل أمة مرآتها ، وهو رهين بنصيبها من التعليم وحظها من الحضارة .

---

(١) أنظر « جولدزيهر » Goldziher العقيدة والشريعة فى الإسلام (الترجمة العربية) ص ١٩٢ .

الفصل الثالث

المهدية فى الإسلام

لقد آن لنا بعد أن درسنا « الإمامة » فى الإسلام ، وتحدثنا عن « الرجعة » ، وعقيدة « المخلص » فى الشرق القديم ، أن نلج موضوع البحث وهو « المهدية » ، وننتقل إليه بأدواتنا فى الدرس . ولا يسع الباحث إزاء هذا المعتقد إلا أن يبتدئ بمادة اللغة نفسها كخطوة أولى من خطوات بحثه العلمى المنظم .

لفظ « المهدى » :

نبدأ بلغة الضاد نسائلها — مستهدين — لنعرف ما لهذا المبنى عندها من معنى ؟

قالت اللغة : « المهدى » اسم مفعول من هدى ؛ هداه الله إلى الإيمان هدًى ، وهديته الطريق و إلى الطريق أهديه هداية ، والهدى : ضد الضلال وهو الرشاد . ونحن لا نشك فى عراقة هذه الكلمة فى اللغة العربية ، فهى جاهلية التاريخ مولداً ونشأة ، وليست من مستحدثات الإسلام ؛ فالهداية إلى الخير ، و إلى الطريق نجدها — دون ريب — فى العصر الجاهلى[1] ، وجاء الإسلام فزاد فى معانيها الهداية إلى

---

(١) كان يعيش فى شبه الجزيرة العربية فى الفترة التى سبقت ظهور الإسلام أقوام هم جيل من العرب ، لهم حياتهم الخاصة ومعاييرهم الأخلاقية ومثلهم العليا ، بما فيها من سمو وكمال أو نقص وإسفاف ، ولست أجدنى مبالغاً إذا قلت إن هذه الحياة قد جاءتنا منقوصة بعض الشىء على ألسنة الرواة والمؤرخين ، لسبقها للتاريخ العربى من جهة ، وللعمل من جهة أخرى على الحط منها وتشويهها إزاء العصر الإسلامى الذى اكتسحها وأعقبها وغير الكثير من عرفها .

والحق أن القرآن وهو ذلك المصدر الهام لدراسة العصر الجاهلى ، قد حدثنا عن الكثير من معايب هذا العصر وآثامه ، ولكن الباحث لا يستطيع مع ذلك أن يطبع أهل الجاهلية قاطبة بطابع الإثم والرذيلة ، وما نظن أن عصراً من العصور وسم جميع أفراده بميسم الخير أو الشر ، وتاريخ الآداب العربية يحدثنا عن فضائل كثيرة لهؤلاء الناس الذين كانوا يضربون فى صحراء شبه جزيرة العرب ويضطربون بها فى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، وهو ذلك العصر المعنى دائماً بلقب « الجاهلية » ذلك اللقب الإسلامى الذى لم يكن فى أكبر الظن مشتقاً من الجهل بمعنى عدم =

الإيمان فأسبغ عليها ثوباً دينياً ، زادها على الألسن انتشاراً ودوراناً ، وفى العربية نمواً وبقاء ، وإن كنا لا نعثر على لفظة « المهدى » هذه فى القرآن الكريم الذى خلا منها خلواً تاماً . وهذه اللفظة بمعناها اللغوى المتقدم ، وُصف بها الرسول صلوات الله عليه فى أشعار لحسان بن ثابت يرثيه بها فيقول[1] :

ما بال عينك لا تنام كأنما كُحلت مآقيها بكحل الأرمد

جزعاً على « المهدى » أصبح ثاوياً يا خير من وطئ الحصى لا تبعد

بأبى وأمى من شهدتُ وفاته فى يوم الاثنين النبى المهتدى

كما امتدحه الفرزدق أيضاً بهذا اللقب فى قوله[2] :

بقومٍ أبو العاصى أبوهم توارثوا خلافة « مهدىٍ » وخير الخواتم

وقد وُصف بهذه الكلمة الخلفاء الأربع ؛ جاء فى الحديث : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » .

وفى العصر الأموى نجد رعيلاً من الشعراء يغدقون هذا اللقب على كثير من خلفاء بنى أمية وأمرائهم ؛ ففى سليمان بن عبد الملك يقول نهار بن توسعة[3] :

له راية بالثغر سوداء لم تزل تُفضُّ بها للمشركين جموع

على طاعة « المهدىِّ » لم يبق غيرها فأبناؤنا وأمرُ المسلمين جميع

وفى سليمان هذا يقول الفرزدق[4] :

المعرفة ، وإنما هو ضد للحلم ، ويؤيده قول النبى لأبى ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ، وقد ارتأى هذا الرأى كثير من الباحثين وعلى رأسهم العلامة « جولدزيهر » Goldziher محتجين بقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والباحث يشك بحق فيما رواه لنا الراوون عن حياة العرب قبل الإسلام ، ويأسف لما كان يقوم به بعض الرواة من انتحال للأشعار وافتعال للأخبار واصطناع للرواية كادت تضيع معه معالم الحقيقة .

(١) ديوان حسان ص ٩٧ نشر البرقوقى بالقاهرة عام ١٩٢٩ .

(٢) أنظر « جولدزيهر » Goldziher « العقيدة والشريعة فى الإسلام » الترجمة العربية ص ٣٤١

(٣) « جولدزيهر » Goldziher « دائرة المعارف الإسلامية » مادة « مهدى » .

(٤) « جولدزيهر » Goldziher « العقيدة والشريعة فى الإسلام » الترجمة العربية ص ٣٤١

وألقيتَ من كفّيك حبل جماعة   وطاعة « مهديّ » شديد النقائم

وفيه أيضاً يقول جرير[١] :

سليمان المبـــارك قد علمتم   هو « المهديُّ » قد وضح السبيل

وقد أطلقه جرير على النبى إبراهيم عليه السلام فى قوله فى النقائض[٢] :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا   أبٌ كان « مهدياً » نبياً مطهرا

كما أطلقه أيضاً على الخليفة الأموى هشام حيث يقول[٣] :

فقلت لهـا الخليفـة غير شك   هو « المهديُّ » والحـكم الرشيد

والطبرى يحدثنا أن سليمان بن صُرَد الآخذ بثأر الحسين قد دعا له بعد موته بقوله : « اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد المهدى ابن المهدى[٤] » .

ويلاحظ بحق العلامة « جولدزيهر » Goldziher ، أن المسلمين المعاصرين يطلقون اسم « المهدى » على من يدخل فى الإسلام من أهل الديانات الأخرى ؛ قال الباحث الإسلامى الكبير : « وقد تولى مشيخة الأزهر شيخان فى اسميهما لقب المهدى ، الذى لا يخرج فى معناه عن مدلوله الحديث ، وهما الشيخ محمد المهدى الحفنى — وكان فى الأصل قبطياً اسمه « هبة الله » — وتولى المشيخة من سنة ١٨١٢ إلى ١٨١٥ ، والثانى الشيخ محمد العباسى المهدى ، وقد تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٨٧٠ إلى ١٨٩٠[٥] » .

هذا هو المعنى اللغوى ، وهو كما تراه بسيط ساذج ، ثم أخذ يتطور ويتحور حتى طلع علينا بشىء آخر جديد ، ليس فى سهولة الأول ، بل فيه كل التركيب والتعقيد ، إذ هو يقول : المهدى « إمام منتظر يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٣٤١

(٢) المصدر نفسه .

(٣) نفس المصدر .

(٤) أنظر الطبرى ج ٧ ص ٧٠ ط الحسينية .

(٥) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٣٤٢

قال ابن الأثير فى (النهاية) ونقله ابن منظور فى (اللسان) : « المهدى الذى قد هداه الله إلى الحق ، وقد استعمل فى الأسماء حتى صار كالأسماء الغالبة ، و به سُمى « المهدى » الذى بشّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجىء فى آخر الزمان[١] » .

وقد امتدح سبط ابن التعاويذى الخليفة العباسى الناصر لدين الله ولقّبه بالمهدى ، وقد غالى فى مدحه وتمجيده حتى رأى فى خلافته ما يغنى عن انتظار مهدى فى آخر الزمان ، فقال[٢] :

أنت الإمام « المهدىُّ » ليس لنا   إمام حق سـواك يُنتظر

تبدو لأبصـارنا خلافاً لأن   يُزْعَم أن الإمام منتظَر

ودراسة هذا المعنى الجديد هو دراسة المهدية وتاريخها .

* * *

الشيعة وعوامل الفكرة عندهم :

كانت الشيعة أسبق الفرق الإسلامية إلى التعلق بهذه الأسطورة ، التى ترتكز فى وجودها على عاملين : خارجى يهودى ؛ فالنبى إيلياء أو إلياس الذى رفع إلى السماء ، والذى لا بدّ أن يعود إلى الأرض فى آخر الزمان لإقامة دعائم الحق ، هو تماماً النموذج الأول للأئمة المختفين ، و يظهر هذا العامل اليهودى واضحاً فى قول الشاعر الكيسانى كثيّر عزّة فى ابن الحنفية[٣] :

هو المهـدى خبّرناه كعب   أخو الأحبار فى الحقب الخوالى

وقد ندّد العلامة ابن حزم الظاهرى الأندلسى بالقائلين بمهدية عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب ، وأنه حى يُرزق بجبال أصفهان ، ولا بد من ظهوره ثم عقّب فقال :

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر ج ٤ ص ٢٤٤ ط المطبعة العثمانية سنة ١٣١١ هـ

(٢) ديوان سبط ابن التعاويذى ص ١٥٨ نشر « مرجليوث » Margoliouth بالقاهرة سنة ١٩٠٣

(٣) شرح ديوان كثير ج ١ ص ٢٧٥ ط الجزائر سنة ١٩٢٨ .

« وعبد الله هذا هو القائم بفارس أيام مروان بن محمد ، وقتله أبو مسلم بعد أن سجنه دهراً ، وكان عبد الله هذا ردئ الدين معطلاً مستصحباً للدهرية .

« قال أبو محمد (هو ابن حزم) فصار هؤلاء فى سبيل اليهود القائلين بأن ملكيصيدق بن عامر بن أرفخشد بن سام بن نوح ، والعبدَ الذى وجهه إبراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت بتؤال بن ناخور بن تارخ ، على إسحاق ابنه عليه السلام ، و إلياس عليه السلام ، وفنحاس بن العاذار بن هارون عليه السلام ، أحياء إلى اليوم ، وسلك هذا السبيل بعض نوكى الصوفية ، فزعموا أن الخضر و إلياس عليهما السلام حيّان إلى اليوم[1] » .

وكان من أثر اليهودية فى المسيحية ، أن قال المسيحيون برجعة عيسى كمهدى فى آخر الزمان ، ثم غزت المسيحية السوق الإسلامية ببضاعتها هذه ؛ فقال بها الإسلاميون .

وقد دخل هذا العامل اليهودى البيئة الإسلامية على يد عبد الله بن سبأ الذى يحدثنا عنه النوبختى فى كتابه « فِرق الشيعة » أنه كان يقول هذه المقالة فى يوشع ابن نون أيام يهوديته .

أما العامل الثانى فى خلق هـذا المعتقد فى البيئة الإسلامية ، فهو إسلامى — منتزع من بيئة الإسلام — إذ عندما أفلت زمام الأمر من يد الشيعة ، وأدال الأمويون دولتهم ، وانهارت آمالهم فى الخلافة وشالت نعامتهم ، حرصوا على استغلال روح الجماهير الفطرية الساذجة المحبة لآل البيت ، و بثّوا فيها هذا المعتقد ، كى لا يفقد الناس آمالهم فى البيت العلوى ، ولا يعدم الخارج من هذا البيت أنصاراً تؤيده بقوة السيف وتعاونه على تحقيق أغراضه ومطامعه .

وقد ساعدت المظالم والفظائع التى أوقعها بنو أمية بالعلويين على تمسك الجمهور بهذا المعتقد ، حتى ليقول الـكميت[2] بن زيد الأسدى المتوفى عام ١٢٦ هـ :

(١) أنظر « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » حـ ٤ ص ١٨٠ ط مطبعة التمدن .
(٢) الهاشميات ص ٦٩ وما بعدها نشر الرافعى بالقاهرة .

فتلك ملوكُ السوء قد طال ملكهم   فحتّام حتّام العناء المطوّل
فيارب هل إلاّ بك النصر يُرتجى   عليهم وهل إلاّ عليك المعوّل

و يقول[1] :

فقل لبنى أمية حيث حلّوا   و إن خفتُ المهند والقطيعا[2]
ألا أفٍ لدهرٍ كنتُ فيه   هِداناً طائعاً لكمُ مطيعا
أجاع الله من أشبعتموه   وأشبع من بجوركُمُ أُجيعا

ولا يغيب عن بالنا أن الكميت معتدل فى تشيعه ، ألا تراه يقول[3] :

أهوى عليًّا أمير المؤمنين ولا   ألوم يوماً أبا بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكاً   بنتَ النبى ولا ميراثَه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به   يوم القيامة من عذرٍ إذا اعتذرا

فإذا كان شعر الكميت يعبر بقوة عن مبلغ سخط المعتدلين من الشيعة ، فتُرى كيف كان شعور غلاتهم نحو مظالم بنى أمية ؟

يقول ابن أبى الحديد إنهم « حاربوا عليًّا ، وسموا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحملوا النساء على الأقتاب حواسر ، وكشفوا عن عورة علىّ بن الحسين ، حين أشكل عليهم بلوغه ، كما يُصنع بذرارى المشركين إذا دُخلت دورُهم عنوة ، و بعث معاويةُ بسرَ بن أرطاة إلى اليمن ، فقتل ابنى عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم ، وقتلَ عبيدُ الله بن زياد يوم الطّف تسعة من صلب علىّ عليه السلام ، وسبعة من صلب عقيل ، ولذلك قال ناعيهم :

عين جودى بعبرة وعويل   واندبى إن ندبْت آل الرسول
تسعة كلهم لصلب علىٍّ   قد أصيبوا وسبعة لعقيل

« ثم إن بنى أمية تزعم أن عقيلاً أعان معاوية على علىٍّ عليه السلام ، فإن

---

(١) الهاشميات ص ٨٢

(٢) القطيع : السوط .

(٣) الهاشميات ص ٨٣ وما بعدها .

كانوا كاذبين ، فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين ، فما جازوا عقيلاً بما صنع ، وضُرب عنق مسلم بن عقيل صبراً وغدراً بعد الأمان ، وقتلوا معه هانئ ابن عروة ، لأنه آواه ونصره ، ولذلك قال الشاعر :

فإن كنتِ لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانئ في السوق وابن عقيل
ترىْ بطلاً قد هشّم السيف وجهه ... وآخرَ يهوى من طمار قتيل

وأكلت هند كبد حمزة ، فنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين ثنيتي الحسين عليه السلام بالقضيب . . . الخ[1] » .

وفي شرح النهج أيضاً يقول أبو جعفر محمد بن على الباقر لبعض أصحابه :

« يا فلان : ما لقينا من ظلم قريش إيّانا وتظاهرهم علينا ، وما لقى شيعتنا ومحبونا من الناس ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وآله قبض ، وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس ، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه ، واحتجت على الأنصار بحقنا وحجتنا ، ثم تداولتها قريش واحد بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا ، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كئود حتى قُتل ، فبويع الحسن ابنُه وعوهد ثم غُدر به وأُسلم ، ووثب عليه أهل العراق حتى طُعن بخنجر في جنبه ، ونُهبت عسكره ، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده ، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته ، وهم قليل حق قليل ، ثم بايع الحسينَ عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً ، ثم غدروا به ، وخرجوا عليه وبيعته في أعناقهم وقتلوه ، ثم لم نزل أهل البيت نُستذل ونُستضام ونُقصى ونُمتهن ونُحرم ونُقتل ونخاف ، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً ، يتقربون به إلى أوليائهم وقضاةِ السوء وعمال السوء في كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله ، ليبغضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبرُه زمن معاوية ، بعد موت الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقُطعت الأيدى والأرجل على

(١) أنظر شرح النهج مجلد ٣ ص ٤٦٨ طبع القاهرة .

الظنة ، وكان من يُذكر بحبنا والانقطاع إلينا ، سُجن أو نُهب ماله ، أو هُدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد ، إلى زمان عبيد الله بن زياد ، قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر ، أحب إليه من أن يقال شيعة علي[1] ... » ! .

وهكذا تصور لنا هذه الوثيقة الخطيرة مقدار ما أصاب العلويين من عسف ومظالم على يد بنى أمية ، حتى إن العلوى ليتستر من بطشهم بالزندقة أو الكفر وقد سئل أحد شيوخ الأمويين عن سبب سقوط دولتهم فقال — كما يروى المسعودى — :

« إنّا شُغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقّده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا ، فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منّا » .

ولم تكن دولة بنى أمية تعدم المخلصين من رجالها ، الذين كانوا يحذرونها دائماً عواقب سياستها الوخيمة ، التى كانت تسرع بها إلى الانهيار ، فالطبرى يروى لنا كيف يتمثل العباس بن الوليد بن عبد الملك بأبيات يحذّر فيها بنى أمية من سوء سياستهم ، وينذرهم بعاقبة أمرهم الوبيلة ، ويطلعهم على مقدار سخط الناس على حكومتهم ، فيقول[2] :

إنى أعيذكُمُ بالله من فتنٍ ... مثل الجبال تسامَى ثم تندفع
إن البرية قد ملّت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدِعوا
لا تُلْحِمُنَّ ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما أُلْحِمتْ رتعوا
لا تبقُرُنَّ بأيديكم بطونكُمُ ... فثَمَّ لا حسرة تغنى ولا جزع

وأكبر الظن أنه لم يكن لمثل هذه الصيحات المنذرة سبيل إلى قصور بنى أمية ، فقد حالت دونها حجب اللهو وأستار العبث ، تلك التى حالت دون صيحات نصر ابن سيار ، حتى أخذ القومَ إعصار فيه نار ؛ وهنا يقول العلامة « دونلدسن » Doneldson :

---

(١) ابن أبى الحديد مجلد ٣ ص ١٥

(٢) أنظر الطبرى حـ ٩ ص ٨ طبع الحسينية .

« إن من المحتمل جداً أن الإخفاق الظاهر الذى أصاب المملكة الإسلامية فى توطيد أركان العدل والتساوى ، على زمن دولة الأمويين ، كان من الأسباب لظهور فكرة المهدى آخر الزمن[١] » .

ويقول العلامة « جولدزيهر » Goldziher :

« على أنه قد تبين أن الاحتكام إلى الله ، أو ترك الأمر لله ، الذى كان يتمثل فى اللعنات التى كان يصبها الأتقياء المتذمرون على الأمويين ، كان من الأسلحة التى لا تجدى فتيلاً ، على أنه مهما يكن ، فقد كانوا يرون أن ما أذن الله به أن يكون ، لا يمكن أن يعترض عليه الإنسان ، وإذاً فلا يسع المرء إلا أن يضع رجاءه فى الله الذى سيحكم يوماً ما العالم المليء بالمظالم والآثام وتلك هى الآمال الصامتة التى خرجت منها فكرة المهدى ، التى وفّقت بين الواقع والمثل الأعلى ، وبدا على أثرها الاعتقاد الراسخ و ظهور حاكم إلٰهى يوجهه الله توجيهاً حسناً[٢] » .

ولم يكن العباسيون — مع الأسف — أرأف بآل علىّ من سابقيهم الأمويين حتى ليقول بحق العلامة « ڤان ڤلوتن » Van Vloten :

« ولم يكن جور النظام العباسى وعسفه منذ قيام الدولة العباسية بأقلّ من النظام الأموى المختل حفزاً للنفوس إلى التمسك بعقيدة المهدى ، والتطلع إلى ظهوره لتخليصها من قسوة ذلك النظام الجديد وجوره[٣] » .

وأبو الفرج يحدثنا فيقول[٤] :

« جاء عبد الله بن عمر بن عبد الله العَبْلى إلى سُوَيْقَة[٥] ، وهو طريد بنى العباس وذلك بعقب أيام بنى أمية ، وابتداء خروج ملكهم إلى بنى العباس ، فقصده عبد الله والحسن ابنا الحسن بسُوَيْقة ، فاستنشده عبد الله شيئاً من شعره فأنشده ، فقال له : أريد أن تنشدنى شيئاً مما رثيت به قومك ؛ فأنشده :

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٢٣١

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٧٤

(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية « الترجمة العربية » ص ١٣٢ .

(٤) أنظر الأغانى جـ ١١ ص ٢٩٨ وما بعدها ط الدار .

(٥) موضع قرب المدينة كان يسكنه آل على .

تقول أمامة لمــا رأت نشوزى عن المضجع الأنفَس
وقلّةَ نومى على مضجعى لدى هجعة الأعين النُعَّس
أبى ، ما عراكَ ؟ فقلت الهموم عرون أباكِ فلا تُبْلِسِى[1]
لفقدِ العشــيرة إذ نالها سهامٌ من الحدث المُبْئس
فصرعاهُمُ فى نواحى البــلا د تُلقَى بأرضٍ ولم تُرْمَس
فــكم غادروا من بواكى العيو ن مَرْضَى ومن صبْية بُؤَّس
إذا ما ذكرتُهُمُ لم تنم لحرِّ الهمــوم ولم تجلس
يرجِّعن مثل بكاء الحمــا م فى مأتمٍ قَلِقِ المجلس
فذاك الذى غالنى فاعلمى ولا تسأليني فتستنحسى[2]
فما أَنْسَ لا أنسَ قتلاهُمُ ولا عاش بعدهُمُ مَنْ نسِى

« قال : فلما أتى عليها ، بكى محمد بن عبد الله بن حسن ، فقال له عمه الحسن ابن حسن بن علىّ عليهم السلام : أتبكى على بنى أمية ، وأنت تريد ببنى العباس ما تريد ؟ !

« فقال : والله ياعمّ لقد كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم ، وإن الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر[3] » .

وفى هذا الصدد يقول الشاعر المتشيع ابن الرومى (على بن العباس) ، من قصيدة[4] يرثى بها يحيى بن عمر بن الحسين :

أمامك فانظر أىّ نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج
ألا أيهذا الناس طال ضريركم بآل رسول الله فاخشوا أو ارتجوا

---

(١) الإبلاس : اليأس والتحير والسكوت من الغم والحزن .
(٢) استنحس فلان الأخبار : تجسسها .
(٣) يقصد الخليفة المنصور .
(٤) أنظر « مقاتل الطالبيين » لصاحب الأغانى أبى الفرج الأصفهانى ص ٦٤٦ ومابعدها طبع الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٤٩

أ كلَّ أوانٍ للنبي محمد قتيلٌ زكيٌّ بالدماء مضرَّجُ
تبيعون فيه الدين شرَّ أئمة فلله دين الله قد كاد يُمرَجُ[١]
بنى المصطفى كم يأكل الناس شِلوكم لبلواكُمُ عما قليل مفرَّج
أَمَا فيهمُ راعٍ لحق نبيه ولاخائفٌ من ربه يتحرج
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم كأن كتاب الله فيهم مُمَجْمَجُ[٢]
أبعدَ المكنَّى بالحسين شهيدكم تضاء مصابيح السماء فتُسرَج
أجِنُّوا بنى العباس من شنآنكم وشُدوا على ما فى العِياب وأشْرِجوا[٣]
وخلُّوا ولاة السوء منكم وغيَّهم فأحْرِ بهم أن يغْرقوا حيث لجَّجوا
غرِرْتم إذا صدقتم أن حالةً تدوم لكم والدهر لونان أخرَج[٤]
لعل لهم فى منطوى الغيث ثائراً سيسمو لكم والصبح فى الليل مولجَ
فيدرك ثارَ الله أنصار دينه ولله أوسٌ آخرون وخزرج
أفى الحق أن يُمسوا خماصاً وأنتمُ يكاد أخوكم بطنـــةً يتمعج
تمشون مختـالين فى حجراتكم ثقالَ الخطا أكفالكم تترجرج
وليدهمُ بادى الطوى ووليدكم من الريف ريّان المظام خَدَلَّجُ[٥]
ولم تقنعوا حتى استثارت قبورَهم كلابكُمُ منها بهيمٌ وديزَج[٦]

وفى هذا الصدد أيضاً يقول أبو عطاء أفلح[٧] بن يسار السندى متحسراً ملتاعاً :

يا ليت جور بنى مروان عاد لنا يا ليت عدل بنى العباس فى النار

(١) يفسد ويضطرب ، ويريد بشر الأئمة : خلفاء بنى العباس
(٢) أى غير مبين .
(٣) العياب ، جمع عيبة ، وهى . مايجعل فيها المتاع ، والإشراج : شد الخريطة .
(٤) أى ذو لونين أسود وأبيض .
(٥) الممتلىء الذراعين والساقين .
(٦) البهيم : الأسود . والديزج : ما له لون بين لونين غير خالص لأحدهما .
(٧) من مخضرمى الدولتين ومن موالى بنى أسد ، وأحد شعراء القرن الثانى الهجرى ، وقد توفى بعد الثمانين والمائة ، راجع إن شئت ترجمته فى الأغانى ، وفى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، وفى دائرة المعارف الإسلامية ، وفى نزهة الخواطر لابن فخر الدين الحسنى ط حيدر أباد .

ويقول الشاعر العلوى الثائر الهجاء ، دعبل بن على الخزاعى المتوفى عام ٢٤٦ هـ :

وليس حىٌّ من الأحيـاء نعلمه من ذى يمانٍ ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاءُ فى دمائهمُ كما تَشارَكَ أيسارٌ[1] على جُزُر
قتْـلٌ وأسرٌ وتحريق ومنهبة فعْلَ الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إذ قتلوا ولا أرى لبنى العباس من عُذُر

وقال معبراً عن موجة عامة من روح الاستياء ضدَّ خلفاء بنى العباس :

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد
فمرَّ ذاك ومرَّ الشؤم يتبعه وقام ذا فقام النحس والنـكد

وقال فأوجع :

أنَّى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافةَ فاسقٌ عن فاسق

ولا نستطيع فى هذا المقام أن نغفل « تائية »[2] دعبل الرائعة ، التى بكى فيها آل البيت أحرَّ بكاء ، وقد فجعه ما حلَّ بهم على أيدى بنى أمية و بنى العباس جميعاً ، وندب فيها ديارهم وربوعهم ، وعزَّى نفسه بخروج الإمام المهدى ، ليجزى على النعماء والنقمات ، وقد كان الخليفة العباسى المأمون بن الرشيد ، يبكى عند سماع هذه القصيدة ويستعيدها ، رغم نيل « دعبل » منه وهجائه له ولآبائه ، وفى هذه التائية العصماء يقول دعبل :

مدارسُ آيات خلت من تلاوة ومنزلُ وحى مقفرُ العرصات
ديارُ علىٍّ والحسـين وجعفرٍ وحمزة والسجـادِ ذى الثَّفِنات[3]
قفا نسأل الدار التى خفَّ أهلها متى عهدُها بالصوم والصلوات ؟
وأين الأُلى شطَّت بهم غربة النوى أفانين فى الآفاق مفـترقات ؟

* * *

(١) الأيسار : المقامرون .
(٢) أنظرها بمعجم الأدباء جـ ١١ ص ١٠٣ ومابعدها ، ط دار المأمون .
(٣) جمع ثفنة ، وهى من الإنسان ركبته ، يريد أن ركبتيه تأثرتا بكثرة السجود . والسجاد : هو على بن عبد الله بن العباس .

قبورٌ بكوفاتٍ وأخرى بطيْبةٍ　　وأخرى بفخٍّ[١] نالها صلواتى
وقبرٌ ببغـدادٍ لنفس زكية　　تضمَّنها الرحمن فى الغُرُفات
قليـلة زُوَّارٍ سوى بعض زُوَّرٍ　　من الضبع والعِقبان والرَّخمات
لهم كلَّ حين نومةٌ بمضاجعٍ　　لهم فى نواحى الأرض مختلفات

***

ألم ترَ أنّى من ثلاثين حجةً　　أروح وأغدو دائمَ الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسماً　　وأيديهمُ من فيئهم صفرات
فآلُ رسول الله نُحْفٌ جسومهم　　وآلُ زياد حفَّل القِصرات[٢]
بناتُ زياد فى القصور مصونةٌ　　وآلُ رسول الله فى الفلوات
فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ　　لقطَّع قلبى إثرهم حسراتى
خروجُ إمام لا محـالة خارجٌ　　يقوم على اسم الله والبركات
يميِّز فينا كلَّ حق وباطل　　ويجزى على النعماء والنقمات
فيا نفسُ طيبى ثم يا نفسُ أبشرى　　فغير بعيد كلُّ ما هو آت

ولما اضطهد المتوكل على الله الخليفة العباسى شيعة علىّ ، وهدم قبر الحسين فسوّاه بالأرض حتى لا يحج إليه الزائرون ، قال يعقوب بن السكيت العالم اللغوى المعروف ، وقيل البسامى الشاعر :

تالله إن كانت أميةُ قد أتت　　قتلَ ابن بنت نبيِّها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله　　هذا لعمرك قبره مهدوما
أسِفوا على ألاّ يكونوا شاركوا　　فى قتله فتتبعوه رميما

وأبو بكر الخوارزمى يقص علينا فى رسالة له إلى شيعة نيسابور ، ما حاق بآل البيت من محن وأحداث على أيدى بنى أمية ، والزبيريين ، وبنى العباس جميعاً ، وهى دون شك وثيقة خطيرة ، نرى أنفسنا مسوقين إلى تسجيلها ، لما لها من أهمية

---

(١) موضع بمكة .
(٢) جمع قصرة وهى : أصل العنق .

بالغة فيما نحن بصدده ، مع اعتذارنا للقارئ لإسقاطنا بعض ما فيها من فحش و إقذاع وهجْر ؛ فقد كان الخوارزمى متشيعاً صادق التشيع ، فآلمه وأحزنه — إلى حد بعيد — ما مُنى به العلويون ، آل البيت ، من قتل ونفى وتشريد وفاقة ومخمصة ، من مختلف صنوف الحاكمين ، فكتب إلى شيعة نيسابور هذه الرسالة الفريدة ، يؤرخ فيها للخطوب التى لحقت بالشيعة ، ويسجل محنهم ومصائبهم المتلاحقة ، منذ فجر التاريخ الإسلامى ، عقب وفاة النبى حتى أيام بنى العباس ، ويسخط فيها كل السخط على هؤلاء الذين ناصبوهم العداء ، وأراقوا منهم الدماء ، وقد أفحش فى سخطه هذا وأقذع فأوجع ، قال أبو بكر :

« سمعت أرشد الله سعيكم ، وجمع على التقوى أمركم ، ماتكلم به السلطان الذى لايتحامل إلا على العدل ، ولايميل إلا على جانب الفضل ، ولايبالى أن يمزق دينه إذا رقا دنياه ، ولايفكر فى أن يقدّم رضا الله إذا وجد رضاه ، وأنتم ونحن أصلحنا الله و إياكم ، عصابة لم يرض الله لنا الدنيا ، فذخرنا للدار الأخرى ، ورغب بنا عن ثواب العاجل ، وأعدَّ لنا ثواب الآجل ، وقسمنا قسمين : قسماً مات شهيداً ، وقسماً عاش شريداً ، فالحى يحسد الميت على ماصار إليه ، ولايرغب بنفسه عما جرى إليه ، قال أمير المؤمنين و يعسوب الدين عليه السلام : « المحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور » ، وهذه مقالة أسست على المحن ، وولد أهلها فى طالع الهزاهز والفتن ، فحياة أهلها نغص ، وقلوبهم حشوها غصص والأيام عليهم متحامله ، والدنيا عنهم مائله ، فإذا كنا شيعة أئمتنا فى الفرائض والسنن ، ومتبعى آثارهم فى كل قبيح وحسن ، فينبغى أن نتبع آثارهم فى المحن .

« غُصبت سيدتنا فاطمة ، صلوات الله عليها وعلى آلها ، ميراث أبيها ، صلوات الله عليه وعلى آله ، يوم السقيفه ، وأُخِّر أمير المؤمنين عن الخلافه ، وسُمَّ الحسن رضى الله عنه سرّا ، وقُتل أخوه كرم الله وجهه جهرا ، وصُلب زيد بن على بالكُناسه ، وقطع رأس زيد بن على فى المعركه[1] ، وقُتل ابناه محمد و إبراهيم على

---

(١) كذا فى الأصل طبع بولاق وطبع الجوائب ، ورأس زيد قطع بعد المعركة ، ولعل الصواب : وقطع رأس يحيى بن زيد ... الخ ، انظر مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى ص ١٥٨ .

يد عيسى بن موسى العباسى[1] ، ومات موسى بن جعفر فى حبس هارون ، وسُمَّ علىّ بن موسى بيد المأمون ، وهُزم إدريس بفخ حتى وقع إلى الأندلس فريدا ، ومات عيسى بن زيد طريداً شريدا ، وقُتل يحيى بن عبد الله بعد الأمان والايمان وبعد تأكيد العهود والضمان . . . !

« هذا غير مافعل يعقوب بن الليث بعلوية طبرستان ، وغير قتْل محمد بن زيد والحسن بن القاسم الداعى على أيدى آل ساسان ، وغير ماصنعه أبو الساح (كذا) فى علوية المدينة ، حملهم بلا غطاء ولا وطاء من الحجاز إلى سامرّا ، وهذا بعد قتلِ قتيبة بن مسلم الباهلى لابن عمر بن على ، حين أخذه بأبويه ، وقد ستر نفسه ، ووارى شخصه ، يصانع حياته ، ويدافع وفاته ، ولا كما فعله الحسين بن إسماعيل المصعبى بيحيى بن عمر الزيدى خاصه ، وما فعله مزاحم بن خاقان بعلوية الكوفة كافّه ، وبحسبكم أنه ليست فى بيضة الإسلام بلده ، إلا وفيها لقتيل طالبى تربه ، تشاركَ فى قتلهم الأموى والعباسى ، وأطبق عليهم العدنانى والقحطانى :

فليس حىٌّ من الأحياء نعرفه من ذى يمانٍ ولابكر ولا مضر
إلا وهم شركاء فى دمائهم كما تشاركَ أيسارٌ على جُزُر

« قادتهم الحمية إلى المنيه ، وكرهوا عيش الذله ، فماتوا موت العزه ، ووثقوا بما لهم فى الدار الباقيه ، فسخت نفوسهم عن هذه الفانيه ، ثم لم يشربوا كأساً من الموت ، إلا شربها شيعتهم وأولياؤهم ، ولاقاسوا لوناً من الشدائد ، إلا قاساه أنصارهم وأتباعهم .

« داس عثمان بن عفان بطن عمار بن ياسر بالمدينه ، ونفى أباذر الغفارى إلى الربذه ، وأشخص عامر بن عبد قيس التميمى ، وغرّب الأشتر النخعى ، وعدىّ ابن حاتم الطائى ، وسيّر عمر بن زرارة إلى الشام ، ونفى كميل بن زياد إلى العراق ،

---

(١) كذا فى الأصل طبع بولاق وطبع الجوائب ، ولعل الصواب : وقتل محمد وابراهيم ابنا عبد الله بن الحسن على يد ... الخ ، انظر مقاتل الطالبيين ص ٢٦٨ وما بعدها .

وجفا أبيّ بن كعب وأقصاه ، وعادى محمد بن حذيفة وناواه ، وعمل فى دم محمد بن سالم ماعمل ، وفعل مع كعب ذى الحطبة مافعل !

« واتبعه فى سيرته بنو أمية : يقتلون من حاربهم ، و يغدرون بمن سالمهم ، لايحفلون المهاجرى ، ولا يصونون الأنصارى ، ولا يخافون الله ولايحتشمون الناس ؛ قد اتخذوا عباد الله خوَلا ، ومال الله دُوَلا ، يهدمون الكعبه ، و يستعبدون الصحابه ، و يعطلون الصلاة الموقوته ، و يختمون أعناق الأحرار ، و يسيرون فى حرم المسلمين سيرتهم فى حرم الكفار ، و إذا فسق الأموى ، فلم يأت بالضلاله عن كلاله .

« قَتل معاوية حجرَ بن عدى الكندى ، وعمرو بن الحمق الخزاعى ، بعد الأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظه ، وقَتل زياد بن سمية الألوف من شيعة الكوفة وشيعة البصرة صبرا ، وأوسعهم حبساً وأسرا ، حتى قبض الله معاوية على أسوأ أعماله ، وختم عمره بشر أحواله ، فاتبعه ابنه ، يجهز على جرحاه ، و يقتل أبناء قتلاه إلى أن قَتل هانئ بن عروة المرادى ومسلم بن عقيل الهاشمى أوّلا ، وعقّب بالحارث ابن زياد الرياحى ، و بأبى موسى عمرو بن فرطة الأنصارى ، وحبيب بن مظهر الأسدى ، وسعيد بن عبد الله الحنفى ، ونافع بن هلال الجملى ، وحنظلة بن أسعد الشامى ، وعابس بن أبى شبيب الشاكرى ، فى نيف وسبعين من جماعة شيعته ، وأمر بالحسين عليه السلام يوم كربلا ثانيا ، ثم سلّط عليهم الدعىّ ابن الدعىّ عبيد الله بن زياد يصلبهم على جذوع النخل ، و يقتلهم ألوان القتل ، حتى اجتث الله دابره ، ثقيل الظهر بدمائهم التى سفك ، عظيم التبعة بحريمهم الذى انتهك ، فانتبهت لنصرة أهل البيت طائفه ، أراد الله أن يخرجهم من عهدة ماصنعوا ، و يغسل عنهم وضَر ما اجترحوا ، فصمدوا صمد الفئة الباغيه ، وطلبوا بدم الشهيد ، الدعىّ ابن . . . . ، لا يزيدهم قلة عددهم وانقطاع مددهم ، وكثرة سواد أهل الكوفة بإزائهم ، إلا إقداماً على القتل والقتال ، وسخاء بالنفوس والأموال ، حتى قُتل

سليمان بن صرد الخزاعى ، والمسيب بن نجية الفزارى ، وعبد الله بن والٍ التيمى ، فى رجال من خيار المؤمنين ، وعلية التابعين ، ومصابيح الأنام ، وفرسان الإسلام .

« ثم تسلط ابن الزبير على الحجاز والعراق فقتل المختار — بعد أن شفى الأوتار وأدرك الثار ، وأفنى الأشرار ، وطلب بدم المظلوم الغريب فقتل قاتله ونفى خاذله — وأتبعوه أبا عمر بن كيسان وأحمر بن شميط ورفاعة بن يزيد والسائب بن مالك وعبد الله بن كامل ، وتلقطوا بقايا الشيعة يمثلون بهم كل مُثله ، ويقتلونهم شر قِتله ، حتى طهّر الله من عبد الله بن الزبير البلاد ، وأراح من أخيه مصعب العباد ، فقتلهما عبد الملك بن مروان (كذلك نولّى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) ، بعد ما حبس ابنُ الزبير محمد ابن الحنفية وأراد إحراقه ، ونفى عبدَ الله بن العباس وأكثر إرهاقه .

« فلما خلت البلاد لآل مروان ، سلطوا الحجاج على الحجازيين ثم على العراقيين فتلعّب بالهاشميين ، وأخاف الفاطميين ، وقتل شيعة علىّ ، ومحا آثار بيت النبىّ ، وجرى منه ما جرى على كميل بن زياد النخعىّ . واتصل البلاء مدة ملك المروانيه ، إلى الأيام العباسيه ، حتى إذا أراد الله أن يختم مدتهم بأكثر آثامهم ، ويجعل أعظم ذنوبهم فى آخر أيامهم ، بعث على بقية الحق المهمل ، والدين المعطّل ، زيد بن على ، فخذله منافقو أهل العراق ، وقتله أحزاب أهل الشام ، وقُتل معه من شيعته نصر ابن خزيمة الأسدىّ ومعاوية بن إسحاق الأنصارىّ ، وجماعة من شايعه وتابعه ، وحتى من زوّجه وأدناه ، وحتى من كلّمه وماشاه ....!

« فلما انتهكوا ذلك الحريم ، واقترفوا ذلك الإثم العظيم ، غضب الله عليهم وانتزع الملك منهم ، فبعث عليهم أبا مجرم — لا أبا مسلم — فنظر ، لا نظر الله إليه ، إلى صلابة العلويه ، وإلى لين العباسيه ، فترك تقاه واتبع هواه ، وباع آخرته بدنياه ، وافتتح عمله بقتل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وسلط طواغيت خراسان ، وخوارج سجستان ، وأكراد أصفهان ، على آل أبى طالب

يقتلهم تحت كل حجر ومدر ، و يطلبهم فى كل سهل وجبل ، حتى سلط عليه أحبّ الناس إليه ، فقتله كما قتل الناس فى طاعته ، وأخذه بما أخذ الناس فى بيعته ، ولم ينفعه أن أسخط الله برضاه ، وأن ركب ما لا يهواه ، وخلت من الدوانيقىّ الدنيا فخبط فيها عسفا ، وتقضى فيها جوراً وحيفا ، إلى أن بات وقد امتلأت سجونه بأهل بيت الرساله ، ومعدن الطيب والطهاره ، قد تتبع غائبهم وتلقط حاضرهم ، حتى قتل عبد الله بن محمد بن عبد الله الحسنىّ بالسند ، على يد عمر بن هشام بن عمر التغلبىّ ، فما ظنك بمن قرب متناوله عليه ، ولان مسّه على يديه ؟ ! وهذا قليل فى جنب ماقتله هارون منهم ، وفعله موسى قبله بهم ؛ فقد عرفتم ما توجه على الحسن بن علىّ بفخ من موسى ، وما اتفق على علىّ بن الأفطس الحسينى من هارون ، وما جرى على أحمد بن علىّ الزيدى ، وعلى القاسم بن علىّ الحسنى من حبسه ، وعلى ابن غسان حاضر الخزاعى حين أُخذ من قبله ، والجملة أن هارون مات وقد حصد شجرة النبوه واقتلع غرس الإمامه . . . !

« وأنتم أصلحكم الله أعظم نصيباً فى الدين من الأعمش ؟ فقد شتموه ! ومن شريك ؟ فقد عزلوه ! ومن هشام بن الحكم ؟ فقد أخافوه ! ومن علىّ بن يقطين ؟ فقد اتهموه . . . !

« فأما فى الصدر الأول فقد قُتل زيد بن صرحان العبدىّ ، وعوقب عثمان ابن حنيف الأنصارىّ ، ونفى حارثة بن قدامة السعدىّ ، وجندب بن زهير الأزدى ، وشريح بن هانئ المرادى ، ومالك بن كعب الأرحبى ، ومعقل بن قيس الرياحى ، والحارث الأعور الهمدانى ، وأبو الطفيل الكنانى ، وما فيهم إلا من خرّ على وجهه قتيلا ، أو عاش فى بيته ذليلا ، يسمع شتمة الوصىّ فلا ينكر ، و يرى قتلة الأوصياء وأولادهم فلا يغيّر ، ولا يخفى عليكم حرج عامتهم وحيرتُهم ، كجابر الجعفى وكرشيد الهجرى ، وكزرارة بن أعين ، وكفلان وأبى فلان . . . ، ليس إلا أنهم رحمهم الله كانوا يتولون أولياء الله ، ويتبرأون من أعداء الله ، وكفى به جرماً عظيماً عندهم ، وعيباً كبيراً بينهم .

« وقل فى بنى العباس ، فإنك ستجد بحمد الله تعالى مقالا ، وجُلْ فى عجائبهم ، فإنك ترى ما شئت مجالا :

« يُجبى فيئهم فيفرّق على الديلمى والتركى ، ويحمل إلى المغربى والفرغانى ، ويموت إمام من أئمة الهدى ، وسيد من سادات بيت المصطفى ، فلا تُتْبع جنازته ، ولا تُجصص مقبرته ، ويموت (ضراط) لهم أو لاعب ، أو مسخرة أو ضارب ، فتحضر جنازته العدولُ والقضاه ، ويعمر مسجدَ التعزية عنه القواد والولاه ، ويَسْلَم فيهم من يعرفونه دهريًا أو سوفسطائيا ، ولا يتعرضون لمن يدرس كتابًا فلسفيًا ومانويا ، ويقتلون من عرفوه شيعيا ، ويسفكون دم من سمى ابنه عليّا ، ولو لم يُقتل من شيعة أهل البيت غير المعلى بن حبيش قتيل داود بن على ، ولو لم يحبس فيهم غير أبى تراب المروزى ، لكان ذلك جرحًا لا يبرأ ، وثائرة لا تُطفأ ، وصدعًا لا يلتئم ، وجرحًا لا يلتحم ، وكفاهم أن شعراء قريش قالوا فى الجاهلية أشعارًا يهجون بها أمير المؤمنين عليه السلام ، ويعارضون فيها أشعار المسلمين ، فحملت أشعارهم ودوّنت أخبارهم ، ورواها الرواة مثل الواقدى ، ووهب بن منبه التميمىّ ، ومثل الكلبى والشرقى بن القطامى ، والهيثم بن عدى ، ودأب بن الكنانى ، وأن بعض شعراء الشيعة يتكلم فى ذكر مناقب الوصى ، بل فى ذكر معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، فيُقطع لسانه ، ويُمزّق ديوانه ، كما فُعل بعبد الله بن عمار البرقى وكما أريد بالكميت بن زيد الأسدى ، وكما نُبش قبر منصور بن الزبرقان النمرى ، وكما دُمّر على دعبل بن علىّ الخزاعى ، مع رفقتهم من مروان بن أبى حفصة اليمامى ، ومن علىّ بن الجهم الشامى ، ليس إلا لغلوّهما فى النصب ، واستيجابهما مقت الرب ، حتى إن هارون ابن الخيزران ، وجعفرًا المتوكل على الشيطان — لا على الرحمن — كانا لا يعطيان مالا ، ولا يبذلان نوالا ، إلا لمن شتم آل أبى طالب ، ونصر مذهب النواصب ، مثل عبد الله بن مصعب الزبيرى ، ووهب بن وهب البخترى ، ومن الشعراء مثل مروان بن أبى حفصة الأموى ، ومن الأدباء مثل عبد الملك بن قريب

الأصمعى ، فأما فى أيام جعفر ، فمثل بكار بن عبد الله الزبيرى ، وأبى السمط ابن أبى الجون الأموى ، وابن أبى الشوارب العبشمى .

« ونحن أرشدكم الله قد تمسكنا بالعروة الوثقى ، وآثرنا الدين على الدنيا ، وليس يزيدنا بصيرةً زيادةُ من زاد فينا ، ولن يحل لنا عقدةً نقصانُ من نقص منّا ؛ فإن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود كما بدا ، كلمة من الله ووصية من رسول الله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ومع اليوم غد ، وبعد السبت أحد ، قال عمار ابن ياسر ، رضى الله عنه ، يوم صفين : لو ضربونا حتى نبلغ سعفات هجر ، لعلمنا أنّا على الحق وأنهم على الباطل ، ولقد هزم رسول الله صلوات الله عليه ثم هزم ، ولقد تأخر أمر الإسلام ثم تقدم (الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون) ، ولولا محنة المؤمنين وقلّتهم ، ودولة الكافرين وكثرتهم ، لما امتلأت جهنم حتى تقول هل من مزيد ، ولما قال الله تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، ولما تبين الجزوع من الصبور ، ولا عُرف الشكور من الكفور ، ولما استحق المطيع الأجر ، ولا احتقب العاصى الوزر ، فإن أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعودناه ، وإن رجعت لنا دولة فذلك ما قد انتظرناه ، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آله ، ولكل مقامة مقاله ؛ فعند المحن الصبر ، وعند النعم الشكر ، ولقد شُتم أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر ألف شهر ، فما شككنا فى وصيته ، وكُذب محمد صلى الله عليه وسلم بضع عشرة سنة ، فما اتهمناه فى نبوته ، وعاش إبليس مدة تزيد على المدد ، فلم نرتب فى لعنته ، وابتلينا بفترة الحق ونحن مستيقنون بدولته ، ودُفعنا إلى قتل الإمام بعد الإمام والرضا بعد الرضا ولا مرية عندنا فى صحة إمامته ، وكان وعد الله مفعولا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا ، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، ولتعلمن نبأه بعد حين . . !

« اعلموا رحمكم الله أن بنى أمية الشجرة الملعونة فى القرآن ، وأتباع الطاغوت والشيطان ، جهدوا فى دفن محاسن الوصى ، واستأجروا من كذب فى الأحاديث

على النبى صلى الله عليه وسلم ، وحولوا الجوار إلى بيت المقدس عن المدينة ، والخلافة — زعموا — إلى دمشق عن الكوفة ، و بذلوا فى طمس هذا الأمر الأموال ، وقلدوا عليه الأعمال ، واصطنعوا فيه الرجال ، فما قدروا على دفن حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، ولا على تحريف آية من كتاب الله تعالى ، ولا على دسّ أحد من أعداء الله فى أولياء الله ، ولقد كان ينادى على رؤوسهم بفضائل العتره ، ويبكت بعضهم بعضاً بالدليل والحجه ، لا تنفع فى ذلك هيبه ، ولا يمنع منه رغبة ولا رهبه ، والحق عزيز و إن استذل أهله ، وكثير و إن قلّ حزبه ، والباطل ذليل و إن رصِّع بالشبهه ، وقبيح و إن غطى وجهه بكل مليح ، قال عبد الرحمن بن الحكم وهو من أنفس بنى أمية :

سُمية أمسى نسلها عدد الحصى ... و بنت رسول الله ليس لها نسل

غيره :

لعن الله من يسب علياً ... وحسيناً من سوقة و إمام

وقال أبو دهبل الجمحى فى سمة سلطان بنى أمية وولاية آل بنى سفيان :

تبيت السكارى من أمية نُوَّماً ... وبالطفّ قتلى ما ينام حميمها

وقال سليمان بن قتة :

و إن قتيل الطفّ من آل هاشم ... أذلَّ رقاب المسلمين فذلّتِ

وقال الكميت بن زيد ، وهو جار خالد بن عبد الله القسرى :

فقل لبنى أمية حيث حلّوا ... و إن خفت المهند والقطيعا

أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركمُ أجيعا

« وما هذا بأعجب من صياح شعراء بنى العباس على رءوسهم بالحق و إن كرهوه ، و بتفضيل من نقصوه وقتلوه ؛ قال المنصور بن الزبرقان على بساط هارون :

آل النبىّ ومن يحبهم ... يتطامنون مخافة القتل

ومن النصارى واليهود وهم   من أمة التوحيد فى أزل[1]

وقال دعبل بن على ، وهو صنيعة بنى العباس وشاعرهم :

ألم تر أنى مذ ثمانين حجة   أروح وأغدو دائم الحسرات

أرى فيئهم فى غيرهم متقسماً   وأيديهمُ من فيئهم صفرات

وقال على بن العباس الرومى ، وهو مولى المعتصم :

لكل أوان للنبى محمد   قتيلٌ زكى بالدماء مضرّج

وقال ابراهيم بن العباس الصولى ، وهو كاتب القوم وعاملهم ، فى الرضا لما قرّبه المأمون :

يمنُّ عليكم بأموالكم   وتعطون من مائة واحدا

« وكيف لا ينتقصون قوماً يقتلون بنى عمهم جوعاً وسغبا ، ويملأون ديار الترك والديلم فضة وذهبا ، يستنصرون المغربى والفرغانى ، ويجفون المهاجرى والأنصارى ، ويولون أنباط السواد وزارتهم ، وقُلف العجم والطماطم قيادتهم ، ويمنعون آل أبى طالب ميراث أمهم ، وفىء جدهم ، يشتهى العلوى الأكلة فيُحرَمها ، ويقترح على الأيام الشهوة فلا يطعمها ، وخراج مصر والأهواز ، وصدقات الحرمين والحجاز ، تصرف إلى ابن أبى مريم المدينى ، وإلى إبراهيم الموصلى ، وابن جامع السهمى ، وإلى زلزل الضارب ، وبرصوما الزامر ، وإقطاعُ بختيشوع النصرانى قوتُ أهل بلد ، وجارى بغا التركى ، والأفشين الأشروسنى ، كفايةُ أمة ذات عدد ، والمتوكل — زعموا — يتسرى باثنى عشر ألف سريه ، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو سنديه ، وصفوة مال الخراج مقصور على أرزاق الصفاعنه ، وعلى موائد المخانثه ، وعلى طعمة الكلاّبين ، ورسوم القرّادين ، وعلى مخارق وعلوية المغنى ، وعلى زرزر ، وعمر بن بانة الملهى ، ويبخلون على الفاطمى بأكلة أو شربه ، ويصارفونه على دانق وحبَّه ، ويشترون العوّادة بالبِدر ، ويُجرون لها ما يفى برزق

(١) فى القاموس ، الأزل : الضيق والشدة .

عسكر ، والقوم الذين أُحلّ لهم الخمس ، وحرِّمت عليهم الصدقه ، وفرضت لهم الكرامة والمحبه ، يتكففون ضرا ويهلكون فقرا ، ويرهن أحدهم سيفه ، ويبيع ثوبه ، وينظر إلى فيئه بعين مريضه ، ويتشدد على دهره بنفس ضعيفه ، ليس له ذنب إلا أن جده النبي ، وأباه الوصي ، وأمه فاطمه ، وجدته خديجه ، ومذهبه الإيمان ، وإمامه القرآن .

« ولقد كانت فى بنى أمية مخازى تذكر ، ومعايب تؤثر ، كان معاوية قاتل الصحابة والتابعين ، وأمه آكلة أكباد الشهداء الطاهرين ، وابنه يزيد القرود ، مربى الفهود ، وهادم الكعبه ، ومنهب المدينه ، وقاتل العتره ، وصاحب يوم الحرّه ، وكان مروان الوزغ ابن الوزغ ، لعن النبى صلى الله عليه وعلى آله أباه وهو فى صلبه ، فلحقته لعنة الله ربه ، وكان عبد الملك صاحب الخطيئة التى طبقت الأرض وشملت ، وهى توليته الحجاج بن يوسف الثقفى ؛ قاتل العباد وقاتل العبّاد ، ومبيد الأوتاد ومخرب البلاد ، وخبيث أمة محمد الذى جاءت به النذر ، وورد فيه الأثر ، وكان الوليد جبار بنى أمية ، وولى الحجاج على المشرق ، وقرّة بن شريك على المغرب ، وكان سليمان صاحب البطن الذى قتله بطنه كظّه ، ومات بشماً وتخمه ، وكان يزيد صاحب سلاّمة وحبابه ، الذى نسخ الجهاد بالخمر ، وقصر أيام خلافته على العود والزمر ، وأول من أغلى سعر المغنيات ، وأعلن بالفاحشات ، وماذا أقول فيمن أعرق فيه مروان من جانب ، ويزيد بن معاوية من جانب ، فهو ملعون بين ملعونين ، وعريق فى الكفر بين كافرين ، وكان هشام قاتل زيد بن على مولى يوسف ابن عمر الثقفى ، وكان الوليد بن يزيد خليع بنى مروان ، الكافر بالرحمن ، الممزّق بالسهام القرآن ، وأول من قال الشعر فى نفى الإيمان ، وجاهر بالفسوق والعصيان .. !

« وهذه المثالب ، مع عظمها وكثرتها ومع قبحها وشنعتها ، صغيرة وقليلة فى جنب مثالب بنى العباس ، الذين بنوا مدينة الجبارين ، وفرّقوا فى الملاهى والمعاصى أموال المسلمين . . . !

« هؤلاء أرشدكم الله ، الأئمة المهديون الراشدون ، الذين قضوا بالحق وبه يعدلون . . . ! بذلك يقف خطيب جمعتهم ، وبذلك تقوم صلاة جماعتهم . . . !

« فإن كسد التشيع بخراسان ، فقد نفق بالحجاز والحرمين والشام والعراقين ، وبالجزيرة والثغرين ، وبالجبل واليغارين[1] ؟ وإن تحامل علينا وزير أو أمير ، فإنا نتوكل على الأمير الذى لا يُعزل ، وعلى القاضى الذى لم يزل يعدل ، وعلى الحَكَم الذى لا يقبل رشوه ، ولا يطلب سجلًا ولا شهاده ، وإياه تعالى نحمد على طهارة المولد ، وطيب المحتد ، ونسأله ألّا يكلنا إلى أنفسنا ، ولا يحاسبنا على مقتضى عملنا ، وأن يعيذنا من رعونة الحشويه ، ومن لجاج الحروريه ، وشكٍّ الواقفيه ، وإرجاء الحنفيه ، وتخالف أقوال الشافعيه ، ومكابرة البكريه ، ونصب المالكيه ، وإجبار الجهميه والنجاريه ، وكسل الراونديه ، وروايات الكيسانيه ، وجحد العثمانيه ، وتشبيه الحنبليه ، وكذب الغلاة الخطابيه ، وألا يحشرنا على نصب أصفهانى ، ولا على بغض لأهل البيت طوسى أو شاشى ، ولا على إرجاء كوفى ، ولا على تشبيه قمّى . ولا على جهل شامى ، ولا على تحنبل بغدادى ، ولا على قول بالباطن مغربى ، ولا على عشق لأبى حنيفة بلخى ، ولا على تناقض فى القول حجازى ، ولا على مروق سجزى ، ولا غلوّ فى التشيع كرخى ، وأن يحشرنا فى زمرة من أحببناه ، ويرزقنا شفاعة من توليناه ، إذا دعا كلّ أناس بإمامهم ، وساق كلّ فريق تحت لوائهم ، إنه سميع قريب ، يسمع ويستجيب[2] » .

ولا يسعنا فى ختام هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة إلا أن نأسف مع الخوارزمى لما أصاب بنى علىّ من كوارث وخطوب ، حتى من بنى عمهم العباسيين ، بعد أن أقاموا دولتهم على نفوذهم ، وتاجروا بين الجماهير باسمهم فدعوا إلى (الرضا من آل محمد) .ولقد كانت هذه الكوارث التى صوّرها لنا الخوارزمى خاصة والمؤرخون عامة ،

---

(١) كذا بالأصول ؟

(٢) أنظر رسائل الخوارزمى ص ١٢٥ ومابعدها ، طبع بولاق مطبعة عبد الرحمن رشدى عام ١٢٧٩ هـ .

من العوامل الفعالة التي زادت الشيعة تمسكاً بعقيدة المهدى ، الذى سيرفع عنهم هذه المحن ، ويعيد إليهم حقهم المغتصب وملكهم المسلوب .

* * *

مستندات الشيعة :

لقد حرص الشيعة أكبر الحرص على تبيان الأساس الدينى لهذا المعتقد — معتقد المهدية — والدفاع عنه جاهدين ضد سخرية المرتابين ، وقد استغرق ذلك صفحات عديدة من مؤلفاتهم الدينية ، وفى العصر الحديث — كما يخبرنا « جولدزيهر[1] » Goldziher ظهر بفارس كتاب ، يدعو إلى التوقى من الشك الذى تعاظم تياره الجارف ، فأوشك أن يذهب بالإيمان بإمام العصر الخفى .

وقد رأت الشيعة فى ميدان « الحديث » الواسع مستنداً ومجالاً ، فما كان هذا الميدان الفسيح جداً يرد ذا حاجة قط ، أو يوصد بابه دون ملتجئ طارق ، وسرعان ما اختلقت الشيعة الأحاديث الكثيرة ، ووضعتها مؤيدة لوجهة نظرها ، ورفعتها إلى النبى ، لتصبغ هذا المعتقد بصبغة إسلامية رسمية ، من ذلك قولهم :

« لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتى يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » ، و « نحن ولدَ عبد المطلب سادة أهل الجنة : أنا وحمزة وعلى وجعفر والحسن والحسين والمهدى » ، وكقولهم « المهدى من عترتى من ولد فاطمة » ، و « المهدى منا أهل البيت يصلحه الله فى ليلة » ، و « يخرج ناس من المغرب فيوطئون للمهدى » ، و « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتى ، يواطئ اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » ، إلى آخر ما ابتدعوا وصنعوا وإنه لكثير . . . !

وأمثال هذه الأحاديث لم تروها الكتب الصحيحة المتشددة فى الرواية ،

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٩٣

كصحيحى البخارى — محمد بن اسماعيل — ومسلم بن الحجاج النيسابورى ، وإنما روتها الكتب الأقلُّ تشدداً ، كسنن أبى داود وابن ماجة والترمذى والنسائى ومسند أحمد ، ولقد أوسع علماء الحديث ونقدته هذه المجموعة نقداً وتفنيداً ، ورفضها بشدة العلامة ابن خلدون فى مقدمته[1] .

يقول العلامة « دونلدسن » Doneldson :

« ومما هو جدير بالملاحظة أن استعمال هذا المصطلح ، سبق تدوين الحديث بنحو مائتى سنة ، وهى مدة كافية لتبلور فكرة المهدى ، ولما كان القرآن نفسه لم يرد فيه ما يؤيد هذه الفكرة ، كان من الضرورى الالتجاء إلى الحديث لإثباتها ، وقد فنَّد ابن خلدون فى مقدمته جميع الأحاديث الواردة فى هذا الصدد ، فأشار إلى عدم ورودها فى صحيحى البخارى ومسلم ، وأشار إلى أن الأحاديث الواردة فى الترمذى وأبى داود مأخوذة عن « عاصم » ، وعاصم هذا فى حديثه اضطراب ، وقد تكلم فيه ابن علية فقال : « كل من اسمه عاصم سيىء الحفظ » ، ومع هذا فبالنظر إلى عدم ذكر القرآن شيئاً عن المهدى ، وأن الأحاديث الواردة بشأنه كلها ضعيفة أو مشكوك فيها ، فإن عقيدة المهدى لا تدخل فى اعتقادات أهل السنة والجماعة[2] » .

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدى :

« والناظرون فى هذه الأحاديث من أولى البصائر ، لا يجدون فى صدورهم حرجاً من تنزيه رسول الله من قولها ؛ فإن فيها من الغلو والخبط فى التواريخ والإغراق فى المبالغة والجهل بأمور الناس والبعد عن سنن الله المعروفة ، ما يشعر المطالع لأول وهلة أنها أحاديث موضوعة ، تعمَّد وضعها رجال من أهل الزيغ أو المشايعين لبعض أهل الدعوة من طلبة الخلافة فى بلاد العرب أو المغرب[3] » .

وقد عمدت الشيعة أيضاً إلى القرآن — كما عمدت إليه سائر الطوائف الإسلامية

---

(١) المقدمة ص ٩٦ طبع بولاق عام ١٢٧٤ هـ .
(٢) عقيدة الشيعة ص ٢٣١
(٣) أنظر دائرة معارف وجدى مادة « مهدى » .

المتشعبة والبيِّنة الاختلاف — تحاول أن تجد فى نصوصه تأويلاً واضحاً سهلاً ، أو خفياً متعسَّفاً ، يؤيد معتقدهم ، فيقولون :

قال الله تعالى : « وإنه لعلم للساعة » قال ابن حجر فى صواعقه : « قال مقاتل ابن سليمان ومن تبعه من المفسرين ، إن هذه الآية نزلت فى المهدى ، ولذلك فهم ينظمونها فى سلك الآيات النازلة فى آل البيت[1] » .

وأكبر الظن أنى لست فى حاجة لبيان ما فى هذا التفسير من مجانبة لنص القرآن ، وقد عرض علينا « جولدزيهر » Goldziher[2] تفسيراً شيعياً طريفاً لسورة « الشمس » ، يمكن به أن نكوّن لأنفسنا فكرة عن هذا التأويل القرآنى ومدى تعسفه ، قالوا « والشمس وضحاها (الشمس هى محمد) ، والقمر إذا تلاها (القمر هو على) والنهار إذا جلّاها (النهار الحسن والحسين) والليل إذا يغشاها (الليل هو الأمويون) » !

ويحدثنا ابن قتيبة الدينورى عن مدى تعسف الشيعة فى تفسيرهم لآيات القرآن فيقول : إنهم يفسرون قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » بأنها عائشة رضى الله عنها . . . ! ويقولون فى قول الله عز وجل : « فقلنا اضربوه ببعضها » إنه طلحة والزبير ، قال ابن قتيبة : « ويقولون فى الخمر والميسر إنهما أبو بكر وعمر رضى

(١) يزعم المتشيعون أن المقصود بأهل البيت فى قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » إنما هو على وفاطمة والحسن والحسين ، ومن هذا يطلقون على ذراريهم اسم « آل البيت » ويروى المحب الطبرى صاحب « ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى » أن الآية الكريمة نزلت على الرسول فى بيت أم سلمة ، فدعا النبى بعلى وفاطمة والحسن والحسين وجللهم بكساء ، ثم قال « اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ، قالت أم سلمة : « وأنا معهم يارسول الله ، قال : أنت على مكانك وأنت على خير » والحق أن المقصود فى الآية بأهل البيت ، هن زوجات الرسول ، فالخطاب لهن قبل هذه الآية وبعدها ، وقد كان عكرمة ينادى فى الأسواق بنزول هذه الآية فى نساء النبى خاصة ، فأزواج النبى — أمهات المؤمنين — هن أهل البيت ، أما ذرية فاطمة فهم آل على لا آل البيت آل النبى ، وهذا دون شك مايقره الأسلوب القرآنى المنزه عن العبث والإسفاف .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٣٣١

الله عنهما . . . ! والجبت والطاغوت إنهما معاوية وعمرو بن العاص . . ! مع عجائب أرغب عن ذكرها ، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها[1] » .

وهذا تفسير شيعى آخر طريف إلى أبعد حدود الطرافة رواه لنا الأغانى قال :

« كان بشار جالساً فى دار المهدى والناس ينتظرون الإذن ، فقال بعض موالى المهدى لمن حضر : ماعندكم فى قول الله عز وجل (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر) ؟

« فقال له بشار : النحل التى يعرفها الناس ، قال : هيهات يا أبا معاذ ، النحل : بنو هاشم ، وقوله (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) يعنى العلم ... ! فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك فيما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثةً . . . ، فغضب وشتم بشاراً ، وبلغ المهدىَّ الخبرُ ، فدعا بهما فسألهما عن القصة ، فحدثه بشارٌ بها ، فضحك حتى أمسكَ على بطنه ، ثم قال للرجل : أجل ! فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم فإنك باردٌ غَثٌّ[2] . . . » .

والحق أن تفسير الشيعة لنصوص القرآن ، كان بعيداً كل البعد عن روحه الظاهرة وعن مادة اللغة نفسها ، ولم يكن قط حائزاً لرضى أهل السنة ، أو أهل اللغة الذين كانوا ينظرون إليه بعين السخرية والاستخفاف ، قال الشعبى — فيما يرويه لنا ابن عبد ربه :

« ماشبهت تأويل الروافض فى القرآن إلا بتأويل رجل مضعوف من بنى مخزوم من أهل مكة ، وجدته قاعداً بفناء الكعبة فقال (أى للشعبى) : ماعندك فى تأويل هذا البيت ؟ فإن بنى تميم يغلطون فيه ؛ يزعمون أنه مما قيل فى رجل منهم ، وهو قول الشاعر :

---

(١) أنظر تأويل مختلف الحديث ، ص ٨٦ ط الكردى بالقاهرة .

(٢) أنظر الأغانى حـ ٣ ص ١٥٨ ط الدار .

بيتٌ زُرارةُ مُحْتَبٍ بفنائه ومجاشِعٌ وأبو الفوارس نَهْشَلُ

فقلت له : وماعندك أنت ؟ قال : البيت هو هذا البيت وأشار بيده إلى الـكعبة ، وزرارةُ : الحجر زُرِّر حول البيت ، فقلتُ له : فمجاشع ؟ قال : زمزم ؛ جشعت بالماء ، قلتُ : فأبو الفوارس ؟ قال : هو أبو قبيس جبل مكة ، قلتُ : فنهشل ؟ ففكر فيه طويلاً ثم قال : أصبته ... ؛ هو مصباح الـكعبة طويل أسود ، وهو النهشل[١] ... ! » .

وتزاحم الصوفيةُ الشيعة فى هذا الميدان من التأويل الباطنى لآيات القرآن ، وقد كتب فى ذلك مشايخهم كالتسترى والسلمى ومحى الدين بن عربى . وهذا التفسير الخفى عندهم — وهم الخاصة — هو مراد الله ، وهو « الحقيقة » أما التفسير الظاهرى لنصوص الـكتاب عند العامة — غير الواصلين إلى مراتب المعرفة بالـكشف والفناء بالاندماج — فهو « الشريعة » ، والأول عند الصوفية هو الحق ؛ لاعتماده على الإشراق والـكشف ، وهو معرفة تشبه إلى حد كبير — كما يقول العلامة الطيب الذكر « نيكلسون » Nicholson — فـكرة الغنوصية فى الديانة الهلينستية ؛ فهى تأمل انتشائى فى الله يشعر به القلب الذى غمره الضوء الإلهى ، وليس للعقل الإنسانى فيها نصيب[٢] ، وأما التفسير الثانى للقرآن وهو تفسير « الشريعة » ومايتصل به من علوم الظاهر ، فيعتمد على اللغة والفكر البشرى والتلقى عن المشايخ والاستفادة من الـكتب ، وهو لهذا تافه لا قيمة له ، بعيد عن الحق عنـد الصوفية وإخوانهم الشيعة .

ومن مستندات الشيعة أخيراً قول علىّ أو علوى فى (النهج) : « لتعطفن

---

(١) العقد الفريد ﺣ ٢ ص ٤١٠ ومابعدها ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، وانظر ابن قتيبة : عيون الأخبار ﺣ ٢ ص ١٤٦ ط الدار ؛ وابن قتيبة أيضاً « تأويل مختلف الحديث » ص ٨٦ ط الـكردى بالقاهرة

(٢) أنظر ماكتبه فى ذلك « نيكلسون » Nicholson فى مجموعة دراساته التى ترجمها الأستاذ أبو العلا عفيفى باسم « فى التصوف الإسلامى وتاريخه » ص ١١٥ ومابعدها .

الدنيا علينا بعد شِماسها عطف الضروس[(١)] على ولدها ، وتلا عقيب ذلك (ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) .

« قال ابن أبى الحديد : « والإمامية تزعم أن ذلك وعدٌ منه بالإمام الغائب الذى يملك الأرض فى آخر الزمان ؛ وأصحابنا يقولون إنه وعدٌ بإمام يملك الأرض ويستولى على الممالك ، ولا يلزم من ذلك أنه لابد أن يكون موجوداً ، وإن كان غائباً إلى أن يظهر ، بل يكفى فى صحة هذا الكلام ، أن يُخلق فى آخر الوقت[(٢)] » .

ولا يعزب عن بالنا أن « النهج » منحول على علىّ ، وقد صنَّفه محمد بن الحسين العلوى المعروف بالرضى ؛ قال ابن شهراشوب السَّرَوى وهو شيعى من أهل القرن السادس : « الشريف الرضِى الموسوى ، وهو أبو الحسن محمد بن الحسين ، له نهج البلاغة[(٣)] ... الخ »

وقيل صنفه أخوه على بن الحسين الملقب بالمرتضى ، وكلاهما من أئمة الإمامية ومن فصحاء العربية ؛ قال الذهبى فى « ميزان الاعتدال » :

« من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه ، ففيه السبُّ الصراح والحطُّ على السيدين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التى مَنْ له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين ، جزم بأن أكثره باطل[(٤)] » .

وفى هذا الصدد يقول العلامة المرحوم محمد إسعاف النشاشيبى :

« فتلك الأقوال فى النهج ذوات الأنباء بالغيب ، وكلام ابن أبى الحديد ،

---

(١) الضروس : الناقة .

(٢) شرح النهج مجلد ٤ ص ٣٣٦

(٣) انظر « معالم العلماء فى فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين منهم قديماً وحديثاً » لابن شهراشوب السروى رشيد الدين أبى جعفر محمد بن على المنشيع المتوفى عام ٥٨٨ ﻫ ، ص ٤٤ ، وكتابه هذا تتمة لكتاب « الفهرست » للشيخ أبى جعفر الطوسى ، وقد نشره عباس إقبال بطهران عام ١٣٥٣ ﻫ .

(٤) الإسلام الصحيح ﺣ ١ ص ٣٣٦ ط القدس .

وتلك الألفاظ المولّدة فى الخطب ، دع عنك المقالات الـكلامية والمذاهب الإمامية والاعتزالية ، والـكلمات الإغريقية والفارسية ، وتباين الأنفاس المختلفة ، وتباعد الأساليب فى القول ، وأغلاطٌ فى اللغة وفى علم العربية — وإن قلّت — كلّ ذلك يُسنِد ماذهب إليه (منهاج السنَّة) و (ميزان الاعتدال) و (مختصر إرشاد الحيارى) ويحققه ، ويدفع كلام ابن أبى الحديد ومن ماشاه ويزهقه (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا[1]) .

* * *

غلاة الشيعة وألوهية الأئمة :

سبق أن تحدثنا إليك عن عقيدة الشيعة فى « الإمام » وما فيها من تقديس ، وعن نظرتهم إلى إمامهم الأول « علىّ » ، وما فيها من إفراط وغلوّ . وقد ساق هذا الإفراط بعضهم إلى أن قالوا بنبوّته ، وهؤلاء هم جماعة « الغُرابية » القائلين إن محمداً كان أشبه بعلىّ من الغراب بالغراب فالتبس الأمر على جبريل وأعطى الرسالة خطأ لمحمد ، ولا لوم عليه فى هذا الخطأ غير المقصود ، بيد أن منهم جماعة تلعنه وتـكفره ؛ لأنه تعمد إعطاء الرسالة لمحمد[2] . وقال العليا بن ذراع الدوسى — وقيل الأسدى صاحب فرقة العليائية — بألوهية علىّ ، وأنه هو الذى بعث محمداً ، وكان يدعو إلى ذمّه قائلاً إن محمداً بُعث ليدعو إلى علىّ ، فدعا إلى نفسه[3] . . . !

وقد اصطدم هؤلاء جميعاً بقول القرآن « محمد رسول الله » فذهبوا — موتورين — يطعنون فى القرآن وينسجون الأساطير حول شخصية علىّ ، فقالوا بحلول جزء إلهى فيه ، فهم إذ حرمهم الواقع نبوة صاحبهم ، يعيشون فى جو ميثولوجى وراء ألوهيته .

---

(١) الإسلام الصحيح حـ ١ ص ٣٥٥

(٢) الفصل لابن حزم حـ ٤ ص ١٨٣ ، وانظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٥٢ ومختصره للرسعنى ص ١٥٧ ، وانظر أيضاً الإسفرايينى « التبصير فى الدين » ص ٧٤ .

(٣) أنظر الشهرستانى « الملل والنحل » حـ ٢ ص ١٢ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

وكان أول القائلين بألوهية علىّ هو ابن سبأ ، الذى زعم أن روح الله حلّت فى كل نبى ، وأنها تنتقل فيهم الواحد بعد الآخر ، وقد انتقلت بعد وفاة محمد إلى علىّ ، ثم إلى أبنائه الذين انتقلت إليهم الإمامة ، وقد واجه ابن السوداء علياً بعقيدته هذه فقال له « أنت أنت » أى أنت الإله ، فنفاه علىّ إلى المدائن وأحرق بالنار كثيراً من رجال فرقته « السبأية » ، الذين واجهوه أيضاً بقولهم — كما يحدثنا ابن حزم[1] — « أنت هو » فقال لهم علىّ : « ومن هو ؟ » قالوا « أنت الله » ! فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأُجِّجت وألقى بهم فيها ، فجعلوا يقولون « الآن صح عندنا أنه الله لأنه لا يعذِّب بالنار إلا الله » ! وفى ذلك يقول علىّ :

لما رأيتُ الأمر أمراً مُنكَرا أجَّجتُ ناراً ودعوتُ قُنْبُرا[2]

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد « بيان بن سمعان » — وقيل بنان — التميمى النهدى ، مؤسس فرقة « البيانية » فقد كان له فى هذا المذهب شأن خطير ؛ حدثنا الشهرستانى قال :

« وهو من الغلاة القائلين بإلهية أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، قال : حلّ فى علىّ جزء إلهى واتحد بجسده ، منه كان يعلم الغيب إذا أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار وله النصرة والظفر ، وبه قلع باب خيبر ، وعن هذا قال : (والله ماقلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية)[3] .

بيد أن صاحبنا هذا « بيان » لم يقف عند القول بألوهية علىّ ، بل انساق وراء أضاليل ابن السوداء ، فزعم أن الجزء الإلهى قد انتقل إليه من علىّ بنوع

---

(١) « الفصل » حـ ٤ ص ١٨٦ ، والشهرستانى حـ ٢ ص ١١ ، وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ص ١٤٣ ، ومختصره للرسعنى ص ١٤٢ ، والتبصير فى الدين ص ٧١ ، وانظر كذلك « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة ص ٨٧ .

(٢) قنبر : خادم على ، ونلاحظ هنا أن عقوبة على للسبأية بإحراقهم بالنار على مقالتهم فيه ، لم يسبق لها نظير فى الإسلام .

(٣) أنظر الملل والنحل حـ ١ ص ٤٠٢ على هامش ابن حزم .

من التناسخ ، بعد حلوله فى محمد بن الحنفية ثم فى ابنه أبى هاشم ، فاستحق « بيان » بذلك أن يكون إماماً ، وقد كتب إلى محمد الباقر يدعوه إلى نفسه ، ويقول له : « أسلم تسلم — فإنك لا تدرى حيث يجعل الله النبوة »[١] . ولكن يبدو أن مزاعم « بيان » ومحاولته الزَّج بنفسه فى عداد الأئمة بهذا الطريق الملتوى ، لم تقابل من مشايخ الشيعة إلا بالاستخفاف والازدراء ، مع أنه كان يؤكد إمامته بزعمه أن الله أشار إليه فى القرآن بقوله « هذا بيانٌ للناس »[٢] ، ثم كانت خاتمته على يد خالد بن عبد الله القسرى ، الذى أحرقه بالنار هو والمغيرة بن سعيد العجلى فى يوم واحد عام ١١٩ هـ[٣] ، وقد كان المغيرة أيضاً من الغلاة فى علىّ[٤] ، القائلين بقدرته على إحياء الموتى ؛ قال ابن قتيبة : « قال الأعمش : قلت للمغيرة هل كان علىّ يحيى الموتى ؟ فقال : لو شاء لأحيا عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيرا »[٥] . وفى عام ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م كان أحد خطباء الشيعة ببغداد يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى فيقول : « وعلى أخيه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب مكلّم الجمجمة ، ومحيى الأموات ، البشرىّ الإلهى ، مكلم الفتية أصحاب الكهف » .

وقد وُجد فى العصر الحديث — كما يحدثنا «جولدزيهر» Goldziher[٦] — من يعبد عليًّا بين فلاحى التركمان ، الذين يقطنون مقاطعة « قارص » (أردغان) التى تنازلت عنها تركيا لروسيا بعد الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٧ — ١٨٧٨ م[٧] ،

---

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) أنظر ابن حزم حـ ٤ ص ١٨٥ ، وعيون الأخبار حـ ٢ ص ١٤٨

(٣) أنظر الطبرى حـ ٨ ص ٢٤٠ ومابعدها ط الحسينية .

(٤) الشهرستاني حـ ٢ ص ١٣ على هامش ابن حزم ، وانظر أيضاً ابن حزم حـ ٤

(٥) عيون الأخبار حـ ٢ ص ١٤٩ ط الدار .

(٦) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٣٣٢ .

(٧) هذه المقاطعة هى من أملاك تركيا اليوم ، وتطالب بها فى إصرار روسيا السوفيتية بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد قام العلامة « ديفتسكى » Devitzki بدراسة أحوال هذه الطائفة ومعتقداتها ، وإن كنا — مع الأسف — لم نحظ بالاطلاع على نتائج دراسته .

وقد تبرأ السيد الحميرى ، شاعر الشيعة الكيسانية من هذا الغلوّ فى علىّ فقال :[1]

قومٌ غلَوا فى علىٍّ لا أبا لهمُ   وأجشموا أنفساً فى حبه تعبا
قالوا : هو الله : جل الله خالقنا   من أن يكون ابن شىء أو يكون أبا

وقال شاعر آخر هو إسحق بن سُوَيد العَدَوى[2] :

برئتُ من الخوارج لستُ منهم   من الغزّال منهم وابن باب[3]
ومن قوم إذا ذكروا علياً   يردون السلام على السحاب

و بعد تأليه علىّ ، نرى القول بألوهية الأئمة قد انتشر فى الأوساط الشيعية ، وقالت به منهم طوائف عدة ، حدثنا عنها كثير من مؤرخى الفرق الإسلامية كأبى منصور عبد القاهر البغدادى المتوفى عام ٤٢٩ هـ فى كتابيه « أصول الدين » و « الفرق بين الفرق » ، كما حدثنا عنها الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » ، وابن حزم فى « الفصل » والشهرستانى فى « الملل » ؛ فمن هؤلاء القائلين بحلول الجزء الإلهى فى زعمائهم البشر ، أتباعُ عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، الذى حلّت فيه عندهم الروح الإلهية ، ومن الغلاة من ألّه أصحاب الكساء الخمسة ، محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ، وقالوا : خمستهم شىء واحد ، والروح حالّة فيهم بالسوية لا فضل لواحد على الآخر ، وقد كرهوا أن يقولوا (فاطمة) بالتأنيث فقالوا (فاطم) وفى ذلك يقول شاعرهم[4] :

توليتُ بعد الله فى الدين خمسةً   نبياً وسبطيه وشيخاً وفاطما

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٢ ص ٤٠٥ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) أنظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٧١ نشر العطار ، وانظر أيضاً التبصير فى الدين للأسفراينى ص ٤١ ، والعقد الفريد جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٣) الغزال ، وابن باب : كنيتا واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة الأول .

(٤) أنظر الشهرستانى جـ ٢ ص ١٣ على هامش ابن حزم .

ومن « المغيرية » من قال بألوهية المغيرة بن سعيد مولى خالد بن عبد الله القسرى ، وقد كان المغيرة يقول بها فى علىّ فأحرقه مولاه .

وزعمت « المنصورية » [1] أن أبا منصور العجلى عُرج به إلى السماء ، وأن الله سبحانه مسح بيده على رأسه وقال : « يا بنى بلِّغ عنى » وأنزله بعد ذلك إلى الأرض فهو « الكسف » الساقط من السماء ، وهو المعنىُّ بقوله تعالى : « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطا » إلى آخر الآية ، فقيل لهذه الطائفة « الكِسفية » ، وكانت خاتمة أبى منصور هذا على يد والى الكوفة يوسف بن عمر أيام هشام بن عبد الملك . وهنالك أتباع أبى الخطّاب الأسدى [2] الذين يؤلهون جعفراً الصادق ، والمقنّعُ الخراسانى ، الذى زعم أن روح الإله قد حلت فيه بعد أبى مسلم ، وتابعه فى دعواه هذه أشياع وأنصار [3] ، وغير هؤلاء كثيرون ....!

ولا يسع الباحث إلا أن يتساءل : من أى مصدر استقت الشيعة هذه التعاليم ؟ ومن ذلك الذى جلب بذورها ورمى بها فى تربة الإسلام الشيعى ، فكان لها أسوأ الأثر لدى جمهور أهل السّنة ، والمنصفين من الفرق الإسلامية الأخرى ؟

نحن لا نشك فى أن للنقاش المسيحى حول شخصية « يسوع » ، ولتلك المسيحية المفلسفة التى ناقشت طبيعة « المسيح وعيسى » — لاهوته وناسوته — تلك التى اختط مناهجها « أوريجونس » Origenes (١٨٥ — ٢٥٤ م) ، أقول : كان لذلك دون ريب أكبر الأثر فى القول بحلول الجزء الإلهى فى أئمة الشيعة ، ونحن لا نشك كذلك فى أن ابن السوداء هو الذى نقل هذه النظرية من المسيحية المفلسفة ، وزعمها فى علىّ وذريته ، وقد زجَّ بها — كما عوَّدنا فى كثير من المعتقدات

---

(١) الشهرستانى حـ ٢ ص ١٤ ومابعدها ، وابن حزم حـ ٤ ص ١٨٥ ، وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ص ١٤٩ ، ومختصره ص ١٣٤ .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى حـ ٢ ص ١٦ ، وانظر ابن حزم حـ ٤ ص ١٨٧ والبغدادى فى « الفرق » ص ١٥٠ ، ومختصر الرسعنى ص ١٣٥ .

(٣) أنظر التبصير فى الدين للأسفرايينى ص ٧٦ ومابعدها .

والمذاهب الأجنبية ـ فى البيئة الإسلامية ، لا سيما تلك التى تقدِّس « آل البيت »، فنمت وازدهرت وما زال يترقرق فى أغصانها ماء الحياة حتى العصور الحديثة .

وإنا لنأنس فى هذا الصدد بما يحدثنا به العلامة الشهرستانى إذ يقول :

« وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى ؛ إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق ، والنصارى شبهت الخلق بالخالق ، فسرت هذه الشبهات فى أذهان الشيعة الغلاة ، حتى حكمت بأحكام إلٰهية فى حق بعض الأئمة »[1] .

ويقول ابن خلدون :

« ومنهم طوائف يسمون الغلاة ، تجاوزوا حدَّ العقل والإيمان فى القول بألوهية هؤلاء الأئمة ، إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية ، أو أن الإله حل فى ذاته البشرية ، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى فى عيسى صلوات الله عليه»[2] .

---

(١) أنظر الملل والنحل ح ٢ ص ١٠ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

(٢) أنظر « المقدمة » ص ٩٦ ومابعدها ط بولاق عام ١٢٧٤ هـ .

المهـــدى عند الشيعة

مهدى الشيعة ، إمام من أئمتهم المختفين ؛ له كل ما للإمام الظاهر من خصائص روحية ، ولا بدّ من ظهوره بعد اختفاء ، تؤيده العناية الإلهية ، وليس ظهوره فقط لتخليص العالم وتطهيره من الجور ، ولـكن لينتصر أيضاً لآل البيت الذين ذاقوا صنوف الخسف من مختلف الحاكمين .

وليس هذا المهدى المختفى فى عزلة تامة عن شيعته ، بل يتصل به الصفوة منهم اتصالاً شخصياً مباشراً ؛ روى الشعرانى — فيما حدثنا به « جولدزيهر »[1] Goldziher — عن الصوفى حسن العراقى أنه فى حداثته — وهو مقيم بدمشق — قد أضاف المهدىّ وقراه أسبوعاً كاملاً ، وأخذ عنه أساليب الذكر والزهادة ، وأن الفضل فى طول عمره يرجع إليه . وقد كانت سنّ العراقى عندما روى عنه الشعرانى روايته هذه سبعاً وعشرين ومائة سنة .

وليس حتماً أن يكون الاتصال بالمهدى شخصياً ، بل يجوز أن يكون بطريق التراسل ، وقد قال رواة الشيعة ، إن بعض علمائهم فى التفسير قد راسل المهدى لاستجلاء بعض المسائل الغامضة فى أبواب التشريع الإسلامى الشيعى ، كما يقولون إن علىّ بن بابويه القُمِّى — والد الفقيه المتشيع أبى جعفر محمد المعروف بالصدوق والمتوفى بالرى عام ٣٥١ هـ[2] = ٩٩١ م — قد أرسل طلباً مكتوباً إلى المهدى — وهو هنا مهدى الإمامية الاثنى عشرية محمد بن الحسن العسكرى — مع رجل يدعى على بن جعفر بن الأسود ، يسأله فيه أن يتشفع له عند الله ليرزقه العَقِبَ ويرفع عنه محنة العُقْم ، فتسلّم بعد قليل براءة مكتوبة من المهدى ، بشَّره فيها بولدين كان الفقيه

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٣٤٥ .

(٢) ذكرت « دائرة المعارف الإسلامية » أن تاريخ وفاته الهجرى هو عام ٣٨١ ، راجع هذه المادة فى المجلد الأول من الترجمة العربية للدائرة .

أبو جعفر الصدوق أكبرها ، وكان كثيراً ما يفتخر هذا الفقيه ، بأنه مدين بوجوده لبشرى « صاحب الأمر[1] » .

ولمهدى الشيعة كثير من خصائص الأنبياء السابقين ، قال صاحب الكافي : « قال الصادق : نظرت فى صبيحة هذا اليوم فى كتاب الجفر الذى خصّ الله به محمداً والأئمة من بعده ، وتأملت فيه مولد غائبنا ، وغيبته ، وإبطاءه ، وطول عمره ، وبلوى المؤمنين فى ذلك الزمان وتولّد الشكوك فى قلوبهم ، وارتداد أكثرهم عن دينهم ، وخلعهم ربقة الإسلام من أعناقهم التى قال الله تقدس ذكره : (وكلّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) يعنى الولاية . قلنا يا ابن رسول الله ، كرّمنا وشرّفنا ببعض ما أنت تعرفه من علم ذلك : قال : إن الله جعل فى القائم منّا سنناً من سنن أنبيائه ؛ سنة من نوح : طول العمر ، وسنة من إبراهيم : خفاء الولادة واعتزال الناس ، وسنة من موسى : الخوف والغيبة ، وسنة من عيسى : اختلاف الناس فيه ، وسنة من أيوب : الفرج بعد البلوى ، وسنة من محمد : الخروج بالسيف يهتدى بهداه ويسير بسيرته »[2]

وسيظهر بظهور المهدى ، ذلك التراث الضخم الذى انحدر إلى الأئمة من الإمام الأول علىّ ، والذى ظل عندهم سراً مكتوماً ، والكافي يحدثنا عن شىء من هذا التراث الذى سيزوّد به المهدى ؛ فسيكون معه حجر موسى ؛ به يطعم جيشه ويسقيه ، والجفران — الأكبر والأصغر — ، ومصحف علىّ . ومصحف فاطمة ، والجامعة ، وصحيفتان ؛ إحداهما فيها أسماء شيعته وأنصاره إلى يوم القيامة ، وفى الأخرى أسماء أعدائه كذلك ، وسيكون معه أيضاً درع النبى وسيفه ذو الفقار[3] .

والجفران — كما تقول الشيعة — إهاب ماعز وإهاب كبش ؛ فيهما زبور داود

---

(١) أحد ألقاب مهدى الاثنى عشرية ، محمد بن الحسن العسكرى ، المختفى فى السرداب منذ عشرة قرون ونيف ، وانظر فيما يتعلق بموضوع ابن بابويه القمى كتاب « جولدزيهر Goldziher « العقيدة والشريعة فى الإسلام » الترجمة العربية ص ٣٤٥ .

(٢) أنظر الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة لموسى جار الله ص ٩٩ نشر الخانجى بالقاهرة .

(٣) المصدر السابق ص ٩٧ وما بعدها .

وتوراة موسى وإنجيل عيسى وعلوم الأنبياء والأوصياء . ومن مضى من علماء بنى إسرائيل ، وفيهما عامة الحلال والحرام ، وعلم ما كان وما يكون . وقد أطلقت لفظة « الجفر » على الكتب الخفية الغامضة التى تبحث فى التنبؤات عامة ، وتناوُل هذه الكتب وشرحُها ، هو موضع اهتمام المشتغلين بالسحر والطلاسم ، وكثيراً ما أسهم الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى ، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، بنصيب كبير فى الاشتغال بهذه الكتب .

وقد سخِر ابن قتيبة من تفسير الروافض للقرآن الكريم ، وما يدّعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره هارون بن سعد بن هارون العجلى وقال فيه(١) :

ألم ترَ أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم فى جعفر قال منكرا

فطائفة قالوا : إله ، ومنهمُ ... طوائف سمته النبيَّ المطهرا

فإن كان يَرْضى ما يقولون جعفر ... فإنى إلى ربى أفارق جعفرا

ومن عجب لم أقضه جِلدُ جفرهم ... برئت إلى الرحمن ممن تجفَّرا

وقد سخِر أيضاً شاعر المعرة ، أبو العلاء — الفيلسوف الإسلامى المتشائم — من جفر الشيعة فى قوله(٢) :

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أتاهم علمهم فى مَسْك(٣) جفر

ومرآة المنجم وهى صغرى ... أرته كلّ عامرة وقفر

أما مصحف علىّ ، فهو عندهم القرآن الصحيح الذى نزل به جبريل من السماء ، وهو يختلف عن مصحف السُّنة ؛ روى الكافى عن الصادق أن القرآن الذى نزل به الوحى على محمد سبعة آلاف آية ، والتى بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث

---

(١) عيون الأخبار حـ ٢ ص ١٤٥ ومابعدها ط (الدار) ، وانظر « تأويل مختلف الحديث » ص ٨٥ ، وانظر أيضاً البغدادى « الفرق بين الفرق » ص ١٥٣ ومابعدها .

(٢) اللزوميات حـ ١ ص ٣٩٠ ط المحروسة ١٨٩١ م .

(٣) المسك : الجلد .

وستون آية فقط ، والبواقى مخزونة عند أهل البيت ، فيما جمعه علىّ بن أبى طالب ؛ قال الكلينى : «إنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة ، وأنهم يعلمون علمه كله ، وقد كذب من ادّعى من الناس أنه جمع القرآن كله ، فما جمعه وحفظه كما نزله الله إلا علىّ ابن أبى طالب والأئمة من بعده »[١] . وليس مصحف السنّة ناقصاً فحسب ، بل هو عند غلاة الشيعة مغيَّر مبدَّل ؛ تعمَّد جامعوه حذف الآيات النازلة فى علىّ ووضع أخرى مكانها فى محمد ؛ قال عبد القاهر البغدادى :

« والخلاف الثالث مع الروافض الذين قالوا : لاحجة اليوم فى القياس والسنّة ولافى شىء من القرآن ، لدعواهم وقوع التحريف فيه من الصحابة ، وقد زعموا أن الحجة ، إنما هو قول الإمام الذى ينتظرونه ، وهم قبل ظهوره فى التيه حيارى ، إلى أن يستنقذهم الإمام الذى ينتظرونه ، إذا ظهر ، بزعمهم[٢] » .

وقال ابن حزم : « ومن قول الإمامية كلِّها قديماً وحديثاً أن القرآن مبدَّل ؛ زِيدَ فيه ماليس منه ونقص منه كثير و بُدِّل منه كثير »[٣] . وأما مصحف فاطمة ، فهو قرآن من نوع آخر ، مخزون عند آل البيت ، إلى أن يخرج به المهدى ؛ روى الكلينى :

« قال الصادق : هو مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، والله مافيه من قرآنكم حرف واحد ؛ مكثت فاطمة بعد النبى خمساً وسبعين يوماً ، صُبَّت عليها مصائب من الحزن لا يعلمها إلا الله ، فأرسل الله إليها جبريل يسليها ويعزيها ويحدثها عن أبيها وعما يحدث لذريتها ، وكان علىّ يستمع ويكتب ماسمع ، حتى جاء منه مصحف قدر القرآن ثلاث مرات ، ليس فيه شىء من حلال ومن حرام ، ولكن فيه علم مايكون[٤] » .

و « الجامعة » قالوا : هى صحيفة طولها سبعون ذراعاً ، فيها جميع مايحتاج إليه

---

(١) الكافى حـ ١ ص ١١٠ ، وانظر الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة لموسى جار الله ص ٢٣ ، وانظر أيضاً « التبصير فى الدين » للأسفرايينى ص ٢٤ ومابعدها .
(٢) أنظر « أصول الدين » ص ١٩ ط استانبول ١٩٢٨ م .
(٣) « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » حـ ٤ ص ١٨٢ ط مطبعة التمدن .
(٤) الكافى حـ ١ ص ١١٠ ، وانظر أيضاً « الوشيعة » ص ٩٨ .

الناس وهي من إملاء النبي وخط علي"[1] . . . !

ويهزأ الإسلام السُّنى بكل هذا التراث الموهوم ، ويعده من الشيعة سرَفاً في القول وشططاً بل خلطاً وخبطاً ، ويقطع أهل السنّة بكفر من شك في القرآن ، أو قال بنقصه أو تبديله ، مجمعين على أن مصحف عثمان هو تماماً الذى هبط به جبريل على محمد ، كما ينكرون نزول جبريل من السماء بعد موت الرسول ، ويشكون — محقين — في إسناد مايروى من أمثال هذه الأقوال إلى جعفر الصادق .

وجعفر الصادق هذا الذى ينقل عنه الكافي ـ بخارى الشيعة ـ بكثرة ظاهرة ، وترتفع إليه روايات الشيعة مسندة أو دون إسناد ؛ هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبى بكر ، فهو علوى الأب بكرى الأم ، وفي هذا الصدد يقول الشريف الرضى :

وحزنا عتيقاً وهو غاية فخركم   بمولد بنت القاسم بن محمد

ولقرابته هذه من جده الخليفة الأول أبى بكر ، كان يُنظر إليه دائماً نظرة فيها الكثير من الاحترام والاعتدال ، والصادق سادس الأئمة الاثنى عشرية ، وقد لُقِّب بالصادق لصدقه في القول ، كما لقِّب أبوه محمد بالباقر لتبقره في العلم أى توسعه فيه . وقد وُلد جعفر عام ٨٠ هـ وتوفى في شوال عام ١٤٨ هـ في العام العاشر من حكم الخليفة أبى جعفر المنصور ، ودفن ببقيع الغرقد بالمدينة مع أبيه وجده وعم جده الحسن بن على .

ويحتل الصادق لدى جمهور أهل السنة مكانة محترمة ، لذلك يشكون في كل ما ينسب إليه من أقوال بعيدة عن روح الإسلام السنّى ، الذى يظهر أن الصادق لم يؤخذ عليه في حياته مايتناقض معها أو يبدو غريباً عنها[2] . وقد زعمت

---

(١) « الوشيعة » ص ٩٨ .

(٢) يؤيد ذلك مارواه العلامة الألوسى ، إذ يحدثنا فيقول :

« وأطلق بعض الغلاة من الشيعة القول بالإيحاء إلى الأئمة الأطهار ، وهم رضى الله تعالى عنهم بمعزل عن قبول قول أولئك الأشرار ؛ فقد روى أن سديراً الصيرفى سأل جعفراً الصادق رضى الله تعالى عنه فقال :

« الناوسية »[1] أن جعفراً هذا هو المهدى المنتظر ؛ فقالت بحياته وعدم موته حتى يظهر و يظهر أمره ، ورووا عنه أنه قال : « لو رأيتم رأسى يُدَهْدَه عليكم من الجبل فلا تصدقوا ، فإنى صاحبكم صاحب السيف » .

ونحن لانعلم إلا القليل عن أوصاف الصادق الجسمية ، إلا أنه كان أبيض الوجه والجسم أشم الأنف حالك الشعر ، ولم يُذكر كذلك إلا القليل عن حياته البيتية غير أننا نعلم أنه أعقب أولاداً عشرة ، سبعة ذكور وثلاث بنات من أمهات مختلفات ومن نساء كان يتسراهن . أما فى عالم السياسة فلم يكن له — فيما يظهر — شأن خطير فى ميدانها ، بل كان يمتاز بطابع الزهد فى الدنيا والابتعاد عن ذوى السلطان ، سواء أكان ذلك عن تقية منه أوعن عقيدة ومبدأ ، وقد بدا هذا الطابع السلبى فى موقفه من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ؛ فقد كتب إليه :

« لم لا تغشانا كما تغشانا الناس ؟ فأجابه : ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه ، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنيك بها ، ولا نعدُّها نقمة فنعزيك لها » ، فكتب إليه المنصور : « تصحبنا لتنصحنا » ، فأجابه الصادق بقوله : « من يطلب الدنيا لا ينصحك ، ومن يطلب الآخرة لا يصحبك[2] » .

حكى المسعودى[3] أن أبا سلمة (داعية العباسيين) حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام ، أضمر الرجوع — عما كان إليه من الدعوة العباسية — إلى آل أبى طالب

= « جعلت فداك ، إن شيعتكم اختلفت فيكم فأكثرت ، حتى قال بعضهم : إن الإمام ينكت فى أذنه ، وقال آخرون : يوحى إليه ، وقال آخرون : يقذف فى قلبه ، وقال آخرون : يرى فى منامه . وقال آخرون : إنما يفتى بكتب آبائه ... ! فبأى جوابهم آخذ يجعلنى الله فداك ؟ .

« قال : لاتأخذ بشىء مما يقولون ياسدير ، نحن حجج الله تعالى وأمناؤه على خلقه ؛ حلالنا من كتاب الله تعالى وحرامنا منه » . أنظر تفسير الألوسى جـ ٧ ص ٦٥ ط بولاق .

(١) أنظر الشهرستانى جـ ٢ ص ٣ على هامش ابن حزم ، وانظر أيضاً ابن حزم جـ ٤ ص ١٨٠ ، والفرق بين الفرق ص٣٨ ومابعدها ، ومختصره للرسعنى ص ٥٦ .

(٢) الكشكول لبهاء الدين العاملى جـ ١ ص ١٢٩ ط بولاق .

(٣) أنظر مروج الذهب جـ ٨ ص ٢٨ ومابعدها على هامش ابن الأثير .

فبعث بكتابين مع رسول إلى المدينة ؛ أحدها إلى جعفر (الصادق) ، والآخر إلى عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب فلما وصل الرسول إلى جعفر ، أعلمه أنه رسول أبى سلمة ، ودفع إليه كتابه ليلاً ، فقال جعفر : وما أنا وأبو سلمة ، وأبو سلمة شيعة لغيرى ؟ قال له : إنى رسول فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت ، فدعا جعفر بسراج ، ثم أخذ كتاب أبى سلمة فوضعه على السراج حتى احترق ، وقال : للرسول : عرِّف صاحبك بما رأيتَ ، ثم تمثل بقول الكميت :

أيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ويا حاطباً فى غير حبلك تحطِبُ

ومهما يكن من شىء فلقد كان لموقف الصادق السلبى أثر كبير فى نجاته من اضطهاد بنى أمية وبنى العباس على السواء ، فى عصر كان يموج بالدسائس والفتن ، وقد اكتسب الصادق بسياسته هذه ، رضى الخليفة الصارم أبى جعفر المنصور ، حتى ليحدثنا ابن واضح اليعقوبى فيقول :

« قال إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس : دخلت على أبى جعفر المنصور يوماً وقد اخضلت لحيته بالدموع ، وقال لى : ماعلمتَ مانزل بأهلك ؟ فقلتُ وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : فإن سيدهم وعالمهم و بقية الأخيار منهم توفى ، فقلت : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : جعفر بن محمد ، فقلت : أعظم الله أجر أمير المؤمنين وأطال لنا بقاءه ، فقال لى : إن جعفراً كان ممن قال الله فيه (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وكان ممن اصطفى الله ، وكان من السابقين بالخيرات[1] » .

وقد عُرف الصادق — كأبيه — بعلمه الفياض الغزير ، لاسيما درايته الواسعة بالحديث ؛ قال الشهرستانى :

« وهو ذو علم غزير فى الدين ، وأدب كامل فى الحكمة ، وزهد بالغ فى الدنيا ، وورع تام عن الشهوات ، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ، ويُفيض على الموالين له أسرار العلوم ، ثم دخل العراق وأقام بها مدة ، ما تعرض للإمامة

---

(١) أنظر تاريخ ابن واضح ﺣ ٣ ص ١١٧ ط النجف بالعراق ١٣٥٨ ﻫ .

قط ، ولا نازع أحداً فى الخلافة ، ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط ، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخفْ من حط[١] » .

وقد تتلمذ عليه عالم المدينة الإمام مالك بن أنس ، واستمع إليه عالم العراق أبو حنيفة النعمان . ويقال إنه اشتغل بالتنجيم والكيمياء ، وقد نُسب إليه كتاب « الجفر » ، وذكر ابن خلكان[٢] أن من تلامذته جابر بن حيان الصوفى الطرسوسى ، الذى جمع رسائل أستاذه وهى خمسمائة فى كتاب ، يشتمل على ألف ورقة.

والصادق يشغل — كما قلنا — فى كتب الشيعة مكانا ملحوظاً ؛ فلا يكاد يخلو كتاب من إسناد أقوال وأحاديث وروايات إليه ، « ولم يروَ عن أحد من أهل بيته ما رُوى عنه ، حتى قال الحسن بن على الوشاء — من أصحاب الرضا — : أدركت فى هذا المسجد (يعنى مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ ، كل يقول : حدثنى جعفر بن محمد . . . وذكروا أن الرواة عنه بلغوا نحو أربعة آلاف رجل[٣] » .

ونحن لانشك فى وضع الكثير من تلك الأقوال على لسانه ؛ قال الشهرستانى : « لكن الشيعة بعده افترقوا ، وانتحل كل واحد منهم مذهباً ، وأراد أن يروجه على أصحابه ، فنسبه إليه وربطه به ؛ والسيد برىء من ذلك[٤] ... » .

وقد اختلف فى الصادق رجال الحديث ، فالبخارى أسقط روايته[٥] ، وقال يحيى ابن سعيد « فى نفسى منه شىء » وقال القطان : « مجالد أحبّ إلىّ منه[٦] » ، وقد وثّقه الشافعى ، ويحيى بن معين وابن عدى وغيرهم[٧] ، ويصفه الذهبى بأنه

---

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٢٢٤ و حـ ٢ ص ٢ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

(٢) وفيات الأعيان حـ ١ ص ١٠٥ ط الحلبى ، وانظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد حـ ١ ص ٢٢٠ ط القدسى بالقاهرة .

(٣) أعيان الشيعة لمحسن الأمين العاملى حـ ٤ ص ٦٥٠ ط دمشق .

(٤) الملل والنحل حـ ٢ ص ٢ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

(٥) أنظر تذكرة الحفاظ للذهبى حـ ١ ص ١٥٧ ط حيدر أباد ١٣٣٣ هـ ، وانظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد حـ ١ ص ٢٢٠

(٦) شذرات الذهب حـ ١ ص ٢٢٠

(٧) تذكرة الحفاظ حـ ١ ص ١٥٧ ، وشذرات الذهب حـ ١ ص ٢٢٠ ، وانظر ضحى الإسلام لأحمد أمين حـ ٣ ص ٢٦٥

سيد بنى هاشم[١] ، وقال ابن حبّان : « كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً ، يحتج بحديثه من غير رواية أولاده عنه . . . ، وقد اعتبرت حديث الثقات عنه ، فرأيت أحاديثه مستقيمة ليس فيها شيء يخالف حديث الأثبات ، ومن المحال أن يلصق به ماجناه غيره[٢] . . . » .

أما تلك المؤلفات التى تحمل اسم الصادق فى التنجيم والسحر والـكيمياء ، فنحن لانشك فى أنها قد دُسّت عليه فيما بعد .

ولا بدّ لنا قبل أن نختم هذا الفصل ، أن نعالج مسألة وقت ظهور مهدى الشيعة وخروجه من مخبأه فنقول : لعل من الطبعى أن يميل أنصار هذا المعتقد إلى تحديد اللحظة التى يظهر فيها إمامهم المهدى ، متلهفين قلقين ، مشرئبة أعناقهم واجفة قلوبهم ، كما أوضحنا فى حديثنا عن « الرجعة » . وقد قام بهذه المحاولة بعض من الصوفية والشيعة ، الذين سلـكوا — كما يقول «جولدزيهر» Goldziher [٣] — نفس الطريق الذى سلـكه فقهاء اليهود ، فقد سبق أن قام هؤلاء بحسابات تأويلية فى هذا الصدد ، انتهجها الإسلاميون فأولوا آيات القرآن الـكريم ، وحاولوا جذبها إليهم جذباً عنيفاً ، وتفسيرها تفسيراً متعسفاً ، كما قاموا أيضاً بحسابات وتجميعات للحروف والأعداد ، ليصلوا من ذلك كله إلى تحديد الوقت الذى يظهر فيه إمامهم الخفى . ولم تصادف هذه المحاولة نجاحاً ولا قبولاً فى الإسلام الشيعى بوجه عام ؛ إذ لم يرق هذا الصنيع لدى أقطاب التشيع المعتدل ، فنددوا بهؤلاء « الموقّتين » ووصموهم بالخداع والتدجيل ، وحظروا الاشتغال بمثل هذه المسألة ، محتجين فى ذلك بأقوال وروايات للأئمة ، وهذه الروايات تؤلف فى « الـكافى » فصلاً خاصاً هو « باب كراهية التوقيت[٤] » . وقد ألّف أحد غلاة الشيعة وهو محمد بن حسن القمّى

---

(١) أنظر دول الإسلام للذهبى حـ ١ ص ٧٢ ط حيدر أباد ١٣٦٤هـ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى حـ ٢ ص ١٠٣ ط حيدر أباد .

(٣) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ١٩٣ .

(٤) الـكافى للـكلينى حـ ١ ص ١١٥ وما بعدها .

— المعروف بوضعه للحديث — كتاباً وسمه باسم « وقت خروج القائم[1] » ذهب فيه إلى تحديد الوقت الذى سيظهر فيه المهدى ، ولم يصل هذا الكتاب إلى أيدينا ، حتى نستطيع أن نرى فيه فلسفة « التوقيت » اليهودية ومبلغ نضجها .

ومهما يكن من شىء فلم تصادف هذه الفلسفة لدى الشيعة قبولاً ، من جرّاء ما قوبلت به من معارضة ورفض ، ويدلك على مبلغ رفضها لدى معتدلى الشيعة ، أن كتّاب تراجمهم — كما لاحظ ذلك «جولدزيهر»[2] Goldziher — إذا تحدثوا عن أحد علماء الكلام الشيعى ، قالوا — حطًّا له وتنفيراً منه — « إنه من المبالغين فى الوقت » أى فى تقدير وقت ظهور المهدى .

---

(١) أنظر «جولدزيهر» Goldziher « العقيدة والشريعة فى الإسلام » ص ٣٣٨
(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٣٣٨

الفصل الرابع

فرق الشيعة إزاء هذا المعتقد

لقد ذهب أهل التشيع فى معتقداتهم مذاهب شتى ؛ فتعددت فرقهم وكثرت طوائفهم كثرة بالغة ، بيد أنهم يرجعون فى جملتهم إلى أربع فرق رئيسية : سبأية ، وكيسانية ، وزيدية ، وإمامية ، وسنحاول التحدث عن « المهدية » عند كل فرقة من هذه الفرق .

السبأية :

أسبق فرق الشيعة ظهوراً على مسرح التاريخ الإسلامى ، وإن سبقها متشيعون ، لكن لا بمعنى فرقة ذات عقائد وكيان ؛ بل بمعنى أنصار وأشياع ، وهذا هو المعنى اللغوى للفظ « الشيعة » . وشيعة علىّ أو أنصار علىّ ، هم أولئك الذين التفوا حوله وامتنعوا عن مبايعة أبى بكر ، ساخطين على مؤتمر السقيفة ، الذى أهدر حقوق بنى هاشم ، وتناسى قرابتهم للرسول صاحب الأمر ، فخطَّ بذلك أول سطر فى ظلم « آل البيت » الذى عجّت به صحائفهم الحمراء الدامية من مختلف الحاكمين . وفى هذا الصدد يقول الشاعر المتشيع مهيار الديلمى[1] :

حَمَلُوها يوم « السقيفة » أوزا — راً تَخِفُّ الجبالُ وهى ثقالُ

يالها سوءةً إذا « أحمدٌ » قا — م غــداً بينهم فقال وقالوا

ويقول أيضاً[2] :

وقد جَعل[3] الأمرَ من بعده — لِحَيْــدَرَ[4] بالخبر المُسْنَدِ

---

(١) ديوان مهيار حـ ٣ ص ١٦ ط الدار .

(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٢٩٩

(٣) الضمير يعود على الرسول عليه السلام .

(٤) من ألقاب على بن أبى طالب .

وسمَّاه مولًى بإقرار من   لو اتبـــع الحقَّ لم يَجْحَد
يعزُّ على « هاشمٍ » و « النبى »   تلاعبُ تَيْمٍ بها أو عَدِى[1]

أما « الشيعة » السبأية ، فهم أصحاب ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليمنى ، أحد أحبار اليهود الذين ساءتهم الدعوة الإسلامية ، بعقائدها البسيطة السهلة السمحة ، التى كانت أكبر عامل فى انتشارها وكثرة معتنقيها ، كما ساءهم ظفرها ، إنْ فى ميدان الحجَّة أو السيف ، فقد كانت تخرج دائماً من الميدانين أكثر أنصاراً وأعمَّ ذيوعاً وأشدَّ عوداً وأصلب مكسِراً ؛ فعمد هؤلاء اليهود الحنقون إلى التظاهر بالإسلام ، ثم التشيع لآل البيت — وهم الجانب الذى يبدو مظلوماً لدى الجماهير — فاكتسبوا لذلك رضى العامة وثقتهم ، ونالوا حظاً من العطف والإعجاب ساعدهم على بثٍّ معتقداتهم الهدَّامة وأفكارهم الغريبة ، التى تبعث على الشك أو تحاول العبث بأصول الدين ، بغية هدم المجتمع الإسلامى وتقويض بنائه ، وقد أغرق هؤلاء الأحبار المتمسلمون المغرضون ، السوق الإسلامية ببضاعتهم وإسرائيلياتهم ، التى سرعان مانفقت وراجت وطفحت بها كتب « التفسير » ، واتسع بها ميدان « الحديث » ، واشتغلت بها العقول بين رفض وقبول .

وقد كان عبد الله بن سبأ ، أحد هؤلاء الأحبار ، ورأس كل الفتن والاضطرابات التى حاقت بالمجتمع الإسلامى الأول ، وقد شك بعض الباحثين فى شخصيته ووجوده ، غير أن البحث العلمى حدا بالعلماء أخيراً إلى الاعتراف به كشخص له وجود تاريخى وكيان حقيقى ، وقد ظهر هذا الداعية المتنقل فى خلافة عثمان ، وأخذ يقطع البلاد الإسلامية طولاً وعرضاً ، يحاول بذلك « إضلال المسلمين » على حد تعبير الطبرى[2] . وأصله من صنعاء اليمن ، وقد طوّف بالحجاز ومدينتى البصرة والكوفة بالعراق ، ثم توجه إلى الشام ، واستقر أخيراً فى مصر ، حيث قام فيها بدور رئيسى هام فى المؤامرة الواسعة

---

(١) « تيم » قبيلة أبى بكر ، و « عدى » قبيلة عمر بن الخطاب .
(٢) الطبرى ح ٥ ص ٩٨ ط الحسينية .

النطاق التى حيكت حول عثمان ، عاملاً بذلك على مناصرة علىّ ، الذى كان يظهره دائماً فى صورة المظلوم من الخلفاء السابقين له ، المغتصبين لحقه المنصوص عليه من الله . وقد كان الناقمون فى خلافة عثمان ، يكاتبون صاحبنا هذا سراً ، فيملأ قلوبهم غيظاً وصدورهم حنقاً وعقولهم فساداً ، حتى إذا أثمرت بذور الشر التى بذرها ، وغلى مرجل الأمة الإسلامية ، سار مع الركب الذى توجه من مصر إلى المدينة ، قبل مقتل عثمان محرّضاً على الثورة(١) .

وابن سبأ هو مؤسس فرقة السبأية التى تحمل اسمه ، والتى تعتبر — كما قلنا — أسبق فرق الشيعة وجوداً فى التاريخ . وكما زجَّ هذا اليهودى بنظرية « الجزء الإلهى » فى البيئة الإسلامية ، وبالتالى « ألوهية علىّ »(٢) كذلك زجَّ بعقيدة « المهدى » فكان أول القائلين بها ، وقد زعمها أيضاً فى صاحبه علىّ ، الذى وجد فيه مزرعة لتجار به وحقلاً لعقائده ، مستعيناً فى ذلك بقرابة علىّ من الرسول ومصاهرته له ، وكيد مؤتمر السقيفة به ، وعطف الناس عليه والتفافهم حوله ، وقد بَرِم علىّ رضوان الله عليه بادعاءات ابن السوداء التى زعمها فيه من تأليه ووصاية ومهدية ، وضاق بها وبه ذرعاً ، فهمَّ بقتله — بعد أن أحرق بالنار كثيراً من أتباعه(٣) — فصاح الناس : « يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حكم أهل البيت والبراءة من أعدائك ! ؟ »(٤) . ويدلنا هذا القول على مقدار تمكن ابن السوداء عند الجماهير وحبهم له ، كما يدلنا على تعلقهم بعلىّ وآل بيته ، وقد استجاب علىّ لنداء القوم ،

---

(١) الطبرى صفحة ١٠٤

(٢) أنظر صفحة ٧٦ من كتابنا هذا .

(٣) أنظر كتابنا أيضاً والصفحة نفسها

(٤) قال البغدادى : « وكان ابن السوداء فى الأصل يهودياً من أهل الحيرة ، فأظهر الإسلام وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد فى التوراة أن لكل نبى وصيا ، وأن عليا رضى الله عنه وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء ؛ فلما سمع ذلك منه شيعة على ، قالوا لعلى : إنه من محبيك ، فرفع على قدره وأجلسه تحت درجة منبره » أنظر « الفرق بين الفرق » ص ١٤٤ ، نشر العطار بالقاهرة ، أو مختصره للرسعنى ص ١٤٣

فنفى ابن السوداء إلى ساباط المدائن ، خوفاً من شماتة أهل الشام واختلاف أصحابه عليه كما يقول البغدادى[1] .

وفى المدائن أخذ ابن سبأ يروّج ابضاعته ، وقد التفّ حوله أنصار وأشياع من غُفل القلوب وقُفْل العقول ، ولما بلغه نعى علىّ قال للذى نعاه : « كذبت لو جئتنا بدماغه فى سبعين صُرَّة ، وأقمت على قتله سبعين عدلاً ، لعلمنا أنه لم يمت ولم يُقتل ولا يموت ، حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملك الأرض فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » ، ومن ثَم قال ابن سبأ « برجعة » علىّ كمهدىّ فى آخر الزمان ، كما أسلفنا القول فى حديثنا عن « الرجعة[2] » .

---

(١) يقول البغدادى : « السبأية أتباع عبد الله بن سبأ الذى غلا فى على رضى الله عنه ، وزعم أنه كان نبياً ، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوماً من غواة الكوفة ، ورفع خبرهم إلى على رضى الله عنه ، فأمر بإحراق قوم منهم فى حفرتين ، حتى قال بعض الشعراء فى ذلك :

لترم بى الحوادث حيث شاءت … إذا لم ترم بى فى الحفرتين

ثم إن عليا رضى الله عنه خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فنفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن » .

أنظر « الفرق بين الفرق » ص ١٤٣ ، أو مختصره ص ١٤٢ . وأنظر أيضاً « التبصير فى الدين » للأسفرايينى ص ٧١ وما بعدها .

(٢) انظر كتابنا هذا ص ٣٨ وما بعدها .

الكيسانية

الكيسانية من أهم فرق الشيعة فيما نحن بسبيل درسه من عقيدة المهدية ، وهى منسوبة إلى « كيسان » قال الشهرستانى : هو « مولى أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وقيل تلميذ للسيد محمد بن الحنفية[1] » ، أما مؤسس الفرقة وزعيمها ، فهو المختار بن أبى عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى ، المولود فى السنة الأولى من الهجرة ، وأحد دهاة الساسة فى العصر الأموى ، وقد لُقّب المختار بكيسان ، لأنه تلقى العلم عن « كيسان » مولى علىّ ، الذى يقال إنه هو الذى حمله على الطلب بدم الحسين وعرَّفه بقتلته ، أو لأن صاحب شرطته الفتَّاك المكنى أبا عمرة اسمه « كيسان » ، أو لأن المختار نفسه — كما يقول البغدادى[2] — كان يلقب أصالة « بكيسان » .

والمختار من إحدى بيوت ثقيف العريقة فى المجد ، فهو حفيد عظيم إحدى القريتين مسعود بن عمرو الثقفى ، وقد كان له فى العصر الأموى تاريخ يدل على دهاء سياسى كبير ، و إن لم يكن مشرِّفاً من الناحية الأخلاقية ؛ إذ لم يعرف الإخلاص سبيلاً قط إلى قلبه ، فهو خير نموذج للأمير المكيافللى ؛ كان خارجياً ، ثم ثار فى وجه بنى أمية مشايعاً لابن الزبير ، ثم تشيع لآل البيت خالعاً طاعة ابن الزبير ، ثم انفلت من تشيعه وهو فى أوج عظمته وحارب الشيعة ، ثم خرج من الإسلام عامة وادَّعى النبوة . و إلى القارئ نسوق شيئاً من قرآنه الذى أوحى إليه ، يقول :

« أما والذى أنزل القرآن ، و بيَّنَ الفرقان ، وشرع الأديان ، وكره العصيان ، لأقتلن البغاة ، من أزد عمان ، ومذحج وهمْدان ، ونهد وخولان ، و بكر وهزَّان ، وثُعل ونبهان ، وعبس وذبيان ، وقيس وعيلان — وحقِّ السميع العليم ، العلى العظيم ، العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم ، لأعركنَّ عرْكَ الأديم ، أشراف بنى تميم . . . » !

---

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ١٩٦ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

(٢) أنظر « الفرق بين الفرق » ص ٢٦ نشر العطار بالقاهرة .

ويقول : « أما وممشى السحاب ، الشديد العقاب ، السريع الحساب ، العزيز الوهاب ، القدير الغلاّب ، لأنبشنَّ قبر ابن شهاب[١] ، المفترى الكذاب ، المجرم المرتاب . ثم وربِّ العالمين ، ورب البلد الأمين ، لأقتلن الشاعر المهين ، وراجزَ المارقين ، وأولياء الكافرين ، وأعوان الظالمين ، وإخوان الشياطين ، الذين اجتمعوا على الأباطيل ، وتقوّلوا عليّ الأقاويل ، وليس خطابى إلا لذوى الأخلاق الحميدة ، والأفعال السديدة ، والآراء العتيدة ، والنفوس السعيدة[٢] . . . » !! الخ

وأكبر الظن أن النبوة هى الأخرى — بعد نجاحه السياسى المنقطع النظير — لم تشبع طموحه فانسلخ منها وادّعى الألوهية . . . !!

ولا بدّ لنا من التحدث بإفاضة عن فرقة « الكيسانية » هذه بوجه خاص ؛ فتاريخها — بحق — يُعد نموذجاً رائعاً للاتجار بعقيدة « المهدى » واستغلالها فى المآرب السياسية .

ثار المختار فى وجه بنى أمية مع مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، وكاد يصيبه ما أصاب مسلماً والحسين ، على يد عبيد الله بن زياد — الذى ضربه على حاجبه فشتره أو شجَّه ، فسُمِّيَ الأشتر — لولا شفاعة بعض القوم ، فخلَّى عبيد الله سبيله وأمره بمغادرة الكوفة فى ثلاثة أيام وإلا قتله ، فخرج منها صاحبنا خائفاً يترقب ميمماً شطر الحجاز ، حيث بايع فى مكة عبد الله بن الزبير الذى كان خارجاً على بنى أمية ، وفى الوقت نفسه كان يضمر الشر للعلويين لامتناعهم عن مبايعته ، وقد بدأ ينظم بطشه بهم عندما انتهت إليه ولاية الحجاز والعراق واليمن وفارس ، وكاد يقضى عليهم ، لولا أن سارع بالقضاء عليه الحجّاجُ بن يوسف الثقفى من قِبَل بنى أمية .

وكان يقيم بمكة بجوار ابن الزبير ، أحدُ ولد علىّ بن أبى طالب من غير فاطمة ، هو محمد بن علىّ المعروف بابن الحنفية ، أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بنى حنيفة ، وقيل هى سندية سوداء ليست من بنى حنيفة وإنما هى أمة لهم ، وقيل كانت من سبى .

---

(١) يقصد الإمام المشهور محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى .

(٢) أنظر « الفرق بين الفرق » للبغدادى ص ٣١ ومابعدها ، ولمختصر للرسعنى ص ٤٥ ومابعدها ، وانظر أيضاً الكامل للمبرد ج ٧ ص ٢٠٦ نشر المرصفى .

اليمامة وصارت إلى عليّ فأولدها محمداً هذا الملقب بأبي القاسم ، والذى يُعد من الطبقة الأولى من التابعين من أهل المدينة . وقد جاءته الإمامة من أبيه عليّ مباشرة ، حينما دفع إليه الراية يوم « الجمل » قائلاً له :

اطعنهم طعن أبيك تُحمــــدِ   لا خير فى حرب إذا لم توقدِ[1]
بالمشرفيِّ والقنـا المشرَّدِ

أو أن الإمامة قد انتقلت من عليّ إلى الحسن ثم إلى الحسين ، الذى أوصى بها إلى أخيه محمد هذا .

حاول ابن الزبير — جاهداً — أن يجذب إلى صفِّه كلاًّ من محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس ، ليشدَّ بهما و ببنى هاشم أزره ، ولـكن عبثاً حاول ، فقد رفضا مبايعته ، وعندئذ أخذ ابن الزبير يضطهد آل عليّ ، و يعد عدّته للقضاء على ابن الحنفية ، وهنا وجد المختار الفرصة سانحة لتحقيق أغراضه ومطامعه ، فاعتزم الهرب إلى الـكوفة متشحاً بوشاح التشيع ، وأنفذ مالاً كثيراً إلى عليّ بن الحسين بن عليّ ، وكتب إليه يريد مبايعته والقول بإمامته ، ولـكن عليًّا — كما يقص علينا المسعودى[2] — رفض طلبته ، وأبى أن يقبل هديته أو يجيبه عن كتابه ، بل سبّه على رءوس الملأ فى مسجد النبى وأظهر كذبه وفجوره ولما يئس منه المختار كتب إلى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك ؛ فشاور ابنُ الحنفية ابنَ أخيه عليَّ بن الحسين فى الأمر ، فأشار عليه ألاَّ يجيبه إلى شىء من ذلك ، وأن يُشهر أمره ويُظهر كذبه ، غير أن ابنَ الحنفية رأى أن يستشير فى الأمر ابن عباس أيضاً ، فقال له ابن عباس : « لا تفعل فإنك لا تدرى ما أنت عليه من ابن الزبير » قال المسعودى : « فأطاع (ابنُ الحنفية) ابن عباس وسكت عن عيب المختار »[3] .

---

(١) أنظر « التبصير فى الدين » للأسفراينى ص ١٨ ، وعند البغدادى فى «الفرق» ص ٢٦ والرسعنى فى « المختصر » ص ٣٦

لا خير فى الحرب إذا لم تزبد

(٢) أنظر مروج الذهب حـ ٦ ص ١٥٥ على هامش ابن الأثير .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٦

وكهذا قبل ابن الحنفية ما عرض عليه المختار من الدعوة إليه و إظهار إمامته ، كما يتضح من رواية « مروج الذهب » وتم التعاقد بينهما ، فجاءه المختار وقال له : — كما يحدثنا البلاذرى فى كتابه « أنساب الأشراف » — « إنى على الشخوص للطلب بدمائكم والانتصار لكم ، فسكت ابن الحنفية ، ولم يأمره ولم ينهه ، فقال المختار : سكوته عنى إذنٌ لى وودّعه ، فقال له ابن الحنفية : عليك بتقوى الله مااستطعت » .

ومن روايتى المسعودى والبلاذرى هاتين ، نكاد لا نشك فى أن معاهدة خطيرة قد عقدت بين المختار وابن الحنفية ضدّ ابن الزبير و بنى أمية جميعاً ؛ على أن تكون مساعدة المختار حربية سياسية ، ومساعدة ابن الحنفية روحية دينية ، يُلهب بها المختار الداهية ظهور الجماهير ، فتنساق وراءه عن طواعية ، يؤيد ذلك تأييداً قاطعاً ما رواه ابن سعد كاتب الواقدى فى « الطبقات » قال : « قال المختار لابن الحنفية : أنا خارج إلى العراق ، فقال له محمد : فاخرج وهذا عبد الله ابن كامل الهمْدانى يخرج معك »[1] .

لم يجد المختار بدًّا بعد هذا من الاحتيال على ابن الزبير ، حتى يأذن له بالرحيل إلى العراق ، خوفاً من أن يقطع عليه تدبيره ، فتوجه إليه وقال له — كما يحدثنا ابن سعد — « أعلمُ أن مكانى من العراق أنفعُ لك من مقامى هاهنا ، فأذِن له عبد الله ابن الزبير ، فخرج هو وابن كامل ، وابن الزبير لا يشك فى مناصحته ، وهو مُصِرٌّ على الغش لابن الزبير ، فخرجا حتى لقيا لاقياً بالعُزَيب ، فقال المختار : أخبرنا عن الناس فقال : تركت الناس كالسفينة تجول لا ملاّح لها ، فقال المختار : فأنا ملاّحها الذى يقيمها »[2] .

دخل المختار الكوفة ودعا شيعتها إلى جديد بعض الشىء ، هو مهدية ابن الحنفية الذى أكد المختار أنه استخلفه لأخذ البيعة له ، ولما اجتمعت حوله الشيعة ،

---

(١) أنظر الطبقات حـ ٥ ص ٧١ ط ليدن .

(٢) أنظر الطبقات حـ ٥ ص ٧١

خطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد فإن المهدى ابن الوصى محمد بن على ، بعثنى إليكم أميناً ووزيراً ، ومنتخباً وأميراً ، وأمرنى بقتال الملحدين ، والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء[1] » .

فبدا على شيعة الكوفة شىء كبير من التردد إزاء هذا الحدث ، ولعلهم كانوا يعلمون شيئاً من تاريخ المختار وعدم صدقه فى دعوة يدّعيها ، أو عقيدة يعتقدها أو مبدأ يدين به ؛ فأرسلت وفداً من أعيانها إلى ابن الحنفية ليستأذنوه فى متابعة المختار ، فقال ابن الحنفية للوفد : « وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه[2] » .

ولا ندرى لماذا لجأ ابن الحنفية إلى مثل هذا الأسلوب ، بدلاً من أن يواجه الناس بالصريح من القول ؟ وهو بنفسه الذى تعاهد مع المختار وأذن له بالرحيل إلى العراق ، كما اتضح من رواية ابن سعد ، وأكبر الظن أنه فعل ذلك متستراً ، خوفاً على حياته من ابن الزبير الذى كان له بالمرصاد .

ومهما يكن من شىء فقد اعتبر الوفد الكوفى إجابة ابن الحنفية الملتوية إجازة لهم بمشايعة المختار[3] ، فعادوا إلى الكوفة يشدون من أزره ، ولم يدع المختار ـ وهو السياسى المحنك ـ هذه السانحة الفريدة تفلت من يده ، فخطب الناس قائلاً :

« يا معشر الشيعة إن نفراً منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئتُ به ، فرحلوا إلى إمام المهدى والنجيب المرتضى ، ابن خير من جلس ومشى ، حاشا النبى المجتبى ، فسألوه عما قدمتُ به عليكم ، فأنبأهم أنى وزيره وظهيره ورسوله[4] » ، فقام عند ذاك أحد الموفدين وهو عبد الرحمن بن شريح ، من مشاهير شيعة الكوفة وقال :

« أما بعد يا معشر الشيعة فإنا قد كنّا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع

---

(١) الطبرى حـ ٧ ص ٦٤ ط الحسينية .

(٢) الطبرى حـ ٧ ص ٩٧

(٣) فى الطبرى : « نخرجنا من عنده ، ونحن نقول قد أذن لنا ، قد قال : لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، ولو كره لقال : لاتفعلوا » طبرى جـ ٧ ص ٩٧

(٤) المصدر السابق .

إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدى ابن على ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرته وموازرته وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا ، منشرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك والغل والريب ، واستقامت لنا بصيرتنا فى قتال عدوّنا ، فليبلّغ ذلك شاهدُكم غائبكم » [١] .

ولقد كان من الطبعى بعد هذا أن يلتف [٢] الشيعة حول المختار ، الذى أعمل الحيلة حتى وثب وثبته الجريئة ، فاستولى على الكوفة ونواحيها ، وقضى على عبيد الله ابن زياد ، ثم ساعده طالعه الحسن ، فخضعت له الجزيرة واستقب له الأمر بعض الشىء . وهنا عرف ابن الزبير ما بين المختار وابن الحنفية من مؤامرة واسعة النطاق للقضاء عليه ، وكان ابن الحنفية لا يزال مقيماً بجواره فى مكة — دفعاً للظنة وبعداً

(١) الطبرى حـ ٧ ص ٩٧ ، وانظر اليعقوبى حـ ٣ ص ٥ ط النجف ، وابن الأثير حـ ٤ ص ٨٣ ط الحلبى .

(٢) ومن الشيعة من لم يقتنع بمزاعم المختار فى ابن الحنفية ؛ ولكنه خرج معه ليثأر من قتلة الحسين ، فالطبرى يحدثنا : أن المختار توجه إلى دار ابراهيم بن الأشتر وقال له :

« أما بعد ، فإن هذا كتاب إليك من المهدى محمد بن أمير المؤمنين الوصى ، وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله . وهو يسألك أن تنصرنا وتوازرنا » ، فقرأ ابن الأشتر الكتاب فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدى إلى ابراهيم بن مالك الأشتر ؛ سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنى قد بعثت إليكم بوزيرى وأمينى ونجيى الذى ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى والطلب بدماء أهل بيتى ، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرتنى وأجبت دعوتى وساعدت وزيرى كانت لك عندى بذلك فضيلة . . . الخ » .

فعجب ابن الأشتر من هذا الخطاب ، وأبدى ارتيابه فيما حواه من مهدية ابن الحنفية ، وقال للمختار متسائلا شاكاً : « قد كتب إلىّ ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلىّ إلا باسمه واسم أبيه ؟ قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال ابراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ » وتتجلى هنا عدم الثقة فى المختار واضحة ظاهرة ، ولكن المختار يستشهد بجماعة من أنصاره ، فيشهدون أن الخطاب هو حقا من ابن الحنفية ، وعند ذلك يبايع ابن الأشتر ، ثم يقول لبعض خاصته : « أفترى هؤلاء شهدوا على حق ؟ قال قلت له : قد شهدوا على ما رأيت ، وهم سادة القراء ، ومشيخة المصر وفرسان العرب ، ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً ، قال : فقلت له هذه المقالة وأنا والله لهم على شهادتهم متهم ، غير أنى يعجبنى الخروج ، وأنا أرى رأى القوم وأحب تمام ذلك الأمر ، فلم أطلعه على ما فى نفسى من ذلك » أنظر الطبرى حـ ٧ ص ٩٨ وما بعدها . وانظر أيضاً فيما يتعلق بهذا الخطاب المزعوم ، الدينورى « الأخبار الطوال » ص ٢٨٣ ط السعادة ، والبداية والنهاية لابن كثير حـ ٨ ص ٢٦٥ وما بعدها .

للتهمة فى أكبر الظن ـ فأسرع فى القبض عليه ، وحبسه فى سجن يدعى « عارماً » [١] وحنق على آل علىّ و بنى هاشم جميعاً ، حتى ترك الصلاة على النبى من أجلهم ؛ قال اليعقوبى :

« وتحامل عبد الله بن الزبير على بنى هاشم تحاملاً شديداً ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء ، حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد (ص) فى خطبته ، فقيل له : لم تركت الصلاة على النبى ؟ فقال إن له أهل سوء ، يشرئبون لذكره ويرفعون رءوسهم إذا سمعوا به ، وأخذ ابن الزبير محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلاً من بنى هاشم ، ليبايعوا له فامتنعوا ، فحبسهم فى حجرة زمزم ، وحلف بالله الذى لا إله إلا هو ليبايعُن أو ليحرقنهم بالنار ... » [٢] .

رأى ابن الحنفية أن ابن الزبير جادٌّ فى تهديده وقسمه ، فاستغاث بصاحبه المختار واستصرخه فى كتاب رواه لنا اليعقوبى قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن علىّ ومن قِبله من آل رسول الله ، إلى المختار بن أبى عبيد ومن قِبله من المسلمين . أما بعد ؛ فإن ابن الزبير أخذنا فحبسنا فى حجرة زمزم ، وحلف بالله الذى لا إله إلا هو لنبايعنّه أو ليضرمنّها علينا بالنار ، فياغوثاه ... » [٣] .

وأكبر الظن أن ابن الزبير قد علم بهذه المكاتبة فأخذته حمى الغضب ، وكاد يودى بحياة زعماء بنى هاشم وأعيانهم ، لولا أن استغاثة ابن الحنفية كانت قد وصلت إلى المختار ، الذى أسرع فأرسل إليهم أبا عبد الله الجدلى ، فأنقذهم من موت محقق ؛ إذ وافاهم والنار ـ كما يحدثنا الأغانى ـ مشتعلة عليهم ، فأطفأها واستنقذهم ... [٤] .

---

(١) أنظر الأغانى حـ ٩ ص ١٥ ط الدار ، وانظر كذلك الكامل للمبرد حـ ٧ ص ٢٠٧ نشر المرصفى .

(٢) تاريخ ابن واضح اليعقوبى حـ ٣ ص ٨ ، وانظر الطبرى حـ ٧ ص ١٣٦ ، وابن الأثير حـ ٤ ص ٩٧ .

(٣) اليعقوبى حـ ٣ ص ٨ .

(٤) قال أبو الفرج : « كان عبد الله بن الزبير قد أغرى ببنى هاشم ، يتبعهم بكل مكروه ويغرى بهم ويخطب بهم على المنابر ويصرح ويعرض بذكرهم ، فربما عارضه ابن عباس وغيره منهم ، =

ضاق ابن الزبير بعد ذلك ببنى هاشم وأخفق فى القضاء عليهم ، فأخرجهم من مكة إخراجاً قبيحاً ـ على حد تعبير ابن واضح[١] ـ فنفى ابن الحنفية إلى ناحية رضوى ، وابن عباس إلى الطائف . بيد أن ابن الحنفية ارتأى أن يتجه إلى المختار بالعراق ، ليقاسمه الظفر بعد أن تاجر باسمه وحارب بنفوذه الروحى ، فأخذ طريقه إليه . ويظهر أن صاحبنا هذا كان ساذجاً إلى أبعد حدود السذاجة فى ركونه إلى المختار ؛ فما كان المختار ـ وهو فى أوج سلطانه ـ ليقبل جيرة ابن الحنفية ، خوفاً من التفاف الجماهير حوله ، ثم ضياع ملكه ونفوذه ، ولما علم بمقدمه قال لجنده : « إن للمهدى علامة ، وهى أن يضرب بالسيف ضربة ، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدى ...! »[٢] وبهذه الحيلة التى احتالها تغلب المختار بمكره ودهائه على بساطة ابن الحنفية ، وتخلص منه نهائياً ، إذ ما كاد يعلم هذا بالنبأ ، حتى قفل راجعاً خوفاً على حياته ، فى حسرة وندم ولات ساعة مندم .

وفى الحق لقد كان ابن الحنفية كأبيه علىّ ، تنقصه الحنكة السياسية نقصاً كبيراً ، وقد وجد هو أخيراً بعد هذا الإخفاق والخيبة أنه ليس أهلاً للصراع السياسى ، فركن إلى عبد الملك بن مروان وبايعه وألقى عصاه . وتحاول الكيسانية أن تجد فى التجاء ابن الحنفية إلى عبد الملك ذنباً كبيراً قد اقترفه وجناه ، مرتئية أن الله قد عاقبه عليه بحبسه بجبل رضوى حيًّا كما سنحدثك بعد . وقد مات ابن الحنفية فى المحرم

= ثم بدا له فيهم لحبس ابن الحنفية فى سجن عارم ، ثم جمعه وسائر من كان بحضرته من بنى هاشم ، فجعلهم فى محبس وملأه حطباً وأضرم فيه النار ، وقد كان بلغه أن أبا عبد الله الجدلى وسائر شيعة ابن الحنفية ، قد وافوا لنصرته ومحاربة ابن الزبير ، فكان ذلك سبب إيقاعه به ، وبلغ أبا عبد الله الخبر ، فوافى ساعة أضرمت النار عليهم فأطفأها واستنقذهم ... » . الأغانى ج ٩ ص ١٥ ط الدار .

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٩ ط النجف .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣١ ، ومختصره للرسعنى ص ٤٥ ، وفى « التبصير فى الدين » للأسفرايينى ص ١٩ يقول المختار : « المهدى محمد بن الحنفية وأنا على ولايته ، غير أن المهدى علامة ، وهى أن يضرب عليه بالسيف فلا يحيك فيه السيف ، وأنا أجرب هذا السيف على محمد بن الحنفية ، فإن حاك فيه فليس بمهدى ، فلما بلغ إلى محمد بن الحنفية هذا الخبر ، خاف أن يقتله بما ذكرناه من حيلته ، فتوقف حيث كان » .

عام ٨١ هـ وصلّى عليه أبان بن عثمان والى المدينة ودفن بالبقيع ، بعد نفوذ روحى كبير لم يحسن استغلاله لضعفه السياسى .

ولقد خلف ابن الحنفية أولاداً كثيرين من أمهات شتى ؛ قال ابن كثير : « وقد توفى ابن الحنفية فى الحرم بالمدينة وعمره خمس وستون سنة وكان له من الولد : عبد الله ، وحمزة ، وعلى ، وجعفر الأكبر ، والحسن ، وابراهيم ، والقاسم ، وعبد الرحمن ، وجعفر الأصغر ، وعون ، ورقية ، وكلهم لأمهات شتى »[1] .

وتقول الشيعة إن النبى عليه السلام كان قد بشّر به أباه علياً قبل مولده ، وسماه باسمه وكنيته « محمد أبى القاسم[2] » ؛ قال « جولد زيهر » Goldziher :

« وكان من هذا أن أصبح ابن الحنفية فيما بعد موضع العقيدة الشيعية الخاصة بالخلود الجثمانى والرجعة ، وهما صفتا من يختاره الله لهداية البشر ويُعرف بالمهدى — كما كان معقد رجاء وإيمان الأتقياء ، وموضع ثناء الشعراء المتصلين به »[3] .

وأكبر الظن أن ابن الحنفية لم يكن زاهداً فى الدنيا ، أو بعيداً عن ملذاتها وترفها ، كما تحاول أن تصوره بذلك المصادر الشيعية ؛ فابن خلكان يقول : « وكان محمد يخضب بالحناء والكتم وكان يتختم فى اليسار »[4] ، ويحدثنا ابن سعد فى طبقاته فيقول : « عن عبد الواحد بن أيمن ، قال : أرسلنى أبى إلى محمد بن الحنفية فدخلت عليه ، وهو مكحّل العينين مصبوغ اللحية بحمرة ، فرجعت إلى أبى فقلت : أرسلتنى إلى شيخ مخنَّث ! فقال : ياابن اللخناء ، ذاك محمد بن على ... »[5] ، ويقول صاحب الطبقات أيضا : « روى أبو إدريس : رأيت ابن الحنفية يخضب بالحناء والكتم ، فقلت له : أكان علىّ يخضب ؟ قال لا ، قلت فما لك ؟ قال أتشبب به

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٩
(٢) أنظر ابن خلكان جـ ١ ص ٤٤٩ ط الحلبى .
(٣) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ١٢٩
(٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٥٠ ط الحلبى .
(٥) أنظر طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٨٥ ط ليدن .

للنساء ...»!![1] وقد نقل العلامة « جولد زيهر » Goldziher هذه الرواية الأخيرة لابن سعد وأوردها فى كتابه القيم « العقيدة والشريعة فى الإسلام » ، وعقّب عليها بقوله : « وفى الحق إذا نظرنا لأخلاق هذا المهدى على ضوء الحقائق التاريخية ، نرى أنه كان فى الواقع — كما هو الظاهر — رجلاً ذا عقلية دنيوية ، وأنه لم يكن قط بعيداً عن لذائذ الدنيا ومتعها ، ومع ذلك فقد كان يمثل المصالح الدينية المقدسة ، فى سبيل السنن والتقاليد الإسلامية ، ولم يشعر أحد بأدنى تناقض بين إمامة ابن الحنفية و بين اعترافه السابق ، الذى يعسر انسجامه مع إمامته ، والذى ربما وُضع على لسانه قصد الدعابة »[2] .

أما صاحبنا الداهية المختار بن أبى عبيد ، فقد لحقته منيته قبل وفاة ابن الحنفية ، إذ قتله طارف وطريف ابنا عبد الله بن دجاجة من بنى حنيفة عام ٦٧ هـ ، فى معركة بينه و بين مصعب بن الزبير ، بعد أن ادّعى النبوة ثم الألوهية وابتدع القول بالبداء ، و بعد أن أسس فرقة « الكيسانية » ، التى دانت بمهدية ابن الحنفية ، وهو الثانى فى القائمة بعد أبيه علىّ .

وفى مصرع المختار يقول أعشى همدان[3] :

لقد نُبِّئتُ والأنباء تنمى ... بما لاقى الكواذب بالمَذار[4]
وما إنْ سرّنى إهلاك قومى ... وإن كانوا وحقِّك فى خسار
ولكنى سررت بما يلاقى ... أبو إسحاق[5] من خزيٍ وعار

ولا نشك أن ابن الحنفية ، الذى روى عن أبيه الحديث القائل : « المهدى منّا

---

(١) طبقات ابن سعد حـ ٥ ص ٨٥ ط ليدن
(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ١٢٩
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤ ومختصره للرسعنى ص ٤٩ ، وانظر الطبرى حـ ٧ ص ١٤٩ ط الحسينية .
(٤) ناحية قرب الكوفة ، ذكرها ابن حوقل والمقدسى .
(٥) كنية المختار .

أهل البيت يصلحه الله فى ليلة » ، كان يرى نفسه ذلك المهدى ، الذى اختلق له ذلك الحديث أو اختلقه المختلقون ، وأنه كان فخوراً بلقب « المهدى » هذا راضياً عنه كل الرضى ، وإن تردد « مرجليوث » Margoliouth فى ذلك إذ يقول : « لا ندرى إذا كان ابن الحنفية قد رضى بهذا اللقب (المهدى) الذى خلعه عليه المختار أم لا[1] ؟ » . ولا ندرى نحن كيف غابت عن Margoliouth نصوص ابن سعد القاطعة فى هذا الصدد ؛ ففى الطبقات : « قلت السلام عليك يامهدى ، قال وعليك السلام[2] » ، وفيها : «عن أبى حمزة قال : كانوا يسلمون على محمد بن علىّ، سلام عليك يا مهدى ، فقال : أجل أنا مهدى أهدى إلى الرشد والخير ، اسمى اسم نبى الله وكنيتى كنية نبى الله[3] ؛ فإذا سلّم أحدكم فليقل سلام عليك يامحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم[4] » .

ولقد كان لزاماً على ابن الحنفية أن يقبل هذا اللقب ويرضى به ، بل ويفترض أنه المهدى حقاً — جارياً وراء مزاعم المختار — ولو فى شىء من التستر والتكتم ، لينتقم من قتلة الحسين ، وليديل من دولة بنى أمية وابن الزبير جميعاً ، جزاء وفاقاً لما أذاقوه لآل البيت من صنوف الخسف والعدوان ، بيد أن ضعفه السياسى ومكر المختار به ، لم يتيحا له من تحقيق هذه المآرب ، إلا القضاء على قتلة الحسين .

وبعد موت ابن الحنفية ، اختلفت « الكيسانية » ، فاعترف بعضهم بموته ، وساق الإمامة من بعده إلى ولده أبى هاشم ، (ومنهم من أرجعها إلى ابن أخيه علىّ ابن الحسين) ، ولم يؤمن البعض الآخر بموته وهم « الكربية » أصحاب أبى كرب الضرير ؛ فهو عندهم مقيم بجبل رضوى ومعه أربعون من أصحابه ، وهى حى يُرزق ؛ عنده عينان من عسل وماء ، وعن يمينه أسد وعن يساره نمر ، يحفظانه من أعدائه

(١) أنظر مقال «مرجليوث» Margoliouth عن المهدية بدائرة معارف الدين والأخلاق .
(٢) أنظر طبقات ابن سعد حـ ٥ ص ٦٩ ط ليدن .
(٣) يشير بذلك إلى الحديث الوارد فى هذا الصدد والذى يقول : « يواطىء اسمه اسمى ، وكنيته كنيتى » .
(٤) أنظر الطبقات حـ ٥ ص ٦٨

إلى وقت خروجه ، وتنزل عليه الملائكة فتراجعه الكلام ، وتؤنسه هو وأصحابه .
وقد اختلفوا فى سبب حبسه بجبل رضوى ، فمنهم من قال : « كان ذلك عقاباً له على خروجه بعد قتل الحسين إلى يزيد بن معاوية ، وطلب الأمان منه ، وقبوله العطاء من قِبَله » ، ومنهم من قال :

« كان ذلك عقوبة له ؛ لركونه إلى عبد الملك بن مروان ومبايعته له » ، وقال آخرون : « لا ندرى سبب حبسه ، ولله فى ذلك سرٌّ لا نعلمه[1] » .

ولقد شغلت « مهدية » ابن الحنفية صفحات رائعة من شعر الشيعة ، سنحدثك عنها فى الفصل الخاص بذلك من كتابنا .

(١) أنظر البغدادى فى « الفرق » ص ٣٤ ، والرسعنى فى « المختصر » ص ٥٠ ، والأسفراينى فى « التبصير فى الدين » ص ٢٠ .

الزيدية

الفرقة الرئيسية الثالثة من فرق الشيعة هي « الزيدية » ، نسبة إلى زيد بن عليّ ابن الحسين بن عليّ ، وقد ثار بالكوفة داعياً لنفسه عام ١٢٢ هـ — ٧٤٠ م ، بيد أن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، أخمد فتنته وقضى عليه ؛ إذ أرسل إليه والى العراق ، يوسفُ بن عمر الثقفى — من قِبله — جيشاً بقيادة « العباس المرّى » فأدار الدائرة على « زيد » ، وصُلب بكناسة الكوفة ؛ قال الطبرى :

« وبُعث برأسه إلى هشام ، فأمر به فنصب على باب مدينة دمشق ، ثم أرسل به إلى المدينة ، ومكث البدن مصلوباً حتى مات هشام ، ثم أمر به الوليد فأُنزل وأُحرق »[1] .

ويقول الكندي فى كتابه « أمراء مصر » :

« إن أبا الحكم بن أبى الأبيض القيسى ، قدم إلى مصر برأس زيد بن عليّ يوم الأحد ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٢٢ ، واجتمع الناس إليه فى المسجد ، وهو صاحب المشهد الذى بين مصر وبركة قارون ، بالقرب من جامع ابن طولون ، يقال إن رأسه مدفون به » . وقد رجّح القلقشندى هذه الرواية ونقل عن « خطط القاهرة » للقاضى محيي الدين ابن عبد الظاهر قوله بأن رأسه « مدفون بالمشهد الذى بين كيمان مصر ، جنوبى الجامع الطولونى المعروف بمشهد الرأس »[2] . ولما صلب زيد كان الناس يأتون إلى خشبته فيتعبدون تحتها .

والحق أن زيداً — كما كان يتمتع بنفوذ روحى لدى أتباعه — كان يحظى أيضاً بمكانة ممتازة لدى جمهور أهل السنّة ، وذلك لاعتداله فى مذهبه فى الإمامة ، وعدم قبوله الطعن فى الشيخين ، ولقوله بجواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، مما دعا

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٧٧ ط الحسينية .

(٢) أنظر صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٢٧

بعض أتباعه الغالين إلى رفض دعوته والانفصال عنه ، فسمُّوا تبعاً لذلك بالرافضة أو بالروافض .

ولا شك أن لتعاليم المعتزلة أثراً كبيراً فى عقلية « زيد » ؛ فقد تتلمذ لشيخ المعتزلة واصل بن عطاء الغزّال ، وأخذ عنه أصول الاعتزال[١] ، وقد حاول بعض أتباعه أن يجعل من قتله مظلمة تحدث بها النبى ؛ ففى تاريخ ابن عساكر :

« أخرج الحافظ عن حذيفة بن اليمان ، أن النبى نظر إلى زيد بن حارثة فقال : المظلوم من أهل بيتى سمىُّ هذا ، والمقتول فى الله والمصلوب من أمتى سمىُّ هذا — وأشار إلى زيد بن حارثة — ثم قال : أدن منى يا زيد ، زادك الله حبًّا عندى ، فإنك سمىُّ الحبيب من ولدى ، زيد . . . » ! !

ولما قُضى على زيد حاول ولده يحيى متابعة الكفاح ، فهرب إلى خراسان حيث خرج بجوزجان ثائراً على نصر بن سيار ، والى خراسان ، الذى بعث إليه بسَلم المازنى ، على رأس ثلاثة آلاف رجل ، فقضى عليه عام ١٢٥هـ — ٧٤٣م ، وبُعث برأسه إلى نصر بن سيار ، فبعث به إلى الوليد بن يزيد .

ولقد رثى زيدَ بن علىّ كثيرٌ من الشعراء ، منهم فضل بن العباس بن عبدالرحمن ، الذى يقول فى رثائه من قصيدة ضافية[٢] :

ألا ياعينُ لاترقى وجودى ... بدمعك ليس ذا حين الجمود
غداةَ ابنُ النبى أبو حسينٍ ... صليبٌ بالكُناسة فوق عود
يظل على عمودهمُ ويُمسى ... بنفسى أعظمٌ فوق العمود

---

(١) قال العلامة الشهرستانى : « أراد (زيد) أن يحصل الأصول والفروع ، حتى يتحلى بالعلم ، فتتلمذ فى الأصول لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة — مع اعتقاد واصل بأن جده على بن أبى طالب فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأصحاب الشام ، ما كان على يقين من الصواب ، وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه — فاقتبس منه الاعتزال ، وصارت أصحابه كلها معتزلة » . أنظر الملل والنحل حـ ١ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ على هامش ابن حزم ، طبع المطبعة الأدبية .

(٢) أنظر مقاتل الطالبيين لصاحب الأغانى أبى الفرج الأصفهانى ص ١٤٩ ط عيسى الحلبى بالقاهرة .

تعدّى الكافر الجبار فيه	فأخرجه من القبر اللحيد
فظلوا ينبشون أبا حسين	خضيباً بينهم بدمٍ جسيد[١]
فطال به تلعُّبهم عُتوّاً	وما قدروا على الروح الصعيد
وجاور فى الجنان بنى أبيه	وأجداداً هُمُ خير الجدود
فكم من والد لأبى حسين	من الشهداء أو عمٍّ شهيد
ومن أبناء أعمام سيلقى	هُمُ أولى به عند الورود
دعاه معاشرٌ نكثوا أباه	حسيناً بعد توكيد العهود
فسار إليهمُ حتى أتاهم	فما أرعَوا على تلك العقود
وكيف تضنُّ بالعبرات عينى	وتطمع بعد زيد فى الهجود !
وكيف لها الرقاد ولم تراءى	جيادَ الخيل تعدو بالأسود !
تجمّع للقبائل من معدٍّ	ومن قحطان فى حلق الحديد
كتائب كلما أردت قتيلاً	تنادت : أنْ إلى الأعداء عودى
بأيديهم صفائح مرهفاتٌ	صوارمُ أُخلصتْ من عهد هود
بها نسقى النفوس إذا التقينا	ونقتل كل جبار عنيد
ونحكم فى بنى الحكم العوالى	ونجعلهم بها مثل الحصيد
ونُنْزل بالمعيطيين حرباً	عمارة منهمُ وبنو الوليد
وإنْ تمكنْ صروف الدهر منكم	وما يأتى من الأمر الجديد
نجازيكم بما أوليتمونا	قصاصاً أو نزيد على المزيد
ونترككم بأرض الشام صرعى	وشتّى من قتيل أو طريد
تنوء بكم خوامعها[٢] وطلسٌ[٣]	وضارى الطير من بقْعٍ وسود
ولست بآيسٍ من أن تصيروا	خنازيراً وأشباه القرود

(١) الجسيد : الدم اليابس .
(٢) الخوامع : الضباع ، جمع خامعة .
(٣) الطلس ، جمع أطلس : وهو الذئب الأمعط فى لونه غبرة إلى السواد .

وقال أبو ثُمَيْلة الأبّار يرثى زيداً[1] :

يا أبا الحسين أعار فقدُك لوعةً ... من يلق ما لقيتُ منها يكمد

فقدا السهاد ولوسواك رمت به الأ ... قدار حيث رمت به لم يسهد

ونقول : لا تبعد ، وبعدُك داؤنا ... وكذاك من يلق المنيّة يبعد

كنتَ المؤمَّل للعظائم والنهى ... تُرْجَى لأمر الأمة المتأوِّد

فقُتلت حين رضيت كل مناضل ... وصعدتَ فى العلياء كل مصعَّد

فطلبتَ غاية سابقين فنلتها ... بالله فى سيرٍ كريم المورد

وأبَى إلهك أن تموت ولم تسر ... فيهم بسيرة صادق مستنجد

والقتل فى ذات الإله سجية ... منكم وأحرى بالفعال الأمجد

والناس قد أمِنوا ، وآلُ محمدٍ ... من بين مقتولٍ وبين مشرَّد

نُصُبٌ إذا ألقى الظلام ستوره ... رَقد الحمامُ وليلهم لم يرقد

ياليت شعرى والخطوب كثيرة ... أسباب موردها ومالم يورد

ما حجة المستبشرين بقتله ... بالأمس أو ما عذرُ أهل المسجد ؟

والزيدية فِرقٌ تختلف مذاهبها بصدد عقيدة « المهدى » إثباتاً ونفياً ؛ فالسليمانية أتباع سليمان بن جرير الزيدى ، والأبترية أو الصالحية أتباع الحسن بن صالح بن حى (المتوفى عام ١٦٩ هـ) وكثيرٍ النوّاء الملقب بالأبتر (والمتوفى أيضاً فى حدود هذا التاريخ) ، تنكران « المهدية » لأنهما ترفضان القول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة .

وتعاليم هاتين الفرقتين فى جملتها ، هى تعاليم زيد بن على نفسه ، وتكاد تقترب « الصالحية » من أهل السنّة ، بل هى أقرب فرق الشيعة إليهم ، وأكبر الظن أن « جولد زيهر » Goldziher كان يقصد هاتين الفرقتين من الزيدية أو إحداهما بقوله :

---

(١) أنظر مقاتل الطالبيين للأصفهانى أبي الفرج ص ١٥٠ ومابعدها .

« وهم لا يقولون بالأساطير المتعلقة بالعلم الباطنى عند الأئمة ، إلى غير ذلك من صفات شبيهة بصفات التأليه التى خص الشيعة أئمتهم بها ، وقد تقيدوا بدلاً من هذه الخيالات والأحلام بالصورة الواقعية للإمام الذى يعمل فى الحياة فى نضال مكشوف »[1] .

أما « الجارودية » من الزيدية ، أتباع أبى الجارود زياد بن المنذر العبدى ، المتوفى بعد عام ١٥٠ هـ ، فتقول بمهدية « النفس الزكية » وسنقص عليك نبأه فى شىء من الإفاضة ، لما له من أهمية خاصة .

---

(١) أنظر العقيدة والشريعة فى الإسلام» الترجمة العربية» ص ٢١١

النفس الزكية محمد بن عبد الله

مهدى الجارودية

هو أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن الحسن ، بن الحسن ، بن على بن أبى طالب ، وأمه هند بنت أبى عبيدة بن عبد الله ، بن زمعة بن الأسود بن المطلب .

وقد وُلد محمد هـذا عام مائة من الهجرة ، و بين كتفيه — فيما يقولون[1] — خال أسود عظيم كهيئة البيضة ، اتخذوه — فيما بعد — علامة لمهديته ، وكان يقال له « صريح قريش » ؛ إذ لم تقم عنـه « أم ولد » فى جميع آبائه وأمهاته وأجداده[2] .

وقد سُرَّ بمولده المتشيعون جميعاً ، وكانوا يروون عن النبى فى أحاديثهم أن اسم المهدى ، محمدُ بن عبد الله ، فرجوا أن يكون هو صاحبنا ، محمد بن عبـد الله بن الحسن ، وفرحوا به كثيراً ، وجعلوا يتذاكرونه فى مجالسهم ، على أنه المخلص والمنقذ لهم من مظالم بنى أمية ؛ قال شاعرهم[3] :

ليهنكم المولود آلَ محمـد ... إمام هدى ، هادى الطريقة ، مهتدى

يسوم أمىَّ الذلَّ من بعد عزِّها ... وآلَ بنى العاص الطريدِ المشرَّدِ

فيقتلهم قتلاً ذريعاً ، وهـذه ... بشارةُ جدَّيه ، علىٍّ وأحمـدِ

هما أنبآنا أن ذلك كائنٌ ... برغم أنوف من عُـداةٍ وحُسَّد

---

(١) أنظر مقاتل الطالبيين لصاحب الأغانى أبى الفرج الأصفهانى ص ٢٣٨ و ٢٤٣ ط عيسى الحلبى بالقاهرة .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٣

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٥

وقال سلمة بن أسلم الجهنى[1] :

إنّ الذى يروى الرواةُ لبيِّنٌ إذا ما ابنُ عبد الله فيهم تجرَّدا
له خاتم لم يعطــه اللهُ غيرَه وفيه علاماتٌ من البر والهُدَى

وقال أيضاً[2] :

إنّا لنرجو أن يكون محمدٌ إماماً به يحيا الكتاب المنزَّلُ
به يصلح الإسلامُ بعد فساده ويحيــا يتيمٌ بائسٌ ومُعَوِّل
ويملأ عدلاً أرضنا بعــد ملئها ضلالاً ويأتينا الذى كنت آمل

ولما شبّ محمد ، أرسله أبوه مع أخيه إبراهيم ، ليتلقى العلم على يدى عبد الله ابن طاوس ؛ ففى « مقاتل الطالبيين » لصاحب « الأغانى » أبى الفرج الأصفهانى :

« كان عبد الله بن الحسن يأمر ابنه محمداً بطلب العلم والتفقه فى الدين ، وكان يجىء به وبأخيه إبراهيم إلى ابن طاوس ، فيقول له : حدِّثهما لعل الله أن ينفعهما[3] » .

ولقد تتلمذ محمد أيضاً لشيخ الاعتزال واصل بن عطاء ، وبين الشيعة والمعتزلة نسب وصهر ؛ روى أبو الفرج فى « مقاتل الطالبيين » فقال :

« قدم علينا أبو أيوب بن الأدبر ، رسولاً لأبى حذيفة واصل بن عطاء ، داعياً إلى مقالته ، فاستجاب له محمد بن عبد الله بن الحسن فى جماعة من آل أبى طالب[4] » .

ولم يكن طلب محمد للعلم مقصوراً على أستاذيه ابن طاوس وابن عطاء ، فقد طلبه من غيرهما من رجال العلم ؛ حدثنا هو عن نفسه فقال :

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٤٣ .

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤١

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٨

« إنْ كنت لأطلب العلم فى دور الأنصار ، حتى لأتوسد عتبة أحدهم ، فيوقظنى الإنسان فيقول : إن سيدك قد خرج إلى الصلاة ، ما يحسبنى إلا عبده ...[١] » .

ولقد لقى محمد ، نافع بن عمر ، وأبا الزناد ، وسمع منهما وحدّث عنهما ، كما حدّث عن غيرهما ، بيد أن حديثه كان قليلاً ، ويرجع ذلك فى أكبر الظن إلى رُتَّةٍ فى لسانه ، كانت تحبس الكلام فى صدره ، فلا يكاد يبين ؛ روى أبو الفرج فقال :

« كان محمد تمتاماً ، فرأيته على المنبر ، يتلجلج الكلام فى صدره ، فيضرب بيده عليه يستخرج الكلام[٢] » .

ومن الطريف حقاً أن الشيعة لما رأت هذا العيب القادح فى مهدية محمد ، خرجت على الناس توهمهم أن هذا العيب إنما هو من علامات المهدى . . . ! ، ولجأ المتشيعون — كعادتهم دائماً — إلى الحديث ، يشدون به أزرهم ، فرووا عن الرسول ، من طريق أبى هريرة أنه قال :

« إن المهدى اسمه محمد بن عبد الله ، فى لسانه رُتّة ... » !!

ومهما يكن من شىء ، فنحن لا نشك أبداً فى أن محمداً كان على جانب كبير من العلم والتفقه فى الدين ، كما كان على قسط عظيم من التقى والزهد ، حتى لقِّب من أجل ذلك بالنفس الزكية كما يحدثنا المسعودى[٣] ، ويقول أبو الفرج :

« كان من أفضل أهل بيته ، وأكبر أهل زمانه فى زمانه ، فى علمه بكتاب الله وحفظه له وفقهه فى الدين ، وشجاعته وجوده وبأسه ، وكل أمرٍ يجمل بمثله ، حتى لم يشك أحد أنه المهدى ، وشاع ذلك له فى العامة ، وبايعه رجال من بنى هاشم جميعاً ، من آل أبى طالب وآل العباس وسائر بنى هاشم[٤] » .

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٣٨
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢
(٣) مروج الذهب حـ ٨ ص ٧٩ على هامش ابن الأثير .
(٤) مقاتل الطالبيين ص ٢٣٣

ولقد اعتقد « النفس الزكية » أنه المهدى حقا ، وساعده على ذلك الهاشميون من عباسيين وعلويين جميعاً ، ليتخلصوا عن طريقه من نير بنى أمية الثقيل ، ومن مظالم البيت المروانى الحاكم ، فأخذ « النفس الزكية » منذ صباه ، يدعو الناس إلى مهديته ، فى شىء من التستر والتكتم خوفاً من عيون آل مروان ؛ قال أبو الفرج :

« لم يزل محمد بن عبد الله بن الحسن ، منذ كان صبياً ، يتوارى ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه ، ويسمى بالمهدى[١] » .

ولقد بايعه بالمهدية الهاشميون جميعاً ، ومنهم إبراهيم الإمام والسفاح وأبو جعفر المنصور ، الذين أقاموا دولة بنى العباس فيما بعد ، ففى « مقاتل الطالبيين » :

« إن نفراً من بنى هاشم اجتمعوا بالأبواء من طريق مكة ، فيهم إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور ، وصالح بن على ، وعبد الله بن الحسن ، وابناه محمد وإبراهيم ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، فقال لهم صالح بن على :

« إنكم القوم الذين تمتد أعين الناس إليهم ، فقد جمعكم الله فى هذا الموضع ، فاجتمعوا على بيعة أحدكم ، فتفرقوا فى الآفاق وادعوا الله ، لعل الله أن يفتح عليكم وينصركم .

« فقال أبو جعفر : لأى شىء تخدعون أنفسكم ؟ والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقاً ، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى ، يعنى محمد بن عبد الله .

« قالوا : قد والله صدقتَ ، إنَّا لنعلم هذا ، فبايعوا جميعاً محمداً ، وبايعه إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور ، وسائر من حضر[٢] » .

ولا سبيل إلى الشك فى أن هذه المبايعة من كبار العباسيين ، لم تكن أبداً خالصة ولا صادقة ؛ فقد كانوا يتخذون آل علىّ درعاً واقياً لهم ، وذريعة لها خطرها

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٣٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٦ ومابعدها .

فى تنفيذ خطتهم وسياستهم ، فالناس إلى آل علىّ أميل ، وهم بهم ألصق وأعلق ، وقد كانوا فى بداية أمرهم يدعون إلى « الرضا من آل محمد » ، ونحن لا نشك كذلك فى أن هذا التوقير والاحترام من المنصور الداهية للنفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن ، والذى نقرأ عنه فى « مقاتل الطالبيين » ، كان كذلك مصطنعاً لأمرٍ ما ؛ فأبو الفرج يروى عن عمير بن الفضل الخثعمى أنه قال :

« رأيت أبا جعفر المنصور يوماً ، وقد خرج محمد بن عبد الله بن الحسن من دار ابنه ، وله فرس واقف على الباب مع عبد له أسود ، وأبو جعفر ينتظره ، فلما خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتى ركب ، ثم سوّى ثيابه على السرج ، ومضى محمد ، فقلت — وكنت حينئذ أعرفه ولا أعرف محمداً — من هذا الذى أعظمته هذا الإعظام ، حتى أخذت بركابه وسويت عليه ثيابه ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا . قال : هذا محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن ، مهدينا أهل البيت... [(١)] » .

أرأيت مبلغ احترام المنصور للنفس الزكية ؟ هذا الاحترام المقنّع المصطنع ، الذى يخفى وراءه الوقيعة فى أبشع صورها ، كما يخفى العسل الحلو المذاق ، الموت السريع فيما يضمه من سموم قاتلة .

ولقد نجح العباسيون فى القضاء على دولة بنى أمية ، وتشييد دولتهم الوليدة على أكتاف بنى عمومتهم آل علىّ ، وبسواعدهم وجهادهم بل وبنفوذهم الروحى بين الجماهير ، ولكن « السفاح » يسرف فى القضاء على أعداء الدولة الجديدة ، من أمويين وعلويين على السواء ، وهكذا أصبح العلويون فى نظر أبناء عمهم الماكرين أعداء . . . ! ، ولقد ساء العلويين أن يستأثر أبناء عمومتهم بالملك ، بعد أن اتخذوهم مَعْبَراً لبنائه ، وبوقاً للدعوة إليه ، فبادر محمد بن عبد الله بالخروج على هذه الدولة أيام المنصور — الذى كان يسير فى ركابه فيما مضى — لليلتين بقيتا من جمادى

---

(١) أنظر مقاتل الطالبيين ص ٢٣٩

الآخرة عام ١٤٥ هـ مطالباً الناس بالوفاء ببيعتهم له ولمهديته ، وتصل أنباؤه إلى أبي جعفر الخليفة العباسي الذي كان إلى وقت قريب ، يبايعه ويحض الناس على مبايعته ، ويأخذ بردائه حتى يركب ، ويسوّى ثيابه على السرج ، ويقول هذا مهدينا — فيعدّ العدة لقتاله ، ويكذّبه في دعواه ؛ قال مولى لأبي جعفر :

« أرسلني أبو جعفر فقال : اجلس عند المنبر فاسمع ما يقول محمد ، فسمعته يقول : إنكم لا تشكّون أني أنا المهدى ، وأنا هو ، فأخبرت بذلك أبا جعفر ، فقال كذب عدوّ الله ، بل هو ابني[1] . . . » ! !

وهكذا يصبح « النفس الزكية » في نظر المنصور ، أو إن شئت في نظر « السياسة » كذّابا وعدواً لله ، وأن المهدى حقاً ، هو المهدى بن المنصور . . . !

ثم تحدثنا الرواية أن المنصور نفسه لم يكن يؤمن بمهدية ولده ، ولقد اصطنعها له ليقوّى من مركزه السياسى ، فأبو الفرج يحدثنا عن مسلم بن قتيبة أنه قال :

« أرسل إلىّ أبو جعفر ، فدخلت عليه ، فقال : قد خرج محمد بن عبد الله وتسمى بالمهدى ، ووالله ما هو به . . . وأخرى أقولها لك ، لم أقلها لأحد قبلك ، ولا أقولها لأحد بعدك ، وابني والله ما هو بالمهدى الذى جاءت به الرواية ... ! ولكني تيمنت به وتفاءلت به ..... »[2] !

وهكذا انقلب التابع على متبوعه ، وأصبح أبو جعفر لمحمد خصيماً ، وقد حاول جهده أن يستميله إليه بالسياسة واللين ، وبذل له في سبيل ذلك الوعود والعهود . . . ، ولكن محمداً في الحق لم يكن من السذاجة إلى هذا الحد الذى تصوره المنصور ، حتى يركن إلى عهوده ووعوده ، وهو يعلم تماماً مقدار صدقها .....

وفى هذا الصدد دارت بينهما مكاتبات ، رواها لنا الطبرى ، تسجل فى هذا الصراع حجج كل منهما ، وتصور مقدار تمسكه بما يدعيه ، وهى بحق وثائق خطيرة ،

(١) أنظر مقاتل الطالبيين ص ٢٤٠
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٧

على جانب كبير من الأهمية ، نرى أنفسنا مسوقين هنا إلى تسجيلها ، لما لها من قيمة فيما نحن بصدده .

كتب أبو جعفر إلى محمد بن عبد الله يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ، عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد ابن عبد الله . . . :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ، ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » .

« ولك علىَّ عهدُ الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إنْ تبتَ ورجعتَ من قبل أن أقْدر عليك ، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتّبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوِّغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئتَ ، وأن أطلق مَنْ فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كلَّ من جاءك وبايعك واتَّبعك ، أو دخل معك فى شيء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشىء كان منه أبداً ، فإن أردتَ أن تتوثق لنفسك ، فوجِّه إلىَّ من أحببتَ يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به » .

فكتب إليه « النفس الزكية » وقد لقّب نفسه بالمهدى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدى ، محمد بن عبد الله ، إلى عبد الله بن محمد :

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمنَّ على الذين

استُضعِفُوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم فى الأرض ، ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون .

« وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضتَ علىّ ؛ فإن الحق حقُّنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليًّا كان الوصى وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته ، وولدُه أحياء ؟

« ثم قد علمتَ أنه لم يطلب هذا الأمر أحدٌ ، له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا ؛ لسنا من أبناء اللُّعناء ولا الطُّرداء ولا الطُّلقاء . . . ، وليس يمتُّ أحدٌ من بنى هاشم بمثل الذى نمتُّ به من القرابة والسابقة ، وإنَّا بنو أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام ، دونكم .

« إن الله اختارنا واختار لنا ؛ فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولُهم إسلاماً علىٌّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجةُ الطاهرة وأولُ من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمةُ سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسنٌ وحسينٌ سيدا شباب أهل الجنة .

« وإن هاشماً وَلَدَ عليًّا مرتين ، وإن عبد المطلب وَلَدَ حسناً مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أباً ، لم تعرّق فىَّ العجم ، ولم تنازع فىّ أمهات الأولاد . . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ؛ فأنا ابنُ أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذاباً فى النار ، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار .

« ولك الله علىّ إنْ دخلتَ فى طاعتى وأجبت دعوتى ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمرٍ أحدثتَه ، إلا حدًّا من حدود الله ، أوحقًّا لمسلم أو معاهد ، فقد علمتَ ما يلزمك من ذلك .

« وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان

ما أعطيتَه رجالاً قبْلي ، فأى الأمانات تعطيني : أمان ابن هبيرة ... ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ... ؟ أم أمان أبى مسلم ... ؟ ! » .

فردّ عليه أبو جعفر ، مفنّداً حججه بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد :

« فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك ، فإذا جلُّ فخرك بقرابة النساء ، لتضلَّ به الجفاةَ والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعَصبة والأولياء ؛ لأن الله جعل العمّ أبا ، وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا .

« ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولـكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم .

« وأما ما ذكرتَ من فاطمة أمّ أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ، ولا ابناً ، ولو أن أحداً رُزق الإسلام بالقرابة ، رُزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولـكن الأمر لله ، يختار لدينه من يشاء ؛ قال الله عز وجل : (إنك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) .

« ولقد بعث الله محمداً عليه السلام ، وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل « وأنذِرْ عشيرتك الأقربين » ، فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبِى ، وأبَى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلاًّ ، ولا ذمة ولا ميراثاً .

« وزعمتَ أنك ابنُ أخفِّ أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ، وليس فى الـكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله ضعيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وستردُ فتعلم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

« وأما ما فخرتَ به من فاطمة أمِّ علىّ ، وأن هاشماً وَلَدَه مرتين ، ومن فاطمة أمّ حسن ، وأن عبد المطلب وَلَدَه مرتين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم وَلَدَكَ مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يلده هاشمٌ إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة .

« وزعمتَ أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أمًّا وأباً ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرّق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرّاً ، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديتَ طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخراً ، ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وعلى والدٍ وَلَدَه ، وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ، وما وُلد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفضل من على بن حسين ، وهو لأمّ ولد ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده ، مثلُ ابنه محمد بن على ، وجدته أمُّ ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثلُ ابنه جعفر ، وجدته أمُّ ولد ، ولهو خير منك .

« وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله تعالى يقول فى كتابه « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ، ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها . . . ؟ ! ولقد طلبها أبوك بكل وجه ، فأخرجها نهاراً ومرّضها سراً ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنّة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم ، والخال والخالة ، لا يرثون .

« وأما ما فخرتَ به من علىّ وسابقته ، فقد حضرتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاةُ ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناسُ رجلاً بعد رجل ، فلم يأخذوه ، وكان فى الستّة ، فتركوه كلهم ، دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها ، أما عبد الرحمن ، فقدّم عليه عثمان ، وقُتِل عثمان وهو له متّهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبَى سعد بيعته ،

وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرّق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكّم حكمين ، رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه .

« ثم كان حسنٌ ، فباعها من معاوية بخِرَق ودراهم ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعتَه بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالاً من غير ولائه ولا حلّه ، فإن كان لكم فيها شيء ، فقد بعتموه وأخذتم ثمنه .

« ثم خرج عمك حسين بن علىّ ، على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه ، حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه .

« ثم خرجتم على بنى أمية ، فقتّلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ونفَوكم من البلدان ، حتى قُتل يحيي بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبي المجلوب إلى الشأم ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنّينا سلفكم وفضّلناه ، فاتخذتَ ذلك علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضّلناه ، للتقدمة منّا على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتُلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكّرناهم فضله ، وعنّفناهم وظلمناهم بما نالوا منه .

« ولقد علمتَ أن مكرمتنا فى الجاهلية ، سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعَنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام .

« ولقد قحط أهلُ المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربّه ، ولم يتقرب إليه إلاّ بأبينا ، حتى نَعَشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به .

« ولقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بنى عبدالمطلب ، بعد النبى صلى الله عليه وسلم

غيره ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غيرُ واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلاّ ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرفٌ ولا فضلٌ فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورّثه .

« وأما ما ذكرتَ من بدر ، فإن الإسلام جاء ، والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التى أصابته ، ولولا أن العباس أُخرج إلى بدر كرهاً ، لمات طالبٌ وعقيلٌ جوعاً ، وللحسا جفانَ عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسُّبة ، وكفاكم النفقة والمئونة ، ثم فدى عقيلاً يوم بدر .

« فكيف تفخر علينا ؟ وقد عُلنا كم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحُزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم ، والسلام عليكم ورحمة الله »[(١)] .

* * *

ولقد كان المنصور يود — دون شك — لو تمكن من القضاء على صاحبنا « النفس الزكية » بالحيلة والخديعة ، وبأساليبه « المكياڤيلية » الكثيرة التى انتهجها مع غيره من قبل ، إذ لو حاول أن يبطش به جهراً باديءَ الأمر ، لهبت على ملكه الناشئ ، هوجُ الأعاصير ؛ وذلك لمكانة محمد الممتازة فى نفسية الجماهير ، ولتلك البيعة له فى أعناقهم[(٢)] ، بيد أن أبا جعفر أخفق تماماً فيما كان يعتزمه وينتويه ، ولم تجد هذه المكاتبات بينهما فى حسم النزاع ، بل كانت — فيما يبدو —

---

(١) الطبرى ﺟ ٩ ص ٢١٠ ط الحسينية ، وانظر أيضاً ابن الأثير ﺟ ٥ ص ١٩٩ ط الحلبى ، والكامل للمبرد ﺟ ٨ ص ٢٧٨ نشر المرصفى .

(٢) وكان الإمام الكبير أبو حنيفة النعمان ممن بايعه . وفى سبيل ذلك لاقى مصرعه ؛ قال الشهرستانى : « وكان أبو حنيفة رحمه الله على بيعته ومن جملة شيعته ، حتى رفع الأمر إلى المنصور فحبسه حبس الأبد حتى مات فى الحبس ، وقيل إنه إنما بايع محمد بن عبد الله الإمام فى أيام المنصور ، ولما قتل محمد بالمدينة ، بقى الإمام أبو حنيفة على تلك البيعة ، يعتقد موالاة أهل البيت ، فرفع حاله إلى المنصور ، فتم عليه ماتم » .

انظر الملل والنحل ﺟ ١ ص ٢١٢ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

عاملاً هاماً فى ازدياده عنفاً وشدة ، وأكبر الظن أن الخليفة قد اتخذها وسيلة لإظهار خصمه بمظهر العصيان والمروق والخروج على الدولة ، حتى يتيح له ذلك أن يلجأ إلى السيف والقوة .

وهكذا لم يجد المنصور بدًّا من أن يرفع القناع ، ويسفر عن سياسته ، فيلجأ إلى السلاح فى وضح النهار ، محافظة على كيان دولته ، ويبعث إلى « النفس الزكية » بالجنود يقودهم عيسى بن موسى ، وحميد بن قحطبة ، اللذان دهماه فى « المدينة » ودارت بينهم رحي الحرب ، عنيفة كأشد ما يكون العنف ، ومحمد يقاتل كأشد ما يكون القتال ، بيد أن الدائرة لم تلبث أن دارت عليه وعلى رجاله ، ولقد حاول أن يحرك عواطف خصومه ويستدر عطف قلوبهم ؛ روى أبو الفرج فقال :

« برك محمد على ركبتيه ، وجعل يذبّ عن نفسه يقول : ويحكم ، أنا ابن نبيكم مجروح مظلوم[1] .... » !

بيد أن القائد القاسى القلب « حميد بن قحطبة » لم يأبه له ولم يلن لقوله ، فجاءه واحتزّ رأسه ، وكان ذلك — كما يحدثنا أبو الفرج — قبل عصر يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام ١٤٥ هـ

وقد رثاه عبد الله بن مصعب بقوله[2] :

ياصاحبيَّ دعا الملامة واعلما	أن لستُ فى هذا بألومَ منكما
وقِفا بقبر ابن النبى وسلِّما	لا بأس أن تقفا به فتسلِّما
قبرٌ تضمن خير أهل زمانه	حسباً وطيب سجيةٍ وتكرّما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يحد	عنه ولم يفتح بفاحشة فما
بطلٌ يخوض بنفسه غمراتها	لاطائشاً رعشاً ولامستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما	كانت حتوفهمُ السيوف وربما

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٧١ ، وانظر الطبرى حـ ٩ ص ٢٢٦ ط الحسينية .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٣٠٧ ، والطبرى حـ ٩ ص ٢٣١ ، وابن الأثير حـ ٥ ص ٢٠٥ ط الحلبى .

أضحى بنو حسنٍ أبيح حريمهم فينا وأصبح نهبهم متقسّما
ونساؤهم فى دورهن نوائح سجع الحمام إذا الحمام ترنما
يتوسلون بقتلهم ويرونه شرفاً لهم عنـد الإمام ومغنما
واللهِ لو شهد النبى محمـدٌ صلى الإله على النبى وسلّما
إشراعَ أمته الأسـنّة لابنه حتى تقطّر من ظباتهمُ دما
حقًّا لأيقن أنهم قد ضيعوا تلك القرابة واستحلوا المحْرما

ولـكن « الجارودية » من « الزيدية » — أتباع أبى الجارود — لم تؤمن بموت محمد بن عبد الله ؛ قال العلامة ابن حزم : فهو عندهم « حىٌّ لم يُقتل ولا مات ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[1] » .

ويقول البغدادى : « هو (عند الجارودية) المهدى المنتظر[2] » .

ويشارك « الجارودية » فى هذا المعتقد « المحمدية[3] » إحدى فرق « الإمامية » فهم ينتظرون محمداً هذا ، ويزعمون أنه مقيم بجبل حاجر من ناحية نجد إلى أن يؤمر بالخروج .

ومن « الجارودية » من ينتظر محمد بن القاسم ، من نسل الحسين ، القائم بالطالقان أيام المعتصم ، وقد أُسر وحُمل إلى الخليفة ، فحبس فى داره حتى مات ؛ وقد جاء فى « الفصل » :

قالت طائفة إنه «حى لم يمت ولا قُتل ولا يموت ، حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[4] » . ومن « الجارودية » أيضاً من ينتظر يحيى بن عمر — من نسل

---

(١) أنظر « الفصل » حـ ٤ ص ١٧٩ ط مطبعة التمدن .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٣ نشر العطار بالقاهرة .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦ ، ومختصر الرسعنى ص ٥٣ ، وانظر أيضاً التبصير فى الدين للأسفرايينى ص ٢١

(٤) ابن حزم حـ ٤ ص ١٧٩ ، وانظر أيضاً الشهرستانى حـ ١ ص ٢١٣ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية ، وانظر كذلك البغدادى فى « الفرق » ص ٢٣ ، والأسفرايينى فى « التبصير » ص ١٧

زيد بن على — الذى قام بالكوفة عام ٢٥٠ هـ ، فى عهد الخليفة العباسى المستعين بالله ، فقُتل وحُمل رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر ، وقد قال فيه بعض العلويين[1] :

قتلتَ أعزَّ من ركب المطايا وجئتك أستلينك فى الكلام
وعزَّ علىَّ أن ألقاك إلاّ وفيما بيننا حدُّ الحسام

والأشعرى يحدثنا فى « مقالات الإسلاميين » أن فرقة أخرى من الزيدية ، لاتنكر « الرجعة » فيقول :

« والفرقة الخامسة من الزيدية يتبرأون من أبى بكر وعمر ، ولاينكرون رجعة الأموات قبل يوم القيامة » .

فليس مايقوله إذاً الأستاذ أحمد أمين[2] . من أن الزيدية تنكر المهدية ، وذلك راجع إلى تعاليم المعتزلة صحيحاً على إطلاقه ، ومن الزيدية « الجارودية » ، وتلك الفرقة التى حدثنا عنها الأشعرى ، وكذلك ليس مايقوله الباحث الكبير « جولدزيهر » Goldziher من أن نظرية الزيدية المثلى « هى الإمامة النشيطة العاملة ، وليست الإمامة السلبية التى تنتهى بهم إلى الإمام الخفى[3] » ، بمنطبق تماماً على كافة فروع « الزيدية » ومنها « الجارودية » ، ولا ينصرف هذا القول إلا إلى « الصالحية » أو أختها « السليمانية » ، أو إليهما معاً ، ومن العجيب أن « جولدزيهر » يقول — ويبدو متضارباً — « والاعتقاد بالإمام الخفى يسود كافة فروع الشيعة[4] » ، وفى هذا القول — دون شك — سرف ظاهر .

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستانى حـ ١ ص ٢١٣ ، والفصل لابن حزم حـ ٤ ص ١٧٩ ، والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٣ — وقد ورد هذا المهدى فيه خطأً باسم محمد بن عمر — وانظر أيضاً التبصير فى الدين للأسفرايينى ص ١٧ .

(٢) ضحى الإسلام حـ ٣ ص ٢٤٣

(٣) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٢١١

(٤) المصدر السابق ص ١٩١

وأكبر الظن أن تفكير الزيدية الأحرار ، كان قد انحط فى القرن السادس الهجرى ، عصر الشهرستانى ، حتى لنراه يقول :

« وأكثرهم فى زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأى واجتهاد ، أما فى الأصول فيرون رأى المعتزلة حذو القُذَّة بالقُذَّة ، ويعظمون أئمة الاعتزال ، أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت . وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى حنيفة ، إلا فى مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعى رحمه الله[1] » .

ويرجع هذا الانحطاط إلى جناية « الجارودية » — إحدى فرقهم — عليهم ، ومنعهم إياهم من طلب العلم ، بإفهامهم أن الله يلهمهم إياه إلهاماً ...! ، كما ينقل لنا ذلك عن الجاحظ ، الخياطُ المعتزلى ، صاحب « الانتصار » .

ويمثل الزيدية فى العصر الحديث ، حكومة اليمن الحالية التى يرأسها الإمام سيف الإسلام أحمد ابن الإمام يحيى حميد الدين ، وهو من بنى القاسم الرسِّى ، ابن إبراهيم طباطبا ، بن اسماعيل بن عبد الله ، بن الحسن بن الحسن ، بن على بن أبى طالب : قال القلقشندى :

« وكان مبدأ أمرهم أن محمد بن إبراهيم طباطبا ، خرج بالكوفة فى خلافة المأمون فى سنة تسع وتسعين ومائة ، ودعا إلى نفسه ، وكان شيعته من الزيدية وغيرهم يقولون : إنه مستحق للإمامة بالتوارث عن آبائه ، عن جده إبراهيم الإمام وغلب على كثير من بلاد العراق ، ثم خمدت سورته ، فتطلب المأمون أخاه القاسم الرَّسِّى ، فهرب إلى الهند ، ولم يزل بها حتى هلك سنة خمس وأربعين ومائتين ، فرجع ابنه الحسين بن القاسم الرَّسِّى ، بن إبراهيم طباطبا إلى اليمن ، فكان من عقبه هؤلاء الأئمة[2] » .

---

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٢١٨ على هامش ابن حزم ط المطبعة الأدبية .

(٢) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤٧

وليس هناك قرابة أو صلة بين أئمة اليمن ، وبين الدولة الزيدية التى قامت بطبرستان فى القرن الثالث الهجرى ؛ قال القلقشندى :

« وقد وهم فى (التعريف) فجعل هذه الأئمة (أئمة اليمن) من بقايا الحسنيين القائمين بآمل الشط من بلاد طبرستان ، وأن القائم منهم بآمل الشط بطبرستان ، هو الداعى المعروف بالعلوى من الزيدية ، وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل ، ابن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . خرج سنة خمس وخمسين ومائتين ، أو ما يقاربها ، فملك طبرستان وجرجان ، وسائر أعمالها ثم مات ، وقام أخوه محمد بن زيد مقامه . وكان لشيعته من الزيدية دولة هناك ، ثم انقرضت وورثها الناصر الأطروشى ، وهو الحسن بن على ، بن الحسين بن على ، بن عمر ابن على زين العابدين ، بن الحسين السبط بن على بن أبى طالب ، وكان له دولة هناك .

« ثم خرج على الأطروشى من الزيدية الداعى الأصغر ، وهو الحسن بن القاسم ابن على بن عبد الرحمن ، بن القاسم بن محمد البطحائى ، بن القاسم بن الحسن ، ابن زيد بن الحسن السبط ، وجرى بينه وبين الأطروشى حروب ، إلى أن قتل سنة تسع عشرة وثلثمائة ، ويجتمع الداعى الأصغر مع الداعى الأكبر فى الحسن بن زيد ، وليس بنو الرسّى الذين منهم أئمة اليمن من هؤلاء بوجه[1] » .

ومهما يكن من شىء فتاريخ الزيدية فى اليمن — قديمه وحديثه — مجهول ، ولا نكاد نعرف عنها شيئاً رغم معاصرتنا لها ، وذلك يرجع إلى القائمين بالأمر فى تلك البلاد فقد أحاطوا نحلتهم بسياج من السرية والكتمان .

---

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٥٠

الإماميـــة

كثر تعداد فرق الإمامية حتى أربى على خمس عشرة فرقة ، ولـكل فرقة مهدى خاص . ونحن لا تعنينا هـذه الـكثرة ، بقدر ما تعنينا فرقتان فحسب من فرق الإمامية ، لمـا لهما من خطر وانتشار ، وهما « الاثنا عشرية » و « الإسماعيلية » ، فسنقتصر فى حديثنا عن الإمامية على هاتين الفرقتين .

الاثنا عشرية :

لقِّبوا بذلك ؛ لادعائهم أن الإمام المنتظر ، هو الثانى عشر من أولاد على بن أبى طالب ، وقد قالوا بوجود سلسلة من اثنى عشر إماماً ، أوحى الله تعالى بهم لنبيه محمد ، بل وعيَّنهم له بأسمائهم ، وقد انتقلت الإمامة من أمير المؤمنين علىّ المرتضى ، إلى الحسن المجتبى ، ثم الحسين الشهيد ، فالسجاد علىّ زين العابدين ، فولده محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، فموسى الـكاظم ، فعلىّ الرضا ، فمحمد التقى ، فعلىّ النقى ، فالزكى حسن العسكرى[1] ، ثم الحجة محمد المهدى ، ويكنى بأبى القاسم ، ويلقب بالقائم والمهدى وصاحب الزمان .

وقد اختلف فى محمد هذا وفى أبيه الحسن اختلافاً كبيراً ؛ فقيل إن الحسن لم يمت ولـكنه غائب فقط ، وقيل مات ولا ولد له ولـكنه سيعود بعد الموت ، وقيل مات ولن يعود ، وقد أوصى إلى أخيه جعفر ، وقيل مات ولم يوص ولم يترك وارثاً فى الإمامة ، وقيل إنه ترك ولداً غير معروف .

وقالت الاثنا عشرية : إن للحسن ولداً هو محمد المهدى ، خاتم الأئمة الاثنى عشر ، وقد وُلد ببغداد يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٢٥٥ هـ ، من أمّ ولد

---

(١) العسكرى : نسبة إلى « العسكر » وهى « سر من رأى » ، انتقل إليها المعتصم بعسكره ، فمن ثم قيل لها العسكر ، ونسب إليها الحسن العسكرى ؛ لأن المتوكل أشخص أباه علياً إليها فأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر ، فنسب هو وولده الحسن إليها .

يقال لها نرجس وقيل خمط ، وشهدت بذلك قابلته حكيمة بنت محمد بن على بن موسى ، التى تلقته وزعمت أنها سمعته يتكلم ، ويقرأ القرآن حين نزل من بطن أمه ...! وقد مات أبوه وهو ابن سنتين ، وقيل خمس[1] سنين ، أتاه الله فيها الحكمة كما أتاها يحيى صبياً ... وقد اختفى محمد هذا ولما يبلغ الثامنة من عمره ، وقيل فى التاسعة ، وذلك عام ٢٦٥ ﻫ ؛ إذ يزعمون أنه دخل مع أمه سرداباً « بالحلّة » بالقرب من بغداد ، ففُقد ولم يعد ، فهم ينتظرونه إلى الآن[2] ، ويقال إنهم يقفون كل ليلة عند باب السرداب ، ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب إلى مغيب الشفق ، ينادون : « أيها الإمام ، قد كثر الظلم وظهر الجور فاخرج إلينا » ثم يرجعون إلى الليلة الأخرى ، وروى ياقوت أنهم كانوا فى « قاشان » — من بلاد العجم — يركبون كل صباح إلى لقائه ، وذلك فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

ويقول الرحالة ابن بطوطة (القرن الثامن الهجرى) فى وصف مدينة «الحلّة»[3] :

« وبمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد ، على بابه ستر حرير مسدل ، وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ، ومن عاداتهم أنه يخرج فى كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة ، عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر ، فيأخذون منه فرساً ملجماً أو بغلة كذلك ، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ، ويمشى آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد (صاحب الزمان) ، فيقفون بالباب

---

(١) وقيل أيضاً إنه ولد بعد موت أبيه بثمانية أشهر .

(٢) أنظر فيما يتعلق بهذه الفرقة « الفصل » لابن حزم ﺣ ٤ ص ١٨١ ، و « الملل » للشهرستانى ﺣ ٢ ص ٥ على هامش ابن حزم ، و « الفرق » للبغدادى ص ٤٠ ، ومختصره للرسعنى ص ٦٠ ، و « التبصير » للأسفراينى ص ٢٣ ، وانظر أيضاً مادة « الاثنى عشرية » بدائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٤٢٩ من الترجمة العربية ، و « عقيدة الشيعة » لدونلدسن ص ٢٢٢ ، الترجمة العربية .

(٣) قرية بالعراق بالقرب من بغداد ، غربى الفرات ، قال ابن بطوطة : « وأهل هذه المدينة إمامية إثنا عشرية ، وهم طائفتان : إحداهما تعرف بالأكراد ، والأخرى تعرف بأهل الجامعين ، والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبداً » . أنظر رحلة ابن بطوطة ﺣ ١ ص ١٣٨

ويقولون : (باسم الله يا صاحب الزمان ، باسم الله اخرج ؛ فقد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك ، فيفرُق الله بك بين الحق والباطل) ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنقار ، إلى صلاة المغرب »[(١)] .

ولزيارة هذا الإمام طريق مرسوم يجب أن يسلك ، فعلى الزائر للسرداب أن يسلم على الغائب ويناديه بخليفة الله ، ووصى الأوصياء الماضين ، وحافظ أسرار رب العالمين ، وبقية الله من الصفوة المنتخبين ، وباب الله الذى لا يؤتَى إلا منه ، ونور الله الذى لا يُطفأ ، وحجة الله على من فى الأرض والسماء ، ثم يخاطبه بما يلى :

« أشهد أنك الحجة على من مضى ومن بقى ، وأن حزبك هم الغالبون ، وأولياءك هم الفائزون ، وأعداءك هم الخاسرون ، وأنك خازن كل علم ، وفاتق كل رتق ، ومحقق كل حق ، ومبطل كل باطل ، رضيتك يا مولاى إماماً وهادياً وولياً ومرشداً ، لا أبتغى بك بدلاً ، ولا أتخذ من دونك ولياً .

« أشهد أنك الحق الثابت الذى لا ريب فيه ، وأن وعد الله فيك حق ، لا أرتاب لطول الغيبة وبُعد الأمد ، ولا أتحير مع مَن جهلك وجهل بك ، منتظر متوقع لأياديك ، وأنت الشافع الذى لا تُنازَع ، والولى الذى لا تُدافَع ، ادخرك الله لنصره ، وإعزاز المؤمنين ، والانتقام من الجاحدين المارقين .

«أشهد أن بولايتك تُقبل الأعمال ، وتُزكَّى الأفعال ، وتُضاعَف الحسنات ، وتُمحَى السيئات ، فمن جاء بولايتك ، واعترف بإمامتك قُبلت أعماله ، وصدقت أقواله ؛ وتضاعفت حسناته ، ومحيت سيئاته ، ومن عدل عن ولايتك ، وجهل معرفتك ، واستبدل بك غيرك ، كبّه الله على منخره فى النار ، ولم يقبل الله له عملاً ؛ ولم يُقم له يوم القيامة وزناً .

« أُشهد الله وأُشهد ملائكته وأُشهدك يا مولاى بهذا ، ظاهره كباطنه وسرّه كعلانيته ، وأنت الشاهد على ذلك ، وهو عهدى إليك وميثاق لديك .

---

(١) رحلة ابن بطوطة حـ ١ ص ١٣٨ ط مطبعة التقدم بالقاهرة .

«وبذلك أمرنى رب العالمين ؛ فلو تطاولت الدهور ، وتمادت الأعمار ، لم أزدد فيك إلا يقيناً ، ولك إلا حبًّا ، وعليك إلا متّكلاً واعتماداً ، ولظهورك إلا توقعاً وانتظاراً ، ولجهادى بين يديك إلا مترقباً ؛ فأبذل نفسى ومالى وأهلى وجميع ما خوّلنى ربى بين يديك ، والتصرف بين أمرك ونهيك .

« مولاى : فإن أدركتُ أيامك الزاهرة ، وأعلامك الباهرة ، فها أنا ذا عبدك المتصرف بين أمرك ونهيك ، أرجو به الشهادة بين يديك ، والفوز لديك .

«مولاى : فإن أدركنى الموت قبل ظهورك ، فأتوسل بك ، وبآبائك الطاهرين إلى الله سبحانه وتعالى ، واسأله أن يجعل لى كرّة فى ظهورك ، ورجعة فى أيامك ، لأبلغ من طاعتك مرادى ، وأشفى من أعدائك فؤادى .

« مولاى : وقفتُ فى زيارتى إياك ، موقف الخاطئين النادمين الخائفين من عقاب رب العالمين ، وقد اتكلتُ على شفاعتك ، ورجوتُ بموالاتك وشفاعتك محو ذنوبى ، وستر عيوبى ، ومغفرة زللى . فكن لوليّك يامولاى عند تحقيق أمله ، واسأل الله غفران زلله ؛ فقد تعلّق بحبلك وتمسك بولايتك[1] .... » ! !

ثم يصلى الزائر ركعتين يقول بعدها :

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد ، الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وعرّفنا أولياءه ، وأعداءه ، ووفقنا لزيارة أئمتنا ، ولم يجعلنا من المعاندين الناصبين ، ولا من الغلاة المفوضين ، ولا من المرتابين المقصرين .

« السلام على ولىّ الله ، وابن أوليائه ، والسلام على المدّخر لكرامة أولياء الله وبوار أعدائه .

« اللهم كما جعلت قلبى بذكره معمورا ، فاجعل سلاحى بنصرته مشهورا ، وإن حال بينى وبين لقائه الموت ، الذى جعلته على عبادك حتما ، وقدرت به على

(١) أنظر عقيدة الشيعة للعلامة دونلدسن « الترجمة العربية » ص ٢٤٩ نشر الخانجى بالقاهرة .

خليقتك رغما ، فابعثنى عند خروجه ظاهراً من حفرتى ، مؤتزراً كفنى حتى أجاهد بين يديه ، فى الصف الذى أثنيت على أهله فى كتابك ، كأنهم بنيان مرصوص .

« اللهم طال الانتظار ، وشمت بنا الفجار ، وصعُب علينا الانتصار .

« اللهم أرنا وجه وليِّك الميمون فى حياتنا ، و بعد المنون .

« اللهم إنى أدين لك بالرجعة ، بين يدى صاحب هذه البقعة . الغوث . الغوث . الغوث . . . .

« ياصاحب الزمان . قطعت فى وصلتك الخلان ، وهجرت لزيارتك الأوطان ، وأخفيت أمرى عن أهل البلدان ؛ لتكون لى شفيعاً عند ربك وربى ، وإلى آبائك مواليًا فى حسن التوفيق لى ، وإسباغ النعمة علىّ ، وسوق الإحسان إلىّ »[1]

وقد أورد المجلسى فى كتابه « تحفة الزائرين » عهداً ، يقطعه الزائر للسرداب على نفسه ، ويبايع به الإمام الغائب ، وقد رفع المجلسى هذا النص للبيعة — بسند طويل — إلى الإمام جعفر الصادق ، وقال : « إن من قرأ هذا العهد أربعين صباحاً ، كان من أصحاب الأئمة الأبرار ، وإذا مات قبل ظهور الإمام الثانى عشر ، أقامه الله من قبره ليكون مع الإمام عند مجيئه ، وبكل كلمة يقرؤها من هذا العهد ، يرفع الله له ألف درجة ، ويغفر له ألف ذنب . . . »[2] .

وهاك نص هذه البيعة :

« اللهم رب النور العظيم ، ورب الكرسى الرفيع ، ورب البحر المسجور ، ومنزل التوراة والإنجيل والزبور ، ورب الظل والحرور ، ومنزل القرآن العظيم ، ورب الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين .

« اللهم إنى أسألك بوجهك الكريم ، وبنور وجهك المنير ، وملكك القديم ، ياحىّ ، ياقيوم ، أسألك باسمك الذى أشرقت به السماوات والأرضون ، وباسمك

---

(١) عقيدة الشيعة ص ٢٥٠

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٥

الذى يصلح به الأولون والآخرون ، ياحىّ قبل كل حىّ ، وياحىّ بعد كل حىّ ، وياحىّ حين لا حىّ ، يامحيىَ الموتى ، ومميتَ الأحياء ، ياحىّ لا إله إلا أنت .

« اللهم بلِّغ مولانا الإمام الهادى المهدى القائم بأمرك صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين من جميع المؤمنين والمؤمنات ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، سهلها وجبلها ، وبرها وبحرها ، عنى وعن ولدى من الصلوات زنة عرش الله ، ومداد كلماته ، وما أحصاه علمه ، وأحاط به كتابه .

« اللهم إنى أجدد له فى صبيحة يومى هذا ، وما عشت من أيامى ، عهداً وعقداً وبيعة له فى عنقى ، لا أحول عنها ، ولا أزول .

« اللهم اجعلنى من أنصاره وأعوانه ، والذابّين عنه ، والمسارعين إليه فى قضاء حوائجه ، والممتثلين لأوامره ، والحامين عنه ، والسابقين إلى إرادته ، والمستشهدين بين يديه . . . .

« اللهم إن حال بينى وبينه الموت ، الذى جعلتَ على عبادك حتماً ، فأخرجنى من قبرى مؤتزراً كفنى ، شاهراً سيفى ، مجرداً قناتى ، ملبياً دعوة الداعى ، فى الحاضر والبادى[1] .....!

« اللهم أرنى الطلعة الرشيدة ، والغرة الحميدة ، وأكحل ناظرى بنظرة منى إليه ، وعجِّل فرجه ، وسهِّل مخرجه ، وأوسع منهجه ، واسلك بى محجته ، وأنفذ أمره ، واشدد أزره ، واعمر اللهم به بلادك ، وأحى به عبادك ؛ فإنك قلت ، وقولك الحق ، (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) .

« فأظهر اللهم لنا وليَّك ، وابن بنت نبيك ، المسمى باسم رسولك حتى لا يظفر بشىء من الباطل إلا مزَّقه ، ويحق الحق ويحققه ، واجعله اللهم مفزعاً لمظلوم عبادك ،

---

(١) يتضح لك من هذه الدعوات الحارة صدق ماحدثناك به من أن الاثنى عشرية يدينون بالرجعة ، ويسألون الله أن يخرجهم من قبورهم قبل يوم القيامة ، ليكونوا فى جيش مهديهم محمد بن الحسن العسكرى ، ويسهموا معه فى انتصاره على الكفرة والمارقين .

وناصراً لمن لا يجد له ناصراً غيرك ، ومجدداً لما عُطِّل من أحكام كتابك ، ومشيّداً لما ورد عن أعلام دينك ، وسنن نبيك صلى الله عليه وآله ، واجعله اللهم فى حصن من بأس المعتدين .

« اللهم وسُرَّ نبيك محمداً صلى الله عليه وآله برؤيته ، ومن تبعه على دعوته ، وارحم استكانتنا بعده .

« اللهم اكشف هذه الغمة ، عن هذه الأمة بحضوره ، وعجِّل لنا ظهوره ، وإنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً برحمتك يا أرحم الراحمين[1] .. !! » .

وقد استمر تيار الشك فى وجود محمد بن الحسن قوياً جارفاً حتى العصور الحديثة ؛ قال العلامة الفارسى « ميرزا عبد الحسين آواره » :

« وفى الحقيقة ونفس الأمر ، لم يكن القول بوجود شخص كهذا ، إلا فرية واختلاقاً ؛ وذلك أنه لما توفى الإمام الحسن العسكرى ، لم يكن له خلف ولا ذرية ، فاستولى المتوكل العباسى ، بعد وفاته على أمواله جميعها ووزعها ، وبعث بالقوابل إلى حرمه ، للكشف على نسائه ، وتبيُّن حملهن من عدمه ، فتحقق بعد الكشف أنه لا يوجد بينهن حامل ، وشاعت الأخبار وذاعت أن الحسن مات عقيماً ؛ ولكن هذا الخبر ، لما لم يرق فى أعين زمرة من شيعته ، أشاعوا نقيضه ، وهو أن الإمام الحسن له ولد صغير السن ، كان يخفيه والده عن أعين الناس خوفاً عليه من الأعداء ، وهو الآن فى الغيبة الصغرى . وعلى أثر تلك الإشاعة قام أربعة رجال ، الواحد بعد الآخر ، وادعوا النيابة عن الإمام الغائب ، وعُرفوا باسم (النواب الأربعة)[2] » .

ويحدثنا أيضاً البحاثة « ميرزا آواره »[3] ، أنه فى سنة ستين بعد المائتين من الهجرة ، مات النائب الرابع وهو محمد بن عثمان السرى ، وقد قرر وهو يحتضر سدَّ باب النيابة ، وابتداء غيبة الإمام الكبرى ، وقد أخذ علماء الشيعة يعملون جهدهم

(١) عقيدة الشيعة ص ٣٤٥

(٢) الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية حـ ١ ص ٣١

(٣) المصدر السابق حـ ١ ص ٣٣ ومابعدها .

فى تأييدها بالحجج والبراهين ، واشتد ذلك فى القرون الوسطى للإسلام ، غير أن هذه البراهين كانت — كما يقول آواره — من الضعف بمكان .

ويشغل محمد بن الحسن العسكرى صحائف عديدة من أدب الشيعة الاثنى عشرية ، وقد امتدحه بهاء الدين العاملى — المتشيع الاثنا عشرى صاحب الكشكول — بقصائد تُعد من أروع الشعر العربى ، سلاسة ورقة وصدقاً ، وسنعرض لذلك فى حينه .

وقد سخر أهل السنّة من عقيدة الاثنى عشرية الخاصة بالمهدى وفنّدوها بقولهم : إن المهدى — تبعاً لما جاء فى الروايات — يجب أن يكون اسمه محمداً (كاسم النبى) ، واسم أبيه عبد الله (كاسم أبيه عليه السلام) ، ووالد المهدى ، وهو الإمام الحادى عشر اسمه الحسن ، لا عبد الله ، كما يجب أن يكون .

وقد سخر أهل السنّة أيضاً سخرية لاذعة من غيبة محمد بن الحسن ، واختفائه فى السرداب ، وفى ذلك يقول ابن حجر[1] :

ماحان للسرداب أن يلد الذى   سميتموه بزعمكم إنساناً ؟ !

فعلى عقولكم العفاء فإنكم   ثلّثتم العنقاء والغيلانا

وقد أجاب الاثنا عشرية — كما لاحظ ذلك « جولدزيهر » Goldziher[2] — بقولهم : إن متن الحديث الدال على اسم المهدى قد صُحِّف ، فبدلاً من عبارة (يواطئ اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى) الواردة فى الحديث ، يزعمون أن الصواب (واسم أبيه اسم ابنى) ، وأبو المهدى اسمه (الحسن) وهو اسم حفيد النبى (الحسن بن على) ، ولا يشكّون فى أن كلمة (ابن) تفيد أيضاً معنى الحفيد .... !

أما اختفاء الإمام وغيبته ، فقد اشتغلوا بها فى العصور الوسطى الإسلامية ، وأقاموا عليها أدلة وبراهين ، غير أنها كانت من الضعف بحيث لم تقنع الشيعة أنفسهم ، بله أهل السنّة ، وقد كانت فى الحق مجرد جدال ولجاج .

---

(١) الكواكب الدرية حـ ١ ص ٣٢

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٣٤٤

والاثنا عشرية من أعظم فرق الشيعة انتشاراً فى العصر الحديث ، وقد أقرّت مذهبهم فى إيران ، الأسرة الصفوية — التى تزعم أنها من سلالة موسى الكاظم — فأصبح بذلك المذهبَ الرسميَّ للدولة ، وقد أمر الشاه اسماعيل الصفوى — بعد اعتلائه العرشَ عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م — خطباء أذربيجان ، أن تكون الخطبة باسم الأئمة الاثنى عشر .

ومن الاثنى عشرية فى إيران انشعبت « البابية » و « البهائية » ، وانفردت كل منهما بعقائد جديدة ، لاقت رواجاً فى العصر الحديث كما سنحدثك فيما بعد .

وللمذهب الاثنى عشرى — كما يقول[1] العلامة « هيار » Huart — أهمية كبرى عند الفرس ، الذين نظروا إلى الأئمة كما نظر النصارى إلى أقانيمهم ، وقالوا إن بأيديهم مقادير العالم ، وعليهم حفظه وهدايته ، وطاعتُهم والتوسلُ إليهم أمران ضروريان ، وهناك صلوات خاصة بهم ، وأيام وساعات مقدسة من أجلهم ، وللذين يزورون قبورهم أجر معلوم ...

* * *

الإسماعيلية[2] :

تنتسب هذه الفرقة إلى الإمام السابع « إسماعيل » وهو الابن الأكبر للإمام السادس جعفر الصادق ، وكان جعفر قد عيّن إسماعيل خلفاً له ، غير أنه لقيه مرة ثملاً مخموراً ، فعاد وعيّن ابنه الثانى موسى ، ولكن الإسماعيلية لا تسلم بنزع الإمامة من إسماعيل ؛ لأنهم يرون أن الإمام معصوم ، وشرب الخمر لا يقدح فى عصمته ، ويلومون جعفراً على فعلته ، التى تمس عصمة الأئمة وترتيبهم الإلهى المقدس . وقد توفى

(١) أنظر مادة الاثنى عشرية بدائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٤٢٩ من الترجمة العربية .

(٢) ويسمون أيضاً بالباطنية ؛ وذلك لقولهم بالإمام الباطن أى المستور أو لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره . وقد عنى أبو حامد الغزالى بالرد على هذه الطائفة ذات التعاليم الخطرة فى كتابه « فضائح الباطنية » الذى نشره العلامة « جولدزيهر » Goldziher بليدن عام ١٩١٦

إسماعيل هذا بالمدينة عام ١٤٣ هـ = ٧٦٠ — ٧٦١ م ، أى قبل وفاة أبيه بخمس سنين ودفن ببقيع الغرقد [١] .

وقد أراد جعفر الصادق أن يؤكد وفاة ابنه — الذى يظهر تماماً أنه لم يكن راضياً عنه — فتمّ له ذلك بشهادة عدول كثيرين ، بيد أن الإسماعيلية أيضاً لم يسلموا بموت صاحبهم ، على الرغم من تأكيدات جعفر القاطعة ، وزعموا أنه كان حياً بعد وفاة أبيه بخمس سنين ، وأنه رؤى فى سوق البصرة ، حيث وضع يده على مُقعَد فأبرأه . . . !

وقد انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ولده محمد المكتوم ، الذى أصبح الإمام السابع الحقيق ، وحلّ بذلك محلّ أبيه ، وهوأول الأئمة المستورين ، الذين تفرقوا فى البلاد مختفين ، لما لحقهم من الاضطهادات السياسية التى حاقت بالعلويين جميعاً . وكان هؤلاء الأئمة المستورون ، يبعثون إلى العالم الإسلامى بالدعاة ، مجتنبين المجاهرة بالدعوة ، إلى أن مات الإمام محمد الحبيب بن جعفر الصادق ، بن محمد المكتوم بن إسماعيل ، بن جعفر الصادق ، آخر هؤلاء الأئمة المختفين ، وحانت عقيب موته تلك اللحظة الحاسمة ، التى أثمرت فيها تعاليم الحركة السرِّية الإسماعيلية بظهور ولده عبيد الله ، على اعتبار أنه المهدى المنتظر ، وقد دعا له فى صحارى المغرب ، أبو عبد الله الشيعى ، الحسن بن أحمد ، الذى يظهر أنه نجح فى مهمته أيما نجاح . وقد حاول الخليفة العباسى المكتفى بالله ، القبض على أحد دعاة الدعوة الخطرين سعيد بن الحسين ، ولكنه فرَّ إلى مصر ومنها إلى بلاد المغرب ، حيث وجد فيها أرضاً خصيبة صالحة لبذور دعوته ؛ وذلك لما كان يسودها وقت ذاك من انحطاط فكرى عام وبداوة شاملة .

---

(١) أنظر فيما يتعلق بالإسماعيلية ، الشهرستانى ح ٢ ص ٢٧ على هامش ابن حزم ، طبع المطبعة الأدبية ، والبغدادى فى « الفرق » ص ٣٩ ، نشر العطار بالقاهرة ، ومختصر الرسعنى ص ٥٨ ، والأسفراينى فى « التبصير فى الدين » ص ٢٣ ، وانظر أيضاً هذه المادة بدائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٢ ص ١٨٧ من الترجمة العربية .

ويحدثنا الرواة أن هذا الداعية الخطر «سعيد بن الحسين» هو الذى زعم أنه المهدى المنتظر، أبو محمد عبيد الله من ولد جعفر الصادق ، ولم ينكر عليه الداعية أبو عبد الله الشيعى هذا الزعم ، بل عمل على تأكيده وأخذ البيعة له ، فبايعه على دعوته بربر قبيلة كتامة ، ثم تتابع المغاربة على المبايعة ، فاستطاع أبو عبيد الله المهدى — بعد خطوب وحروب — أن ينتزع ملك الأغالبة ، وأن يحقق أحلام العلويين بقيام دولة بنى عُبيد الفاطمية فى شمال أفريقيا ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م .

وللشيعة الإسماعيلية دعوة سرِّية فلسفية إلحادية ، لها درجات ومراتب ؛ قال عضد الدين الإيجى :

« ولهم فى الدعوة مراتب :

« الذوق — وهو تفرُّس حال المدعوّ ؛ هل هو قابل للدعوة أم لا ؟ ولذلك منعوا إلقاء البذر فى السبخة ، والتكلم فى بيت فيه سراج .

« ثم التأنيس باستمالة كل أحد بما يميل إليه ، من زهد وخلاعة .

« ثم التشكيك فى أركان الشريعة بمقطعات السور ، وقضاء صوم الحائض دون قضاء صلاتها ، والغسل من المنى دون البول ، وعدد الركعات .

« ثم الربط : أخذ الميثاق منه بحسب اعتقاده ، ألا يفشى لهم سراً ، وحوالته على الإمام فى حل ما أشكل عليه .

« ثم التدليس : وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا لهم ، حتى يزداد ميله

« ثم التأسيس : وهو تمهيد بمقدمات يقبلها المدعوّ .

« ثم الخلع : وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية .

« ثم السلخ عن الاعتقادات ، وحينئذ يأخذون فى استعمال اللذات ، وتأويل الشرائع »[1] .

وقد حدثنا العلامة تقى الدين المقريزى[2] عن دعوة الإسماعيلية هذه ، وصوّرها

---

(١) المواقف ص ٤٢٢ ، والفرق بين الفرق ص ١٧٩

(٢) انظر المقريزى حـ ١ ص ٣٩١ وما بعدها ط بولاق عام ١٢٧٠ هـ .

لنا تصويراً رائعاً ، يدلنا على مقدار ما وصل إليه دعاة الإسماعيلية من براعة فائقة فى جذب الناس إلى حظيرة الدعوة بأساليب سيكلوجية دقيقة ؛ فالداعى يبدأ مهمته بسؤال من يدعوه إلى مذهبه عن المشكلات وتأويل الآيات ، ومعانى الأمور الشرعية ، وشىء من الطبيعيات ومن الأمور الغامضة ، فإن كان المدعوّ عالماً بمثل ذلك سلم له الداعى ، وإلا تركه يُعمل فكره فيما ألقاه عليه من الأسئلة ، قائلا له : يا هذا إن الدين لمكتوم وإن الأكثر له منكرون وبه جاهلون ، ولو علمت هذه الأمة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف ، وحينئذ يشتاق الطالب إلى معرفة ما عند الداعى من هذا العلم المستور ، وحينما يجد صاحبنا إقبالاً من تلميذه ، يأخذ فى ذكر معانى شرائع الدين ، وتقرير أن الآفة التى نزلت بالأمة وفرقت الكلمة وأورثت الأهواء المضلة ، هى ذهاب الناس وانصرافهم عن الأئمة الذين نُصبوا لهم ، وأقيموا حافظين لشرائعهم ، يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها ، غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة ونظروا فى الأمور بعقولهم ، واتبعوا ما حسُن فى رأيهم ، وقلدوا سفلتهم وأطاعوا سادتهم وكبراءهم ، اتباعاً للملوك وطلباً للدنيا ، التى هى أيدى متبعى الإثم وأجناد الظلمة ، وأعوان الفسقة الذين يحبون العاجلة ويجتهدون فى طلب الرياسة على الضعفاء ، ومكايدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وتغيير كتاب الله عز وجل ، وتبديل سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة دعوته وإفساد شريعته وسلوك غير طريقته ، ومعاندة الخلفاء والأئمة من بعده ، صار الناس إلى أنواع الضلالات ، فإن دين محمد ما جاء بشهوات الناس ولا بما خفّ على الألسنة وعرفته دهماء العامة ، ولكنه صعبٌ مستصعب وعلمٌ خفى غامض ، ستره الله فى حجبه وعظّم شأنه عن ابتذال أسراره ، فهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذى لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملَك مقرَّب ، أو نبى مرسل أو عبد مؤمن ، امتحن الله قلبه للتقوى . . . !

فإذا أنس الداعى من تلميذه إنصاتاً له وإقبالاً عليه نقله إلى المرتبة الثانية ، بعد أن يعمل على تشكيكه فى الشريعة الإسلامية .

ومن المسائل التى كانوا يبعثون بها الشك والقلق فى نفوس الناس ، قولهم : ما معنى رمى الجمار والعدو بين الصفا والمروة ؟ ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير ؟ وما بال الله خلق الدنيا فى ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط الوارد فى القرآن ؟ وما معنى الكاتبين الحافظين ؟ وما لنا لا نراهما ؟ أخاف اللهُ أن نكابره ونجاحده ، فأقام علينا الشهود وقيد ذلك بالكتابة فى القراطيس ؟ وما تبديل الأرض غير الأرض ؟ وما عذاب جهنم ؟ وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذَّب ؟ وما معنى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ؟ وما إبليس ؟ وما الشياطين وما وُصفوا به ؟ وأين مستقرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت ؟ وأين مستقرهم ؟ وما سبعة أبواب للنار ؟ وما ثمانية أبواب للجنة ؟ وما شجرة الزقوم النابتة فى الجحيم ؟ وما دابة الأرض ورءوس الشياطين ؟ وما الشجرة الملعونة فى القرآن؟ وما التين والزيتون؟ وما الخنَّس والكنَّس ؟ وما معنى الٓم والمٓص؟ وما معنى كهيعص وحمعسق ؟ ولم جعلت السموات سبعاً ، والأرضون سبعاً ، والمثانى من القرآن سبع آيات ؟ ولم تُفجِّرت العيون اثنتى عشرة عيناً ؟ ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهراً ؟ وماذا ينفعكم العمل بالكتاب والسنّة من غير أن تفكروا أولاً فى أنفسكم : أين أرواحكم ؟ وكيف صوّرها وأين مستقرها وما أول أمرها ؟ والإنسان : ما هى حقيقته ، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ؟ وما معنى قول الرسول : خُلقت حواء من ضلع آدم ؟ وما معنى قول الفلاسفة : الإنسان عالمَ صغير والعالمَ إنسان كبير ؟ ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من الحيوانات ؟ ولم كان فى يديه من الأصابع عشر وكذلك فى رجليه ؟ ولم كان فى ظهره اثنتا عشرة عقدة وفى عنقه سبع عقد ؟ ولم جُعلت أعداد عظام الإنسان كذا ... وأعداد أسنانه كذا ... والأعضاء الرئيسية كذا ...؟ إلى غير ذلك من التشريح والقول فى العروق والأعضاء ومنافع الحيوان . . ! !

هذه هى مسائلهم التى كانوا يثيرون بها الشك فى نفوس الجماهير ، فإذا نجحوا فى ذلك ، وأكبر الظن أنهم كانوا ينجحون ، يقول الداعى لتلاميذه :

ألا تتفكرون فى حالكم وتعتبرون ؟ وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم ؟ وأنه فعل جميع ذلك لحكمة وله فيها أسرار خفية ، حتى جمع ما جمع وفرّق ما فرّق ؟ . فكيف يسعكم الإعراض عن هذه الأمور ، وأنتم تسمعون قول الله عز وجل : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون » ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ؟ . وأى حق عرفه من جحد الديانة ؟ ألا يدلكم هذا على أن الله جلَّ اسمه أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية وأسرارها المكتومة ؟ . ولو تنبهتم لها وعرفتموها ، لزالت عنكم كل حيرة ، ودُحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ، ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى مَن جهلها كان حريًّا ألاَّ يعلم غيرها ؟ أليس الله تعالى يقول : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » ؟ .

وهكذا يستمر الداعى فى تأويل القرآن ، وتفسير السنن والأحكام ، وإيراد أبواب من التجويز والتعليل ، فإذا علم أن نفس الطالب قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ :

« لا تعجل فإن دين الله أعلى وأجل من أن يُبذل لغير أهله ، ويُجعل غرضاً للّعب » . وجرت عادة الله وسنته فى عباده عند شرع من نصبه ، أن يأخذ العهد على من يرشده ولذلك قال : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » ، وقال عز وجل : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلا » ، وقال جل جلاله : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، وقال : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » ، وقال : « لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل » .

فأعطِنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالمؤكد من أيمانك وعقودك ، ألاّ تفشى لنا سرا ولا تظاهر علينا أحدا ، ولا تطلب لنا غيلة ولا تكتمنا نصحا ، ولا توالى لنا عدوا . فإذا أعطى الطالب العهد ، قال له الداعى : أعطِنا جُملاً من مالك نجعله مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها ... يقول المقريزى : « والرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى ، فإن امتنع المدعوّ أمسك عنه الداعى ، وإن أجاب نقله إلى الدعوة الثانية » .

وهذه صورة العهد الذى يؤخذ على من يريد الدخول فى حظيرة الإسماعيلية(١) :

يقول الداعى لتلميذه : « جعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله وأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله وما أخذه على النبيين من عقد وعهد وميثاق ، أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته ، وعلمته وتعلمه وعرفته وتعرفه من أمرى وأمر المقيم بهذا البلد ، لصاحب الحق الإمام ، الذى عرفتَ إقرارى له ونصحى لمن عقد ذمته ، وأمورِ إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ومخالصته له ، من الذكور والإناث والصغار والكبار ، فلا تظهر من ذلك شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، ولا شيئاً يدل عليه ، إلا ما أطلقتُ لك أن تتكلم به ، أو أطلقه لك صاحب الأمر المقيم بهذا البلد ، فتعمل فى ذلك بأمرنا ولا تتعداه ولا تزيد عليه ، وليكن ما تعمل عليه قبل العهد و بعده بقولك وفعلك ، أن تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وتشهد أن الجنة حق وأن النار حق ، وأن الموت حق وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وتقيم الصلاة لوقتها ، وتؤتى الزكاة لحقها ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت الحرام ، وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده ، على ما أمر الله به ورسوله ، وتُوالى أولياء الله وتعادى أعداء الله ، وتقوم بفرائض الله وسننه ، وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ، ظاهراً و باطناً ، وعلانية سراً وجهراً ، فإن ذلك يؤكد هذا

(١) خطط المقريزى حـ ١ ص ٣٩٦ وما بعدها ط بولاق .

العهد ولا يهدمه ، ويثبته ولا يزيله ، ويقربه ولا يباعده ، ويشده ولا يضعفه ، ويوجب ذلك ولا يبطله ، ويوضحه ولا يعمّيه ، كذلك هو الظاهر والباطن وسائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات الله عليهم أجمعين ، على الشرائط المبينة فى هذا العهد ، جعلتَ على نفسك الوفاء بذلك ، قل : نعم — فيقول المدعوّ : نعم ، ثم يقول الداعى له — والصيانةَ له بذلك ، وأداء الأمانة ، على ألاّ تظهر شيئاً أُخذ عليك فى هذا العهد ، فى حياتنا ولا بعد وفاتنا ، لا فى غضب ولا على حال رضى ، ولا على رغبة ولا فى حال رهبة ، ولا عند شدة ولا فى حال رخاء ، ولا على طمع ولا على حرمان ، تلقى الله على الستر لذلك والصيانة له على الشرائط المبيّنة فى هذا العهد ، وجعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن تمنعنى وجميع من أسميه لك وأثبته عندك ، مما تمنع منه نفسك ، وتنصح لنا ولوليّك ولىّ الله ، نصحاً ظاهراً وباطناً ، فلا تخن الله ووليّه ولا أحداً من إخواننا وأوليائنا ، ومن تعلم أنه منّا بسبب ، فى أهل ولا مال ولا رأى ولا عهد ولا عقد تتأول عليه بما يبطله ، فإن فعلتَ شيئاً من ذلك ، وأنت تعلم أنك قد خالفته وأنت على ذكر منه ، فأنت برىء من الله خالق السموات والأرض الذى سوّى خلقك وألّف تركيبك ، وأحسن إليك فى دينك ودنياك وآخرتك ، وتبرأ من رسله الأولين والآخرين ، وملائكته المقربين الكروبيين والروحانيين ، والكلمات التامات ، والسبع المثانى والقرآن العظيم ، وتبرأ من التوراة والإنجيل والزبور والذكر الحكيم ، ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدّم الدار الآخرة ، ومن كل عبد رضى الله عنه ، وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وخذلك الله خذلاناً بيناً ، يعجّل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير إلى نار جهنم ، التى ليس لله فيها رحمة ، وأنت برىء من حول الله وقوّته ، مُلجأ إلى حول نفسك وقوّتك ، وعليك لعنة الله ، التى لعن الله بها إبليس ، وحرّم عليه بها الجنة وخلده فى النار ، إن خالفت شيئاً من ذلك ، ولقيتَ الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ولله عليك أن تحج إلى بيته الحرام ثلاثين حجة حجًّا واجباً ماشياً حافياً ، لا يقبل الله

منك إلا الوفاء بذلك ، وكل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، الذين لا رحم بينك وبينهم ، لا يأجرك الله عليه ، ولا يدخل عليك بذلك منفعة ، وكل مملوك لك من ذكر أو أنثى فى ملكك أو تستفيده إلى وقت وفاتك ، إن خالفتَ شيئاً من ذلك ، فهم أحرار لوجه الله عز وجل ، وكل امرأة لك أو تتزوجها إلى وقت وفاتك ، إن خالفتَ شيئاً من ذلك ، فهن طوالق ثلاثاً بتة ، طلاق الحرج لامثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ولا مشيئة ، وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما ، فهو عليك حرام ، وكل ظهار فهو لازم لك ، وأنا المستحلف لك ، لإمامك وحجتك ، وأنت الحالف لهما ، وإن نويتَ أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحملك عليه وأحلفك به ، فهذه اليمين من أوّلها إلى آخرها مجددة عليك لازمة لك ، لا يقبل الله منك إلا الوفاء بها ، والقيام بما عاهدتَ بينى وبينك . قل : نعم ، فيقول : نعم » .

فإذا أعطى الطالب على نفسه هذا العهد الوثيق ، قال له الداعى : إن الله تعالى لم يرض فى إقامة حقه وماشرعه لعباده ، إلا أن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس ، وأقامهم لحفظ شريعته على ما أراده الله تعالى ، فإذا تقرر ذلك فى نفس الطالب نقله إلى المرتبة الثالثة ، ويعرفه أن الأئمة سبعة ، قد رتبهم الله تعالى كما رتب الأمور الجليلة ، فإنه جعل الكواكب السيارة سبعة ، وجعل السموات سبعاً ، وجعل الأرضين سبعاً ، وهؤلاء الأئمة السبعة هم علىّ بن أبى طالب ، والحسن بن على والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب بزين العابدين ، ومحمد بن على ، وجعفر ابن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان .

والإسماعيلية كما يقول المقريزى : « مختلفون فى هذا القائم ، فمنهم من يجعله محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويُسقط إسماعيل بن جعفر ، ومنهم من يعدّ إسماعيل بن جعفر إماماً ثم يعدُّ ابنه محمد بن إسماعيل » .

فإذا تقرر عند الطالب أن الأئمة سبعة ، شرع الداعى فى ثلب بقية الأئمة

الذين تعتقد الإمامية فيهم الإمامة ، وأخذ يؤكد لتلميذه أن محمد بن إسماعيل عنده علم المستورات و بواطن المعلومات التى لايمكن أن توجد عند أحد غيره ، وأن دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة ، ثم يشرع الداعى فى تقرير المرتبة الرابعة ، بعد أن يتيقن من صحة انقياد تلميذه لجميع ماتقدم ، وفى هذه المرتبة يحدّثه عن الأنبياء الناسخين للشرائع المبدّلين لأحكامها أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال ، وأنهم سبعة فقط كعدد الأئمة سواء ، وكل واحد من هؤلاء الأنبياء لابدّ له من صاحب ، يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته ؛ ويكون معه ظهيراً له فى حياته وخليفة له من بعد وفاته ، وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان صاحبه علىّ بن أبى طالب ، ثم من بعد علىّ ستة صمتوا على الشريعة المحمدية، وقاموا بميراث أسرارها ، وهم ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم على بن الحسين ، ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق ، أما ابنه محمد فهو صاحب الزمان ، الذى انتهى إليه علم الأولين ، وعلى جميع الناس اتباعه والخضوع له والانقياد إليه ، ثم ينتقل الداعى إلى المرتبة الخامسة ، وفيها يقرر أنه لابد لكل إمام قائم من أعوان ، هم حجج الله على خلقه ، متفرقون فى أنحاء الأرض وعليهم تقوم ، وعدتهم اثنا عشر رجلاً فى كل زمان ، ثم ينتقل الداعى إلى المرتبة السادسة ، وفيها يفسر شرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والحج والطهارة وغير ذلك من الفرائض بأمور مخالفة للظاهر ، وأن هذه الأشياء جاءت على جهة الرموز لمصلحة العامة وسياستهم ، حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، ولتصدّهم عن الفساد فى الأرض ... !

فإذا طال الزمان وصار الطالب يعتقد أن أحكام الشريعة كلها وُضعت على سبيل الرمز لسياسة العامة ، وأن لها معانى أخر غير مايدل عليه الظاهر ، نقله الداعى إلى الكلام فى الفلسفة ، وحضّه على النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو وفيثا غورس ، ونهاه عن قبول الأخبار والاحتجاج بالسمعيات ، وزيّن له الاقتداء بالأدلة العقلية

والتعويل عليها ، فإذا استقر ذلك عنده ، نقله إلى المرتبة السابعة ، وفيها يتحدث الداعى عن الناصب للشريعة وأنه لايستغنى بنفسه ، ولابدّ له من صاحب معه يعبر عنه ، ليكون أحدهما الأصل والآخر عنه كان وصدر ، ثم ينتقل إلى المرتبة الثامنة وفيها يشرح الداعى ويقرر أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب ، معناها سوى مايفهمه العامة ، وغير مايتبادر الذهن إليه ، وليس هو إلا حدوث أدوار عند انقضاء دور من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد ، جاء على ترتيب الطبائع ، ثم ينتقل الداعى إلى المرتبة التاسعة ، وهى النتيجة التى يحاول بتقرير جميع ماتقدم رسوخها فى نفس من يدعوه ، فإذا تيقن أن المدعوّ تأهل لكشف السر والإفصاح عن الرموز ، أحاله على ماتقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات ومابعد الطبيعة والعلم الإلهى . وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . حتى إذا تمكن الطالب من معرفة ذلك ، كشف الداعى قناعه ، وأخذ يشرح لتلميذه أن الوحى ماهو إلا صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهمه مايُلقى إليه ويتنزل عليه ، فيبرزه إلى الناس ويعبر عنه بكلام الله ، الذى ينظّم به النبى شريعته بحسب مايراه من المصلحة فى سياسة العامة ، ولايجب حينئذ العمل بها ، إلا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء ... ! ، بخلاف العارف فإنه لايلزمه العمل بها ، ويكفيه معرفته فإنها اليقين الذى يجب المصير إليه ... ! وماعدا المعرفة من سائر أمور الشرع فإنما هى أثقال وأوضار ، حملها الكفار أهل الجهالة ....!

فالأنبياء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة ، أما الفلاسفة فهم أنبياء حكمة الخاصة ....!!

ونحن لانشك أن هذه الدعوة الإسماعيلية هى بعينها ومراتبها دعوة ابن ميمون السرِّية الإلحادية التى كانت سبباً فى ثورة القرامطة الإباحية ، والقرامطة باطنية إسماعيلية ؛ فقد كان ابن ميمون من تلامذة جعفر الصادق ؛ قال ابن شهراشوب :

« عبد الله بن ميمون القدّاح المكى ، من أصحاب الصادق عليه السلام[١] » .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن من الإسماعيلية ، « الدروزَ » أتباع حمزة بن علىّ وأبى محمد الدرزى ، الذين يقولون بألوهية الخليفة الفاطمى الإسماعيلى الحاكم بأمر الله ، و يعتقدون رجعته إلى الدنيا .

والإسماعيلية اليوم من فرق الشيعة الواسعة الانتشار ، و إمامهم المعاصر هو الزعيم الهندى المعروف « أغا خان » أحد أثرياء العالم .

ومن « الإسماعيلية » و « البهرا » يتكون فى الهند الجانب الأكبر من المسلمين كما يحدثنا العلامة « هيار[٢] Huart » ، وهم منتشرون أيضاً فى الشام و إيران وأواسط آسيا بالقرب من « بلخ » ، وفى أفغانستان ، حيث يعرفون هناك باسم « مفتدى » ، كذلك يوجد منهم عدد كبير فى البلاد الواقعة فى حوض نهر جيحون الأعلى ، كما يوجدون أيضاً فى زنجبار وتنجانيقا ، و يعدون هناك بعشرات الألوف[٣] .

---

(١) معالم العلماء ص ٦٥ ط طهران .

(٢) أنظر مادة « الإسماعيلية » بدائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢ ص ١٨٧ من الترجمة العربية

(٣) المصدر السابق .

الفصل الخامس

أدب المهدية عند الشيعة

أدب الشيعة بوجه عام ، أدب حزين مكلوم ؛ تشيع الدموع بين طواياه ، فتطالعك بها سطوره ، وتدعوك إليها ألفاظه حتى ليكاد يبكيك . وهو أدب صادق ، فاض به نبع خالص فياض ؛ تطالعه فلا تحس دجلاً مستوراً فى زخرف القول ، أو نفاقاً مبرقعاً بصنعة اللفظ وتهريج الكلم ، بل إنك لتكاد تحس بالنفوس مذابة فى كلمات ، وبالأرواح سيالة فى سطور . وهو مع هذا سلس لا تعقيد فيه ولا صنعة ، لاتكاد تبدأ فى قراءة القصيدة من شعره ، حتى تسلمك البداية إلى النهاية ، فى جو حزين مليء بالعواطف ، دون تعثّر بحوشى اللفظ ، أو إسفاف وتدلٍ إلى بهرج الصنعة الزائف ؛ تأخذك دموعه ، كما يأخذك جرسه فى الأذن ووقعه فى القلب . وإنك لتلمس ذلك واضحاً أيما وضوح فى أشعار « دعبل » و « هاشميات » الكميت .

ولقد كان لتاريخ الشيعة السياسى ، ولما ذاقه العلويون من صنوف المحن والمظالم ، أثر كبير فى طبع هذا الأدب بطابع الحزن والصدق والقوة الفنية . وهو فى جملته يكاد يدور حول مناقب علىّ بن أبى طالب ، وإمامته ووصايته واغتصاب حقه فى الخلافة ، ثم فى مقاتل الطالبيين ، والنياحة على قبورهم والإشادة بفضائلهم . وصبّ اللعنات على ظالميهم ، والتقرب من أحيائهم ، والتوسل بأمواتهم ، كل ذلك حسبة لله تعالى وزلفى إليه .

بيد أن الشاعر المتشيع كثيراً ماتدفعه حماسته لآل البيت ، إلى الإغراق فى شعره والغلوّ فيه إلى حد بعيد ، تدفعه إلى ذلك عقيدته المقدسة فى « الإمام » الذى يكاد الشاعر يرتفع به إلى مصاف الآلهة ؛ كما فى قول ابن هانئ الأندلسى فى المعزّ لدين الله الفاطمى :

ماشئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار !

وكما فى أشعار « العاملى » التى سنأتى عليها بعد حين .

ولقد كان لعقيدة « المهدى » عند الشيعة نصيب كبير من أدبهم ، فشغلت منه صحائف رائعة حقاً ، والذى يعنينا فى هذا المقام ، هو هذا الأدب الذى يدور حول « المهدى » أو يتصل به بسبب أو نسب . وسنقصر حديثنا فى هذا الصدد على شعراء ثلاثة ، يعتبرون بحق من فحول شعراء الشيعة فى القديم والحديث ، وهم : كثيِّر عزّة ، والسيد الحميرى ، وبهاء الدين العاملى .

كثيِّر عزّة :

هو الشاعر الغزلى المشهور ، أبو صخر كثيِّر بن عبد الرحمن ، كان كما يقول صاحب الأغانى :

« من فحول شعراء الإسلام ، وجعله ابن سلاّم فى الطبقة الأولى منهم ، وقرن به جريراً والفرزدق والأخطل والراعى ، وكان غالياً فى التشيع ، يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ ، وكان مُحمَّقاً مشهوراً بذلك ، وكان آل مروان يعلمون بمذهبه ، فلا يغيرهم ذلك لجلالته فى أعينهم ، ولطف محله فى أنفسهم وعندهم ، وكان من أتيه الناس وأذهبهم بنفسه على كل أحد »[١] .

فكثيِّر شاعر كيسانى كربى[٢] ، يدين بمهدية محمد بن الحنفية وبقائه حيًّا بجبال رضوى ، وخروجه يوماً ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ...

ولقد كان يدين بالتناسخ ، دخل يوماً على عمة له يزورها — وكانت تكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها — فقال لها : والله ما تعرفيننى ولا تكرميننى حق كرامتى ، قالت : بلى ، والله إنى لأعرفك . قال : فمن أنا ؟ قالت : فلان بن فلان

---

(١) أنظر الأغانى ج ٩ ص ٤ ط الدار .

(٢) الكربية أتباع أبى كرب الضرير ، وهم إحدى فرق الكيسانية التى قالت بمهدية ابن الحنفية وحياته بجبل رضوى كما أوضحنا ذلك من قبل .

وابن فلانة ، وجعلت تمدح أباه وأمه ، فقال : قد علمت أنك لا تعرفيني ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا يونس بن متّى[١] . . . !

وكان طبعياً أن يدين بالرجعة ، دخل عليه عبد الله بن حسن ، بن حسن بن علىّ ابن أبى طالب ، يعوده فى مرضه الذى مات فيه ، فقال له كثيِّر : أبشرْ فكأنك بى بعد أربعين ليلة ، قد طلعتُ عليك على فرس عتيق ، فقال له عبد الله بن حسن : مالك ؟ ! عليك لعنة الله ، فوالله لئن متّ لا أشهدك ، ووالله لا أعودك ولا أكلمك أبداً[٢] . . .

ولقد بكاه بعض أهله فى مرض موته فقال له : لاتبك فكأنى بك بعد أربعين يوماً تسمع خشفة[٣] نعلى من تلكم الشعبة راجعاً إليكم[٤] . . . !

ولقد تبرأ كثيِّر من الخلفاء الثلاثة الأول ، إذ رآهم مغتصبين لحق علىّ فى الخلافة ، فقال[٥] :

برئتُ إلى الإله من ابن أروى ... ومن قول الخوارج أجمعينا
ومن عمرٍ برئتُ ومن عتيق ... غداةَ دُعى أمير المؤمنينا

وقد أجابه البغدادى بقوله[٦] :

برئتَ إلى الإله ببغض قوم ... بهم أحيا الإله المؤمنينا
وما ضرَّ ابنَ أروى منك بغضٌ ... وبغض البرِّ دين الكافرينا
أبو بكر لنا حقاً إمام ... على رغم الروافض أجمعينا
وفاروق الورى عمر بحق ... يقال له أمير المؤمنينا

---

(١) الأغانى حـ ٩ ص ١٩
(٢) المصدر السابق ص ١٧
(٣) خشفة النعل : صوتها .
(٤) الأغانى حـ ٩ ص ٣٦
(٥) أنظر شرح ديوان كثير حـ ١ ص ٢٦٩ ط الجزائر ، وانظر أيضا العقد الفريد لابن عبد ربه حـ ٢ ص٤٠٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، والفرق بين الفرق للبغدادى ص٢٨
(٦) الفرق بين الفرق ص ٢٨

والحق أن كثيِّراً كان صادقاً كل الصدق فى تشيعه ، وإن كان كاذباً كل الكذب فى عشقه ، منافقاً كل النفاق فى سياسته ، ولقد مات بالمدينة عام ١٠٥ هـ قال ابن سلّام :

« مات كثيِّر وعكرمة مولى ابن عباس فى يوم واحد ، فاختلفت قريش فى جنازة كثيِّر ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله[١] » .

وفى ابن خلكان :

« عن الواقدى قال مات عكرمة مولى ابن عباس وكثيِّر عزّة فى يوم واحد فى سنة خمس ومائة ، فرأيتهما جميعاً ، صُلِّى عليهما فى موضع واحد ، فقال الناس : مات أفقه الناس وأشعر الناس ، وكان موتهما بالمدينة[٢] » .

ولقد عاصر كثيِّر ، محمد بن الحنفية ، الذى كان يحبه و يعطف عليه و يتلطف به ، لنضاله عن آل البيت ، وقد افتخر كثيِّر بذلك فقال[٣] :

أقرَّ الله عينى إذ دعانى ... أمين الله يلطف فى السؤال
وأثنى فى هواى علىَّ خيراً ... وساءل عن بنىَّ وكيف حالى
وكيف ذكرتُ حالَ أبى خبيب[٤] ... وزلّة فعله عند السؤال
هو المهدىُّ خبَّرناه كعب ... أخو الأحبار فى الحقب الخوالى

وعندما حبس عبد الله بن الزبير ، محمد بن الحنفية فى سجن عارم بمكة — انتقاماً منه ومن بنى هاشم جميعاً ، لرفضهم مبايعته والتعاون معه كما أوضحنا ذلك من قبل — أنشد كثيِّر[٥] :

(١) طبقات الشعراء ص ١٨٤ ط السعادة .
(٢) انظر وفيات الأعيان حـ ١ ص ٤٣٥ ط الحلبى ، وانظر أيضاً « شذرات الذهب » لابن العماد حـ ١ ص ١٣٠ وما بعدها .
(٣) الأغانى حـ ٩ ص ١٦ ، والديوان حـ ١ ص ٢٧٥
(٤) كنية عبد الله بن الزبير ، وكان مبخلا .
(٥) الأغانى حـ ٩ ص ١٥ ، وانظر الديوان حـ ١ ص ٢٧٨ ، وانظر أيضاً الكامل للمبرد حـ ٧ ص ١٣١ نشر المرصفى .

من يرى هذا الشيخ بالخيف من منى ... من الناس يعلم أنه غير ظالم
سميُّ النبي المصطفى وابن عمه ... وفكّاك أغلال ونفّاع غارم
أبَى فهو لا يشرى هدى بضلالة ... ولا يتقى فى الله لومة لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه ... حلولاً بهذا الخيف خيف المحارم
بحيث الحمام آمن الروع ساكن ... وحيث العدوُّ كالصديق المسالم
فما فرحُ الدنيا بباق لأهله ... ولا شدة البلوى بضربة لازم
تُخبِّر من لاقيتَ أنك عائذ[1] ... بل العائذ المظلوم فى سجن عارم

* * *

السيد الحميرى :

أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة الحميرى ، شاعر الشيعة الكيسانية غير مدافع ، وقد كان جده يزيد شاعراً فحلاً مشهوراً ، هجا زياد بن سُمية و بنيه ، ونفاهم عن آل حرب ، فحبسه عبيد الله بن زياد وعذبه ، ثم أطلقه معاوية . وقد كان السيد كجده ، شاعراً متقدماً مطبوعاً مكثراً ، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره ، لما كان يفْرط فيه من سبٍّ أصحاب رسول الله وأزواجه كما يقول صاحب الأغانى[2] ، ولكن بالرغم من ذلك ، فإنا نجد سنّياً كبيراً ومحدثاً مشهوراً كالدارقطنى يحفظ ديوانه ، ويقول فى حقه بشار : « لولا أن هذا الرجل شغل عنّا بمدح بنى هاشم لأتعبنا[3] » .

ولد شاعرنا لأبوين خارجيين إباضيين ، كان منزلها بالبصرة فى غرفة بنى ضبّة ، التى طالما سُبَّ فيها علىّ بن أبى طالب ، كما يخبرنا السيد عن أبويه ، فإذا سئل الشاعر عن هذا التشيع من أين وقع له ؟ قال : « غاصت علىّ الرحمة غوصاً[4] » ، ولما علم

---

(١) لقب ابن الزبير .
(٢) الأغانى حـ ٧ ص ٢٢٩ ط الدار .
(٣) ابن شهراشوب « معالم العلماء » ص ١٣٤ ط طهران .
(٤) الأغانى حـ ٧ ص ٢٣٠

أبواه بتشيعه ، همَّا بقتله ، فأتى عقبة بن مسلم الهُنائى مستجيراً ، فأجاره و بوأه منزلاً وهبه له ، فـكان فيه حتى مات أبواه فورثهما .

والحميرى كصاحبه كثيِّر ، صادق فى تشيعه منافق فى سياسته مع بنى العباس ، ولقد كان الحميرى مُلهماً فى شعره ، بالغاً به حدَّ الروعة والإعجاب ؛ و إنه ليحدثنا عن شاعريته الفذَّة هذه فيدّعى أنهـا نفحة من نفحات الرسول عليه السلام فى حلم رآه ، ولم يفته أن يقصه علينا فيقول :

« رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، وكأنه فى حديقة سبخة فيها نخل طوال ، و إلى جانبها أرض كأنها الـكافور ، ليس فيها شىء فقال : أتدرى لمن هذا النخل ؟ قلت : لا يا رسول الله . قال : لامرئ القيس بن حُجْر ، فاقلعها واغرسها فى هذه الأرض ففعلت » . وأتيتُ ابن سيرين فقصصت رؤياى عليه ، فقال : أتقول الشعر ؟ قلت : لا . قال : أما إنك ستقول شعراً مثل شعر امرئ القيس ، إلاَّ أنك تقوله فى قوم بررة . قال : فما انصرفت إلا وأنا أقول الشعر[١] » !

والحق أن صاحبنا لم يكن قط بحاجة إلى هذا الحلم العجيب ، ليناضل عن شعره أو تشيعه ، فـكلاهما كان من القوة بحيث لا يحتاج إلى مثل هذه الدعامة الأسطورية التى نقرؤها مبتسمين .

ولقد كان الحميرى كصاحبه كثيِّر يدين بمهدية ابن الحنفية ، و بقائه حياً بجبل رضوى عنده عسل وماء ، عن يمينه أسد وعن يساره نمر ، يحفظانه إلى أن يؤمر بالخروج ، فيملأ الدنيا عدلاً . . .

ومن شعره فى ذلك ، تلك الأبيات الرائعة الذائعة ، التى تنسب أيضاً لـكثيِّر لتشابه الشاعرين فى المنزع والعقيدة ، يقول الحميرى[٢] :

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٨ ، وقد نسب هذه الأبيات إلى كثير ، وانظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ٣٨ ، ومراجع الأدب تخلط فى نسبتها إلى الشاعرين ، أنظر الأغانى جـ ٩ ص ١٤ حيث نسبها لـكثير ، مع أنه قد عزاها قبل ذلك مع شىء من الاختلاف فى الرواية للسيد الحميرى أنظر جـ ٧ ص ٢٤٥ ، وقد جعلهـا شارح ديوان كثير المطبوع بالجزائر من الشعر المنحول له .

أَلَا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
عليٌّ والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ[١] سبط إيمان وبرٍّ وسبطٌ[٢] غيَّبته كربلاء
وسبطٌ[٣] لايذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيَّب لا يُرَى فيهم زماناً برضوى عنده عسلٌ وماء

وقد أجابه عبد القاهر البغدادى بقوله[٤] :

ولاةُ الحق أربعة ولكن لثانى اثنين قد سبق العلاء
وفاروق الذى أضحى إماماً وذو النورين بعدُ له الولاء
عليٌّ بعدهم أضحى إماماً بترتيب لهم نزل القضاء
ومبغضُ من ذكرناهم لعينٌ وفى نار الجحيم له الجزاء
وأهلُ الرفض قومٌ كالنصارى حيارى وما لحيرتهم دواء

ولخطر شعر الحميرى ومكانته ، حاولت الإمامية[٥] الجعفرية جذبه بعد موته إلى صفوفها ، لتنال بذلك حظاً كبيراً من القوة وقسطاً وافراً من الأيْد ، وقد عدّه ابن شهراشوب من أصحاب الصادق[٦] ، وزعمت الجعفرية أنه تاب من كيسانيته ، وأناب إلى جعفر الصادق بقوله[٧] :

تجعفرتُ باسم الله والله أكبر وأيقنتُ أن الله يعفو ويغفر

أو بقوله :

تجعفرتُ باسم الله فى من تجعفرا

---

(١) الحسن بن على .
(٢) الحسين بن على .
(٣) محمد بن الحنفية .
(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٨
(٥) أتباع جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .
(٦) معالم العلماء ص ١٣٤
(٧) أنظر الأغانى حـ ٧ ص ٢٣٥

وتكاد فسولة هذا الشعر الساقط ، وهلهلة نسجه وركاكة لفظه ، تعلن بنفسها أنه ليس من الحميرى الفحل فى نسب أو سبب ، قريب أو بعيد ؛ ويقول الأغانى بحق : « وما وجدنا ذلك فى رواية محصِّل ، ولا شعره (الحميرى) أيضاً من هذا الجنس ولا فى هذا المذهب ؛ لأن هذا شعر ضعيف يتبين التوليد فيه ، وشعره فى قصائده الكيسانية ، مباين لهذا جزالة ومتانة ، وله رونق ومعنى ليسا لما يُذكر عنه فى غيره[(١)] » .

ويحدثنا الأغانى أيضاً ، أصدق حديث عن راوية الحميرى ، أبى داود سليمان ابن سفيان الذى قال : « ما مضى والله إلا على مذهب الكيسانية[(٢)] » ، ونسب الراوية هذه الأشعار الجعفرية الوضيعة ، لغلام للسيد يقال له قاسم الخياط ، قالها ونحلها سيده السيد ، فجازت على كثير من الناس ممن لا يعرف خبرها ؛ وذلك لمحل قاسم هذا من مولاه وخدمته إياه[(٣)] .

ويحدثنا الأصفهانى : أن جماعة ذكروا رجوع الحميرى عن مذهبه فى ابن الحنفية بحضرة راويته الثانى المعروف بابن الساحر ، فنفى ذلك بقوله[(٤)] : « والله ما رجع عن ذلك ولا القصائد الجعفريات إلا منحولة له ، قيلت بعده ، وآخر عهدى به قبل موته بثلاث ، وقد سمع رجلاً يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لعلىّ عليه السلام : « إنه سيولد لك بعدى ولد وقد نحلته اسمى وكنيتى » ، فقال فى ذلك ، وهى آخر قصيدة قالها :

أشاقَتْكَ المنازل بعد هند ... وتِرْبَيْها وذات الدَّلِّ دعد
منازل أقفرت منهن محَّت ... معالمهن من سَبَلٍ[(٥)] ورعد

---

(١) الأغانى حـ ٧ ص ٢٣٦ ط الدار .
(٢) المصدر السابق ص ٢٣١
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٣
(٥) السبل : المطر

وريحٍ حَرْجَفٍ[١] تَسْتَنُّ[٢] فيها ... بسافى الترب تُلْحِمُ ما تُسدّى
ألم يبلغك والأنباء تَنْمِى ... مقالُ محمد فيما يؤدى
إلى ذى علمه الهادى علىٍّ ... وخولةُ[٣] خادمٌ فى البيت تردى[٤]
ألم تر أن خولة سوف تأتى ... بوارى الزَّند صافى الخيم[٥] نجد
يفوز بكنيتى واسمى لأنى ... نحلتهماه والمهدىُّ بعدى
يُغَيَّبُ عنهمُ حتى يقولوا ... تضمّنه بطيبة بطنُ لحد
سنين وأشهراً ويُرى برضوى ... بشِعب بين أنمار وأُسْد
مقيمٌ بين آرامٍ وعينٍ ... وحفّانٍ[٦] تروح خلال رُبْد[٧]
تراعيها السباع وليس منها ... ملاقيهن مفترساً بحد
أمِنَّ به الردى فرتعن طوراً[٨] ... بلاخوف لدى مَرْعًى ووِرْد
حلفتُ برب مكة والمصلى ... وبيتٍ طاهر الأركان فرد
يطوف به الحجيج وكلّ عام ... يحل لديه وفدٌ بعد وفد
لقد كان ابنُ خولة غير شك ... صفاءَ ولايتى وخلوص ودّى
فما أحدٌ أحبّ إلىّ فيما ... أُسِرُّ وما أبوح به وأُبدى
سوى ذى الوحى أحمد أو علىٍّ ... ولا أزكى وأطيب منه عندى
ومن ذا يا ابن خولة إذ رمتنى ... بأسهمها المنيةُ حين وعدى
يُذَبِّبُ عنكمُ ويسدُّ مما ... تثلَّم من حصونكمُ كسدِّى

---

(١) حرجف : باردة .
(٢) تستن : تقبل وتدبر .
(٣) اسم امرأة من بنى حنيفة ، هى أمّ محمد بن على بن أبى طالب .
(٤) تردى : تلعب .
(٥) الخيم : الطبيعة والسجية .
(٦) حفان : صغار النعام .
(٧) الربدة : لون يختلط سواده بكدرة ، والمراد هنا بالربد : المراتع .
(٨) كذا فى الأغانى ، وجاء فى الحاشية « لعله (صوراً) جمع صوراء ، وهى المائلة العنق ، على أن يكون المراد أنها لاترفع رأسها خوف مايزعجها » .

وما لى أن أُمَرَّ به ولـكن ... أؤمل أن يؤخَّر يومُ فقدى
فأدركُ دولة لك لستَ فيها ... بجبـار فتوصف بالتعدِّى
لِتَعْلُ بنا عليهم حيث كانوا ... بغورٍ من تهـامة أو بنجد
إذا ما سرتَ من بلد حرام ... إلى مَن بالمدينة من معـدِّ

وهذه القصيدة من أمتع ماقيل فى ابن الحنفية ، وهى من روائع الشعر العربى و بدائعه.

ومن شعر الحميرى فى ابن الحنفية أيضاً قوله [١] :

ألا قل للوصىّ فدتك نفسى ... أطلتَ بذلك الجبل المقـاما
أضرَّ بمعشر والَوك منّـا ... وسمَّوك الخليفـة والإماما
وعادَوا فيك أهـل الأرض طراً ... مقـامُك عندهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ... ولا وارت له أرضٌ عظـاما
لقد أوْفى بمورِق شِعب رضوى ... تراجعـه الملائـكة الـكلاما
وإنَّ له به لمقيل صدقٍ ... وأندية تحـدثه كراما
هدانا الله إذ جرتم لأمرٍ ... به ولديه نلتمس التمـاما
تمـام مودة « المهـدىّ » حتى ... ترَوا راياتنـا تترى نظـاما

وقد أجابه البغدادى بقوله [٢] :

لقـد أفنيتَ عمرك بانتظـارٍ ... لمن وارى الترابُ له عظاما
فليس بشِـعب رضواكم إمامٌ ... تراجعه الملائـكة الـكلاما
وقد ذاق ابنُ خولة طعم موت ... كما قد ذاق والده الحماما
ولو خـلد امرؤ لعـلوّ مجـدٍ ... لعـاش المصطفى أبداً دواما
ولـكن كلُّ من فى الأرض فانٍ ... كذا حكمَ الذى خلق الأناما

(١) الأغانى حـ ٩ ص ١٤ ط الدار ، والتبصير فى الدين للاسفراينى ص ١٩ ، ومختصر الفرق للرسعنى ص ٣٩ والبداية والنهاية لابن كثير حـ ٩ ص ٣٩

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٩ حيث أسند الأبيات إلى كثير ، مع أن الرسعنى فى المختصر أسندها إلى الحميرى .

ويقول الحميرى فى إيمان عميق ، وتحسر ظاهر ولهفة بالغة :

يا شِعب رضوى مالمن بك لا يُرى ... حتى متى تخفى وأنت قريب ؟
يا ابن الوصىّ ويا سمىّ محمد ... وكَنِيَّه نفسى عليك تذوب
لو غاب عنّا عمر نوح أيقنت ... منّا النفوس بأنه سيؤوب

ومن شعره الباكى قوله [1] :

أُمْرُرْ على جدث الحسـ ... ـين فقل لأعظُمه الزكيه
آ أعظماً لا زلتِ من ... وطفاء [2] ساكبة رويّه
وإذا مررتَ بقبره ... فأَطِلْ به وقْف المطيَّه
وابك المطهَّر للمطهَّـ ... ـر والمطهرة النقيه
كبكاء معولة أتت ... يوماً لواحدها المنيه

ومن قوله متبرئاً من الشيخين أبى بكر وعمر [3] :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمـد ... ولا عهده يوم الغدير المؤكدا
فإنى كمن يشرى الضلالة بالهدى ... تنصَّر من بعد التقى وتهوَّدا
ومالى وتيم أوعدىٍّ وإنما ... أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا
تتم صلاتى بالصلاة عليهمُ ... وأدعو لهم ربّا كريماً ممجَّدا
بذلتُ لهم وُدِّى ونصحى ونصرتى ... مدى الدهر ماسميتُ ياصاح سيدا

ولقد كان الحميرى ساخطاً كلَّ السخط على أبى بكر وعمر ، لاغتصابهما — فيما يزعم — حق علىّ فى الخلافة ؛ روى الأغانى أن الأمير العباسى « المهدى » جلس يوماً يُعطى قريشاً صلاتٍ لهم — وهو ولىُّ عهد — فبدأ ببنى هاشم ثم بسائر قريش ، فجاء الحميرى ورفع إلى الربيع بن يونس بن محمد الحاجب رقعة مختومة وقال : إن فيها نصيحة للأمير فأوصِلْها إليه ، فأوصَلها فإذا فيها :

---

(١) الأغانى حـ ٧ ص ٢٤٠

(٢) سحابة وطفاء : كثيرة الماء

(٣) الأغانى حـ ٧ ص ٢٦٣ ط الدار .

قل لابن عباسٍ سميِّ محمدٍ ... لا تُعطينَّ بنى عديٍّ درهما
احرِمْ بنى تيم بن مُرَّة إنهم ... شرُّ البرية آخراً ومُقدَّما
إن تُعطهم لا يشكروا لك نعمةً ... ويكافئوك بأن تُذَمَّ وتُشْتَما
وإنِ ائتمنتهمُ أو استعملتهم ... خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتَهمُ لقد بدءوكمُ ... بالمنع إذ مَلكوا وكانوا أظلما
منعوا تراث محمدٍ أعمامَه ... وابنيه وابنته عديلة مريما
وتأمَّروا من غير أن يُستخلَفوا ... وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامَه ... أفيشكرون لغيره إنْ أنعما ؟
واللهُ منَّ عليهمُ بمحمدٍ ... وهداهمُ وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبرَوا لوصيِّه ووليِّه ... بالمنكرات فجرَّعوه العلقما

قال أبو الفرج فرمى بها المهدى إلى كاتبه أبى عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعرى وقال له : « اقطع العطاء فقطعه ؛ وانصرف الناس ، ودخل السيد إليه فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ، ولم يعطهم شيئاً »[1] .

وقد مات السيد الحميرى ببغداد عام ١٧٩ هـ ، بعد أن خلّف ثروة شعرية طائلة ؛ ذكر ابن المعتز فى طبقات الشعراء أنه رأى فى بغداد حمالاً يحمل حملاً ثقيلاً ، فسأله عن حمله ؟ فقال : ميمات السيد[2] . . . !

* * *

بهاء الدين العاملى

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد ، الملقب ببهاء الدين الحارثى العاملى الهمدانى[3] ولد ببعلبك عند غروب شمس يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقين من ذى الحجة عام ٩٥٣ هـ ،

---

(١) الأغانى ﺣ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها ط الدار .
(٢) أنظر ابن شهراشوب السروى : معالم العلماء ص ١٣٥ ط طهران .
(٣) نسبة إلى قبيلة « حرث همدان » ، وجد الشاعر هو الذى خاطبه الخليفة الرابع على بن أبى طالب بقوله : ياحار ، ياحارث ، تارة بالترخيم وأخرى بالتتميم .

وقد كان والده الشيخ حسين ، علماً من أعلام الشيعة وأحد كبار علمائها بجبل « عامل » ، وقد تتلمذ للشهيد الثانى الشيخ زين الدين ، الذى قضى عليه الأتراك وقتلوه لتشيّعه ، فلم يطق الشيخ حسين صبراً على البقاء بعد كارثة أستاذه ، فارتحل بابنه الصبى بهاء الدين إلى إيران ، موطن الدعوة الشيعية ومسرح دعاتها تحت سلطان الدولة الصفوية المتشيعة .

وفى إيران جدَّ بهاء الدين فى تحصيل العلوم لا سيما الدينية منها ، وتتلمذ لوالده ، كما أخذ عن غيره من كبار علماء الشيعة ، وسرعان ما تفتق ذكاؤه ، فعلا نجمه وذاع صيته وارتفعت مكانته ، حتى تولى مشيخة الإسلام فى أصفهان ، ثم اعتزم زيارة الأقطار الحجازية ؛ لأداء فريضة الحج فتوجه إليها ، وكان مولعاً بالتنقل مشغوفاً بالرحلة والأسفار ، فطوف فى مصر والشام والعراق — وهو بزى الدراويش — سنين طويلة ، قيل إنها بلغت الثلاثين عدّا ، وقد كان فى سياحته هذه يخفى شخصيته ويكتم أمره ، ولا يرغب فى أن يعرفه أحد ، وبعد هذا التجوال وذلك التطواف فى تلك الأعوام الكثيرة المتطاولة ، رجع إلى أصفهان ، قال المنينى :

« فقطن بأرض العجم ، وهناك همى غيث فضله وانسجم ، فألّف وصنّف ، وقرّط المسامع وشنّف ، وقصدته علماء تلك الأمصار ، واتفقت على فضله أسماعهم والأبصار ، وغالت تلك الدولة فى قيمته ، واستمطرت غيث الفضل من ديمته ، فوضعته على مفرقها تاجا ، وأطلعته فى مشرقها سراجاً وهّاجا ، وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس ، واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس ، فكان لا يفارقه سفراً ولا حضرا ، ولا يعدل عنه سماعاً ونظرا ، وكانت له دار مشيدة البناء ، رحبة الفناء ، يلجأ إليها الأيتام والأرامل ، ويفد عليها الراجى والآمل ، فكم مهد بها وضع ، وكم طفل بها رضع ، وهو يقوم بنفقتهم بكرة وعشيّا ، ويوسعهم من جاهه جناباً مغشيّا [1] » .

---

(١) أنظر الكشكول ص ٣٩٥ ط بولاق ، وانظر كذلك خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ج ٣ ص ٤٤٠ .

ويقول شهاب الدين الخفاجى :

« بهاء الدين بن الحسين العاملى الحارثى الشامى أصلاً ومحتدا ، الفارسى منشئاً ومولدا .

« فاضل لمعت من أفق الفضل بوارقه ، وسقاه من مورده النمير عذبه ورائقه ، لايدرك بحر وصفه الإغراق ، ولاتلحقه حركات الأفكار ، لو كان فى مضمار الدهر لها السباق ، زيّن بمآثره العلوم النقلية والعقليه ، وملك بنقد ذهنه جواهرها السنيه ، لاسيما الرياضات فإنه راضها ، وغرس فى حدائق الألباب رياضها ، وهو فى ميدان الفصاحة فارس أى فارس ، وإن كان غصنه أينع وربا بربوة فارس ، فإن شجرته نبتت عروقها بنواحى الشام الزاهية المغارس ، والعرق نزّاع ، وإن أثّر الجوار فى الطباع .

« ولما تدفق ماء كرمه خرج منها سائحا ، بعد ما ألقى دلوه فى الدلاء ماتحا ، لابساً خِلع الوقار ، قاطفاً من رياض الكون ثمرات الاعتبار ، فجاب البلاد ، وأتى إرم مصر ذات العماد ... » . إلى أن قال :

« وكان رئيس العلماء عند عباس شاه سلطان العجم ، لا يصدر إلا عن رأيه إذا عقد ألوية الهمم ، إلا أنه لم يكن على مذهبه فى زندقته وإلحاده ، لانتشار صيته فى سداد دينه ورشاده ، إلا أنه علوىٌّ بلامَيْن ، وهو عند العقلاء أهون الشرّين ، فإنه أظهر غلوّه فى حب آل البيت ، وجارى حلبة ولاء الكميت ، وأنشد لسان حاله لكل حىّ وميْت .

إن كان رفضاً حبُّ آل محمدٍ فليشهد الثقلان أنى رافضى

« وشعره باللسانين مهذّب محرّر ، وبالفارسية أحسن وأكثر ، ولما ساح فى البلدان واجتمع بمن فيها من الأعيان ، عاد بدر ذاته لفلك أقطاره ، فعانق فى أوطانه عقائل أوطاره ، وهو الآن (القرن الحادى عشر الهجرى) قرّة عين مجدها ، وغُرَّة جبين سعدها ، تطوف بحرمه وفود الأفاضل ، وتتوجه شطره وجوه الآمال من كل فاض

بنعيم مقيم تتحدث عنه طروس الأسفار ، وتكتحل بإثمد مداده عيون الطروس والأسفار[١] » .

وقد كان العاملى مؤلفاً مكثراً ؛ إذ كان بحق دائرة معارف ؛ فصنّف موسوعتيه « الكشكول » و « المخلاة » وكتب فى فقه الشيعة وأصول الفقه والتفسير والحديث ، والنحو والبلاغة ، والهيئة والفلك والحساب والهندسة ، حتى الجفر والرمل والطلاسم ، مما يدل دلالة لا تقبل الشك على أنه كان يتمتع بسعة فى العقل ، وبعد أفق فى التفكير . وشاعرنا هذه المرة اثنا عشرى ، يقول بمهدية محمد بن الحسن العسكرى ، وله فيه شعر رائع أودعه كتابه « الكشكول » ، وقد توفى بهاء الدين فى ١٢ شوال عام ١٠٣١ هـ = ١٦٦٢ م بأصفهان ، ثم نقل جثمانه إلى طوس ودفن بداره ، على مقربة من مسجد علىّ الرضا .

ومن شعره فى محمد بن الحسن ، هذه القصيدة الضافية التى أسماها « وسيلة الفوز والأمان فى مدح صاحب الزمان » وقد شرحها فى نهاية « الكشكول » ، شارحُه أحمد بن على المنينى ، قال فيها بهاء الدين[٢] :

سرَى البرق من نجد فجدَّد تَذْكارى عهوداً بحُزْوَى والعُذَيب وذى قار
وهيَّج من أشواقنا كل كامنٍ وأجَّج فى أحشائنا لاعج النار
ألا يا لييلات الغُوَير وحاجرٍ سُقيتِ بهطّالٍ من المزن مدرار
ويا جيرةً بالمأزمين خيامُهم عليكم سلامُ الله من نازح الدار
خليلىَّ ما لى والزمان كأنما يطالبنى فى كل وقت بأوتار
فأبعد أحبابى وأخلى مرابعى وأبدلنى من كل صفوٍ بأكدار
وعادل بى من كان أقصى مرامه من المجد أن يسمو إلى عشر معشارى
ألم يدر أنى لا أزال لخطبه وإن سامنى خسفاً وأرخص أسعارى
مقامى بفرق الفرقدين فما الذى يؤثّره مسعاه فى خفض مقدارى

(١) ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ص ١٠٣ ط بولاق عام ١٢٧٣ هـ .
(٢) الكشكول ص ٣٩٨ ط بولاق .

وإني امرؤٌ لا يدرك الدهر غايتي ولا تصل الأيدي إلى سرِّ أغواري

* * *

ويصمى فؤادي ناهدُ الثدي كاعبٌ بأسمر خطّارٍ وأحور سحَّار

وإني سخيٌّ بالدموع لوقفةٍ على طلل بالٍ ودارس أحجار

وما علموا أني امرؤ لا يروعني توالى الرزايا في عشيٍّ وإبكار

* * *

ومعضلةٍ دهماء لا يُهتدى لها طريق ولا يهدى إلى ضوئها السارى

تشيب النواصى دون حلِّ رموزها ويحجم عن أغوارها كلُّ مغوار

أجلتُ جياد الفكر في حلباتها ووجهتُ تلقاها صوائبَ أنظارى

* * *

أأضرع للبلوى وأغضى على القذى وأرضى بما يرضى به كلُّ مخوار

وأفرح من دهرى بلذة ساعةٍ وأقنع من عيشى بقُرصٍ وأطمار ؟

إذاً لا وَرَى زَندى ولا عزَّ جانبي ولا بزغت في قمة المجد أقمارى

ولا انتشرت في الخافقين فضائلي ولا كان في « المهديِّ » رائقُ أشعارى

خليفة رب العالمين فظلُّه على ساكن الغبراء من كل ديَّار

هو العروة الوثقى الذي من بذيله تمسَّك لا يخشى عظائم أوزار

إمام هدًى لاذ الزمان بظلِّه وألقى إليه الدهر مِقود خوَّار

* * *

علوم الورى في جنب أبحر علمه كغرفة كفٍّ أو كغمسة منقار

فلو زار أفلاطون أعتاب قدْسه ولم يُعشه عنها سواطعُ أنوار

رأى حكمةً قدسية لا يشوبها شوائبُ أنظار وأدناس أفكار

بإشراقها كلُّ العوالم أشرقت لِمَا لاح في الكونين من نورها السارى

إمامُ الورى طود النهى منبع الهدى وصاحب سرّ الله في هذه الدار ! !

به العالَمُ السفلىُّ يسمو ويعتلى على العالَمِ العلوىِّ من دون إنكار
ومنه العقول العشر تبغى كمالها وليس عليها فى التعلم من عار
همامٌ لو السبع الطباق تطابقت على نقض ما يقضيه من حكمه الجارى
لنكّس من أبراجها كلَّ شامخ وسكَّن من أفلاكها كلَّ دوّار ! !

* * *

أيا حجَّة الله الذى ليس جاريًا بغير الذى يرضاه سابقُ أقدار !
ويا من مقاليد الزمان بكفّه وناهيك من مجدٍ به خصّه البارى
أغِث حوزة الإيمان واعمر ربوعه فلم يبق منها غيرُ دارس آثار
وأنقذ كتاب الله من يد عصبة عَصَوا وتمادَوا فى عُتُوٍّ وإصرار
وفى الدين قد قاسوا وعاثوا وخبَّطوا بآرائهم تخبيط عشواء معثار
وأنعش قلوبًا فى انتظارك قرِّحت وأضجَرها الأعداء أية إضجار
وخلِّص عباد الله من كل غاشم وطهّر بلاد الله من كل كفار
وعجّل فِداك العالمون بأسرهم وبادر على اسم الله من غير إنظار
تجِدْ من جنود الله خيرَ كتائبٍ وأكرمَ أعوانٍ وأشرفَ أنصار

* * *

أيا صفوةَ الرحمن دونك مدحةً كدرٍّ عقود فى ترائب أفكار
يهنا ابن هانى إنْ أتى بنظيرها ويعنو لها الطائىُّ من بعد بشّار
إليك البهائىُّ الحقير يزفّها كغانية ميَّاسة القدّ معطار
تغار إذا قيست لطافة نظمها بنفحة أزهار ونسمة أسحار
إذا رُدّدتْ زادت قبولاً كأنها أحاديث نجدٍ لا تملُّ بتكرار

* * *

وهاك قصيدة أخرى للعاملى فى مهديِّه ، مهدى الاثنى عشرية ، محمد بن الحسن

العسكرى ، لا تقل عن سابقتها قوة وروعة وغلوًّا وإغراقاً . قال [١] :

يا كراماً صبرُنا عنهم محـــالْ
إنَّ حالى من جفـا كم شرُّ حالْ
إنْ أتى من حيِّكم ريحُ الشمالْ
صرتُ لا أدرى يمينى من شمالْ

حبَّذا ريحٌ سَرَى من ذى سلمْ
عن رُبى نجـدٍ وسَلْع والعـلمْ
أذهبَ الأحزان عنّـا والألمْ
والأمانى أدركتْ والهمُّ زال

يا أخلاّئى بحُزوَى والعقيقْ
ما يطيق الهجرَ قلبى ما يطيقْ
هل لمشتاقٍ إليكم من طريقْ ؟
أمْ سددتم عنه أبواب الوصالْ ؟

لا تلومونى على فرط الضجرْ
ليس قلبى من حديدٍ أو حجرْ
فات مطلوبى ومحبوبى هجرْ
والحشا فى كل آنٍ فى اشتعالْ

من رأى وجدى لسكّان الحجونْ
قال ما هذا ؟ هوى هذا جنونْ !
أيها اللوّام ماذا تبتغون ؟
قلبىَ المضنى وعقلى ذو اعتقـالْ

---

(١) الـكشكول ص ٩٣ ط بولاق .

يا نزولاً بين جمع والصفا
يا كرام الحىِّ يا أهل الوفا
كان لى قلب حمولٌ للجفا

ضاع منِّى بين هاتيك التلالْ

يا رعاك الله يا ريح الصَّبا
إنْ تجزْ يوماً على وادى قُبا
سلْ أُهَيل الحىِّ فى تلك الرُبا

هَجْرُهم هذا دلال أم ملالْ ؟

جيرةٌ فى هجرِنا قد أسرفوا
حالُنا من بعدهم لا يوصفُ
إنْ جفَوا أو واصلوا أو أتلفوا

حبُّهم فى القلب باقٍ لا يزالْ

هم كرامٌ ما عليهم من مزيدْ
من يمت فى حبِّهم يمضِ شهيدْ
مثل مقتول لدى المولى الحميدْ

أحمدىّ الخلق محمود الفعالْ

صاحب العصر الإمام المنتظرْ
مَنْ بما يأباه لا يجرى القدرْ !!
حجَّة الله على كل البشرْ

خير أهل الأرض فى كل الخصالْ !

مَنْ إليه الكونُ قد ألقى القيادْ
مُجْرياً أحكامه فيما أرادْ

إنْ تزُلْ عن طوعه السبعُ الشدادْ

خرّ منها كلُّ سامى السمك عالْ !

شمسُ أوج المجد مصباحُ الظلامْ

صفوة الرحمن من بين الأنامْ

الإمام ابن الإمام ابن الإمامْ

قطبُ أفلاك المعالى والكمالْ

فاقَ أهلَ الأرض فى عزٍّ وجاهْ

وارتقى فى المجد أعلى مرتقاهْ

لو ملوكُ الأرض حلُّوا فى ذراهْ

كان أعلى صفِّهم صفَّ النعالْ !

ذو اقتدارٍ إن يشأ قلبَ الطباعْ

صيَّر الإظلام طبعاً للشعاعْ

وارتدى الإمكانُ بُرْدَ الامتناعْ

قدرة موهوبة من ذى الجلالْ !

يا أمين الله يا شمس الهدى

يا إمام الْخلق يا بحر الندى

عجِّلَنْ عجِّلْ فقد طال المدى

واضمحلَّ الدينُ واستولى الضلالْ

هاكَ يا مولى الورى نعم المجيرْ

مِنْ مواليك البهائىّ الفقيرْ

مِدحةً يعنو لمعناها جريرْ

نظمُها يُزرى على عقد اللآل

يا ولىّ الأمر يا كهف الرجا
مسّنى ضرٌّ وأنت المرتجى
والكريم المستجاب الملتجا
غير محتاج إلى بسط السؤالْ

* * *

و بعد ، فهذه هى آثار عقيدة « المهدى » فى الأدب الشيعى ، وهى آثار كما تراها روائع ، تسيل عذوبة وتفيض رقة وسلاسة ، طبعها صدق العقيدة بطابعه ، ووسمها الإيمان العميق بميسمه ، وأكبر الظن أنك قد طربت لما فيها من قوة فنية ، وقد أسفت لما فيها من غلوّ وإغراق ، يرتفع بالمهدى إلى مصاف الآلهة ، بدأه ابن هانئ وختمه العاملى ، وقد جرّه على ألسنة الشعراء عقيدتهم فى « الإمام » كما أوضحنا من قبل .

ومهما يكن من شيء فأنت لا ترى فى هذا الأدب فسولة وضعفا ، أو عوجاً وأمتا ، ولا عجب فأعذب الشعر أصدقه .

الفصل السادس

المهدية عند بقية الفرق الإسلامية

تحدثنا فى الفصول السابقة عن « المهدية » عند الشيعة ، وسنتحدث فى هذا الفصل عن موقف بقية الطوائف الإسلامية إزاء هذا المعتقد ، كما سنتحدث عن أثر عقيدة المهدى فى إيجاد معتقدات مشابهة فى المجتمع الإسلامى ، ونختتمه بدراسة « المهديين » من غير آل البيت .

المهدية والقرامطة [1] :

القرامطة باطنية سرّية مجوسية ، اتشحت بثوب الإسلام ؛ لتعمل فى أمان على تقويضه بتعاليمها الهدامة الإباحية الخطرة ، وقد أسس هذه الفرقة جماعة ، منهم عبد الله بن ميمون القدّاح مولى جعفر بن محمد الصادق ، وميمون بن ديصان ، الذى كان من نسله ابن الأشعث ، حمدان قرمط ، أبرز رجال هذه الطائفة و إليه تنسب .

وتشغل القرامطة فى التاريخ الإسلامى صحائف عدة ؛ لِما جاءت به من مذاهب ولِما جرّت على العالم الإسلامى من ويلات وخطوب، فلطالما عاثت فى ربوعه فسادا، وجاست خلاله خرابا ، وقد كانت كالوباء ، إذا أتت على شيء جعلته كالرميم بلقعاً يباباً كأن لم يغن بالأمس ، حتى الكعبة المقدسة ، لم تسلم من سطواتها المخربة ولم تنج من حملاتها المدمرة . ولسنا الآن بصدد التحدث عن تاريخ القرامطة، و إنما الذى يعنينا هنا هو مذهبهم فى عقيدة المهدى .

تؤمن القرامطة أيضاً بهذا المعتقد كفرقة باطنية ، تمتّ بصلة القربى إلى الشيعة ؛ فترى فى محمد بن إسماعيل بن جعفر مهديّها المنتظر ، وتترقب رجعته ، وتزعم أنه حىّ

---

(١) القرامطة من الإسماعيلية ، وتعرف أيضاً بالباطنية ، وقد سبق أن تحدثنا عن الإسماعيلية، بيد أننا هنا نفرد الحديث عن الإسماعيلية القرامطة ؛ لما لها من أهمية خاصة فى التاريخ الإسلامى .

يُرزق ببلاد الروم ...! ، ولا نكاد نعرف سبباً لاختيار محمد هذا لبلاد الروم ليختفى فيها ، والحق أن هذا المهدىّ من نوع جديد ، فهو ليس مهدياً فحسب ولكنه رسول أيضاً وسينسخ شرعه شريعة محمد ... !

وتؤكد القرامطة رواية « غدير خم » ، ولا ترى — كبقية الشيعة — أن الرسول نصّ فيها على إمامة علىّ بعده فحسب ، ولكنها تدّعى فى جرأة عجيبة أن الرسالة نفسها قد انتقلت إليه حينما قال عليه السلام : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه» فبهذه القولة انتقلت الرسالة من محمد إلى علىّ بأذن الله . . . ! فالرسل عند القرامطة أربعة : محمد بن عبد الله ، وعلى بن أبى طالب ، وأحمد بن محمد بن الحنفية ، ومهديهم هذا المختفى ببلاد الروم محمد بن إسماعيل بن جعفر ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، وناسخ الشرائع السابقة جمعاء ... !

وأئمة القرامطة سبعة : محمد الرسول ، وعلى الرسول ، والحسن ، والحسين ، والباقر محمد بن على ، والصادق جعفر بن محمد ، ثم المهدى الرسول محمد بن إسماعيل ابن جعفر . وهو من أولى العزم ، وأولو العزم عندهم سبعة أيضاً : نوح وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، ومحمد وعلى بن أبى طالب ، ومحمد بن إسماعيل .

ولا أدع الحديث عن القرامطة ، حتى أسوق إليك بعضاً من معتقداتهم ، التى يدينون بها والتى لا تكاد تلتقى بالإسلام أبدا :

فالصلاة عندهم أربع ركعات : ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها ، أما أذانهم فهو :

« الله أكبر (أربع مرات) ، أشهد ألا إله إلا الله (مرتين) ، أشهد أن آدم رسول الله ، أشهد أن نوحاً رسول الله ، أشهد أن إبراهيم رسول الله ، أشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله [١] . . . » !

وعلى المصلى أن يقرأ فى كل ركعة سورة « الاستفتاح » وهى من قرآنهم

---

(١) انظر الطبرى ج ١١ ص ٩٣٣ ط الحسينية .

الخاص ، الموحى به إلى أحد أنبيائهم وهوأحمد بن محمد بن الحنفية ... ! وها هى كما يرويها لنا الطبرى :

« الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه ، المتخذ لأوليائه بأوليائه قل إن الأهلة مواقيت للناس ، ظاهرها ليُعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام ، وباطنها أوليائى الذين عرّفوا عبادى سبيلى اتقون ياأولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذى أبلو عبادى وأمتحن خَلْقى ، فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى ، ألقيته فى جنتى وأخلدته فى نعمتى ، ومن زال عن أمرى وكذّب رسلى ، أخلدته مهاناً فى عذابى وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى ، وأنا الذى لم يعلُ علىّ جبار إلا وضعتُه ، ولا عزيز إلا أذللته ، وليس الذى أصرّ على أمره وداوم على جهالته وقالوا لن نبرح عليه عاكفين وبه مؤمنين أولئك هم الكافرون[1] » !!

وقبلة هؤلاء الناس هى القبلة الأولى بيت المقدس ، كما أن حجهم إليها أيضاً ، ويوم الاثنين هو يوم الجمعة عندهم ، لا يعملون فيه شيئاً ، والنبيذ حرام ، ولكن الخمر حلال . . ! وهم لا يرون الغسل من الجنابة ، ولكن وضوءاً كوضوء الصلاة ، وصيامهم يومان فى العام : النيروز والمهرجان .... إلى آخر مزاعمهم التى لا تمت إلى الإسلام بسبب أو نسب قريب أو بعيد[2]

المهدية والخوارج :

لا تدين الخوارج بالإمامة ، وإن قالت بها بعض طوائفها ، فهى تجردها من قدسيتها التى أفرغتها عليها الشيعة ، كما لا تدين الخوارج بالرجعة ، فهى واقعية

---

(١) الطبرى حـ ١١ ص ٣٣٩ .

(٢) أنظر فيما يتعلق بهذه الطائفة ، الطبرى حـ ١١ ص ٣٣٧ ، وابن العبرى ص ٢٦٠ ، والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٢٠٤ وما بعدها ، وانظر أيضاً الشهرستانى حـ ٢ ص ٢٩ على هامش ابن حزم ، والمواقف للايجى ص ٤٢١ ، والفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٣ ، ومختصره للرسعنى ص ١٧٠ ، والتبصير فى الدين للأسفرايينى ص ٨٥ ، وانظر أيضا ما كتبه الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » ، والغزالى فى « فضائح الباطنية » .

عملية ؛ لذلك لا تؤمن بالمهدية ولا تقول بها ، بيد أن فرقة من فرقها تدعى « اليزيدية » نسبة إلى مؤسسها « يزيد بن أُنيسة » وهى إحدى طوائف « الإباضية » قد دانت بهذا المعتقد ، غير أنها لا تصرح بشخص بعينه ، وقد حدثنا الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » أنها شاركت القرامطة فى القول بأن المهدى المنتظر سيكون نبياً مرسلاً وسيبعث من العجم لا من العرب ، بناء على نظام الخوارج الديمقراطى : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، و « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وسينزل على نبيهم المنتظر هذا الذى لا تُعرف شخصيته ، كتاب من السماء جملة واحدة لا تنجيماً ؛ قال الأشعرى : « وزعموا أن ملّة ذلك النبي الصابئة ، وليس هم الصابئين الذين ذكرهم الله فى القرآن ولم يأتوا بعد » .

وفيما عدا طائفة « اليزيدية » هذه لا نكاد نعثر على فرقة أخرى من الخوارج تقول بالمهدية .

المهدية والصوفية :

كان الصوفية على اتصال تام بالشيعة ، فأخذوا عنهم الكثير من تعاليمهم ، كالتفرقة بين الشريعة والحقيقة ، أو علم الظاهر وعلم الباطن ، والشيعة تزعم — كما قدمنا — أن علياً قد انفرد — دون سائر صحابة النبي — بعلم الحقيقة أو علم الباطن ، فتلقت الصوفية هذا الزعم عن الشيعة ، وصار من معتقداتهم حتى ليقول ابن الفارض :

وأوضح بالتأويل ما كان مشكلاً علىٌّ بعلم ناله بالوصية

والإسلام لا يعرف تصوفاً ، وإن كان يعرف زهداً ، لا سيما فى الفترة المكية ، وفرق شاسع بين الزهد والتصوف ، فالأول بسيط ساذج لا تعقيد فيه ؛ انقطاع إلى الله وتحميل النفس ضروباً من العبادة قد تكون شاقة ، والثانى مركب معقد مفلسف ، لا يكتفى فيه المنقطع إلى الله بعبادته ، بل يفرض عليه وعلى الكون آراءه وفلسفته .

والحق أن عناصر التصوف ليست إسلامية ، ففيها الهندى اليوجى ، واليونانى ،

والهلّيني الغنوصي ، والمسيحي والإسكندري ، وكما اقتحمت هذه العناصر المختلطة البيئة الإسلامية ، متخذة من الزهد المكي سبيلاً فأخرجت لنا تصوفاً إسلامياً ، كذلك اقتحمت مبادئ الشيعة وتعاليمهم — الغريبة هي الأخرى عن الإسلام — ميدان التصوف ؛ فأخذ المتصوفون عن الشيعة — فيما أخذوا — فكرة « المهدى » ، وأسبغوا عليها ثوباً جديداً ، وإذا بالمهدى ينقلب « قطباً » هو الذى يدبر الأمر فى كل عصر من أعصار هذا الكون ، وهو عماد السماء ، ولولاه لخرّت على الأرض وهلك الحرث والنسل . ويليه فى المرتبة « النجباء » ، وهم اثنا عشر نقيباً فى كل زمان ، لا يزيدون ولا ينقصون ، على عدد بروج الفلك الاثنى عشر . . . إلخ ما قالوا .

وهكذا استطاع المتصوفة تلامذة الشيعة ، أن ينتفعوا بعقيدة « المهدىّ » فى إقامة نظامهم الروحى للكون ، مما لا نجد له من الإسلام الحق سنداً أو دعامة ، وإنما هى فلسفات غنوصية هلّينية ، ورهبانية مسيحية ، وتخليطات هندية .

المهدية وأهل السنة :

قال العلامة الطيب الذكر « جولد زيهر » Goldziher .

« أما فى الإسلام السنّى ، فإن ترقب ظهور المهدى على الرغم من استناده إلى الوثائق الحديثية والمناقشات الكلامية ، لم يصل ألبتة إلى أن يتقرر كعقيدة دينية ، ولم يبد قط عند أهل السنّة إلا كحِلية أسطورية لغاية مُثلى ، أو كأمر ثانوى بالنسبة لجوهر النظرية السنّية للكون ، ويرفض الإسلام السنّى رفضاً قاطعاً العقيدة المهدية على صورتها الشيعية ، كما يهزأ بفكرة الإمام الغائب وحياته الطويلة »[1] .

وقال أيضا إن أهل السنّة « يعتقدون بمجىء مصلح إلى العالم فى آخر الزمان ، يبعث الله به ، ويسمونه أيضاً بالإمام المهدىّ ، أى الذى هداه الله إلى الطريق السوىّ ، وهذه العقيدة وما تنطوى عليه من آمال وأمنيات ، تظهر فى بيئات التقى والورع عند

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ١٩٦

المسلمين كزفرة من زفرات الأسف والانتظار ، يصعّدونها وهم فى غمرات حالة سياسية واجتماعية ، لا تنقطع ثورة ضمائرهم حيالها »[(١)] .

بيد أن اعتقاد عامة أهل السنّة ، يخالف تماماً ما تدين به الشيعة ، فهم لا يؤمنون بأن المهدى وُلد من ألف سنة ، وغاب فى سرداب أو نحوه من جبال رضوى أو حاجر ، ثم يخرج منه فى آخر الزمان ، كما هو جوهر العقيدة الشيعية ، بل يقولون إنه سيبعث فى آخر دورة للإسلام ، وبالتالى للحياة على هذه الأرض شخص من سلالة النبى — وهم هنا متأثرون بأحاديث الشيعة المختلقة — يلقّب بالمهدى ، يظهر المسيح من بعده وتُملأ الأرض عدلاً .

ونحن لا نشك فى أن عقيدة العامة من أهل السنّة ، بل وكثير من الخاصة ، إنما هى أثر شيعى تسرّب إليهم ، فعملت فيه العقلية السنّية بالصقل والتهذيب . أما القول بعودة المسيح فهو دون ريب ، من آثار المسيحية فى الإسلام .

وقد سخر شاعر العربية الكبير أبو الطيب المتنبى من عقيدة المهدى هذه فى قوله[(٢)] :

فإنْ يكن المهدىُّ من بان هديُهُ فهذا وإلّا فالهدى ذا فما المهدى ؟ !
يُعَلِّلُنا هـذا الزمان بذا الوعـدِ ويَخْدعُ عمّا فى يديه من النقد[(٣)]
هل الخير شىءٌ ليس بالخير غائبٌ أمِ الرشدُ شىءٌ غائبٌ ليس بالرشد ؟

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٩٤ .
(٢) ديوان المتنبى ص ٤٠٠ ط هندية بالقاهرة .
(٣) يقول المتنبى : أيحسن أن يترك الخير والرشد الحاضران ، ويدعى أن خيراً ورشداً غائبان ، وهما فى الحقيقة الخير والرشد ؟ هذا اعتقاد فاسد .

آثار عقيدة المهدى فى المجتمع الإسلامى

القحطانى والكلبى والتميمى :

كانت « المهدية » عند الشيعة عاملاً فعالاً ، فى خلق عقائد أسطورية مشابهة فى الأوساط الإسلامية ، كالسفيانية فى البيت الأموى ، والقحطانية والكلبية فى اليمنية ، والتميمية فى المضرية ، وكلها عدا السفيانية أوجدتها العصبية القبلية ، المتغلغلة فى الدم العربى ؛ إذ كيف يكون للشيعة مهدىّ منتظر ، ولا يكون لليمنيين هم الآخرون قحطانى منتظر ... ؟!

وقد سلك اليمنيون نفس الطريق الذى سلكه الشيعة من قبل ، فأنطقوا الرسول عليه السلام بما شاؤا من أحاديث مؤيدة لما ذهبوا إليه ؛ ففى « أسد الغابة » يروى ابن الأثير عن النبى صلوات الله عليه أنه قال : « سيكون بعدى خلفاء ، ومن بعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، ثم يؤمر القحطانى ، فوالذى بعثنى بالحق ماهو دونه » ، ويروى ابن الأثير أيضاً فى كتاب آخر له هو : « النهاية فى غريب الحديث والأثر » أن النبى قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه[1] » .

ومن الغريب حقاً أن نجد الإمام البخارى — وهو شخصية علمية جليلة لها خطرها ومكانتها — مع أنه لم يرو لنا شيئاً قط يتعلق بالمهدىّ ، يحدثنا بحديث القحطانى هذا ؛ ففى صحيحه :

« حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى سليمان عن ثور عن أبى الغيث

(١) النهاية فى غريب الحديث حـ ٢ ص ١٩٣ ط المطبعة العثمانية .

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . . . »[١] .

ويحدثنا العلامة « ڤان ڤلوتن » Van Vloten[٢] أن أهل اليمن كانوا ينظرون إلى قحطانيّهم هذا نظرة كلها الجد ، حتى لقد عقدوا على خروجه آمالهم ، وادّعوا أنه أحد الأمراء من سلالة قحطان ، ويقول المسعودى[٣] إن عبد الرحمن بن الأشعث قد ادّعى أنه ذلك القحطانى المنتظر ....

وهنالك أيضاً — كما يحدثنا الرواة — بعض النبوءات الخاصة بكلبي منتظر[٤] ، وهو مهدىّ سيخرج من بنى كلب إحدى القبائل اليمنية ....

وبينما كان اليمنيون ينتظرون القحطانى أو الكلبى ، كان المضريون هم الآخرون ينتظرون التميمى ، وهو مهدىّ سيخرج من بنى تميم إحدى القبائل المضرية[٥] ... ونحن لا نشك أن للعصبية القبلية ضلعاً فى نشوء هذه العقائد الأسطورية التى لم تعمر طويلاً ؛ إذ طغت عليها « مهدية » الشيعة طغياناً كبيراً .

السفيانى المنتظر :

عندما وضعت الشيعة أسطورة المهدى ، ودعمتها بمختلقات الأحاديث ، فلاقت عند الأغرار والعامة رواجاً ، سارع الأمويون فاختلقوا هم أيضاً مهديًّا لهم هو السفيانى المنتظر . . ! وقصته لا تخلو من طرافة ؛ فالأمير خالد بن يزيد بن معاوية ، الذى انقطعت آماله من الخلافة وأخذ يستنجد الكيمياء ، علّها تسعفه بالذهب فلم تلبّ له نداء ، رأى أن ينازع البيت المروانى الحاكم ويغزو السوق ببضاعة نافقة جديدة هى « السفيانى المنتظر » ، وإن فيها لعزاء لآل أبى سفيان ؛ قال أبو المحاسن :

---

(١) أنظر صحيح البخاري حـ ٩ ص ٥٨ ط بولاق .
(٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية « الترجمة العربية » ص ١٢٠
(٣) التنبيه والإشراف ص ٣١٤ ط أوربا .
(٤) السيادة العربية والشيعة ص ١٢١
(٥) المصدر السابق .

« وكان خالد المذكور موصوفاً بالعلم والعقل والشجاعة وكان مولعاً بالكيمياء ، وقيل إنه هو الذى وضع حديث السفيانى لمّا سمع بحديث المهدى »[١] .

وقال صاحب الأغانى :

« كان خالد بن يزيد بن معاوية يوصف بالعلم ويقول الشعر ، وزعموا أنه هو الذى وضع خبر السفيانى وكِبْرَه ، وأراد أن يكون للناس فيه طمع حين غلبه مروان بن الحكم على الملك وتزوج أمّه أمّ هاشم » . وقد عقّب الأصفهانى على ذلك بقوله : « وهذا وهم من مصعب ؛ فإن السفيانى قد رواه غير واحد وتتابعت فيه رواية الخاصة والعامة[٢] » .

ويؤسفنا كثيراً ألاّ نأخذ بقول صاحب الأغانى ، إذ أن التاريخ السياسى المتواتر للأمير خالد بن يزيد وحالته السيكلوجية ، يؤيدان وضعه لحديث السفيانى ، أما انتشار هذا الحديث ورواية الخاصة والعامة له ، فليس قاطعاً فى صحته ؛ فالأكاذيب أيضاً تُروى ولعلها أكثر انتشاراً ، ولا يغرب عن بالنا أن الأصفهانى متشيع — وإن كان معتدلاً فى تشيعه — والشيعة تسلّم بحديث السفيانى ، بل يهمها انتشاره لأن فيه ذيوعاً لحديث المهدىّ كما سنحدثك بعد قليل .

يقول العلامة « ڤان ڤلوتن » Van Vloten « وليس بعيداً أن يكون خالد بن يزيد قد ابتدع نبوءة السفيانى هذه ، على ما جاء فى كتاب الأغانى ليحفظ التوازن بين بطون البيت الأموى ، وليُلين من شكيمة الأسرة الحاكمة أسرة بنى مروان[٣] » .

أما الأحاديث فى هذا الصدد ، فكسابقتها اختلاقاً وكثرة ؛ فقد رووا عن حذيفة ابن اليمان أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب ، قال : فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السفيانى من الوادى

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٢٢١ ط الدار .

(٢) الأغانى حـ ١٦ ص ٨٨

(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية « الترجمة العربية » ص ١٢٩ وما بعدها

اليابس، حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين : جيشاً إلى المشرق وجيشاً إلى المدينة حتى ينزلوا بأرض بابل . . . الخ »

وفى « النهاية » لابن الأثير « وفى حديث ابن الحنفية (ذكر رجلاً يلى الأمر بعد السفيانى فقال : يكون بين شثٍّ وطُبّاق) » قال ابن الأثير : « الشثّ : شجر طيب الريح مر الطعم ، ينبت فى جبال الغور ونجد ، والطبّاق . شجر ينبت بالحجاز إلى الطائف ، أراد أن مخرجه (السفيانى) ومقامه المواضع التى ينبت بها الشثّ والطبّاق »[١] .

وقد ادّعى أحد سلالة الأمير خالد بن يزيد ، أنه السفيانى المنتظر ، وانضم إليه كثير من الأنصار والأشياع ، فى آخر خلافة بنى أمية ؛ فالطبرى يخبرنا — ضمن أحداث عام ١٣٢ هـ والدولة الأموية تسلم الروح ، وقد أخذ الناس فى تشييع جنازتها — أن جماعة من أهل قنسرين وحمص وغيرها قد احتشدوا « وقدمهم ألوف عليهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد ، بن معاوية بن أبى سفيان فرأسوا عليهم أبا محمد ودعوا إليه وقالوا هو السفيانى الذى كان يُذكر[٢] » .

ولعل من الطريف حقاً أن الشيعة لما سمعت بنبأ هذا السفيانى ، بادرت بالاعتراف به ، بيد أن مهديّهم سيلتقى به حتماً فى يوم ما ، وتكون بينهما معركة شديدة تدور دائرتها على السفيانى ، وسرعان ما روت الشيعة عن النبى هذا اللقاء فى قالب حديثى : « وسيبايع الناس المهدى يومئذ بمكة بين الركن والمقام ثم يقول المهدى : أيها الناس اخرجوا إلى قتال عدوّ الله وعدوّكم فيجيبونه ولا يعصون له أمراً ، فيخرج المهدى ومن معه من المسلمين من مكة إلى الشام ، لمحاربة عروة بن محمد السفيانى ومن معه من كلب[٣] » .

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر حـ ٢ ص ٤ ٢ ط المطبعة العثمانية

(٢) أنظر الطبرى حـ ٩ ص ١٣٨ ط الحسينية

(٣) مختصر تذكرة القرطبى ص ١٥٩ ط بولاق ، وانظر الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى حـ ١ ص ٢٣٧ ط الوهبية بالقاهرة

و يظهر أن فكرة السفيانى هذه ما زالت — ولو بشكل ضعيف — مختمرة فى أذهان بعض أهل الشام إلى وقتنا الحاضر ، فالعلامة « لامانس » Lammens يخبرنا أن زلزالاً قد حدث بفلسطين فى صيف عام ١٩٢٧ ، فتنبأ أحد المسلمين فى شوارع بيروت بقرب ظهور السفيانى المنتظر .

ولما قامت الدولة العباسية ، ورأى بنو العباس هذه الحركة الواسعة النطاق ، أدلوا بدلوهم وأوّلوا أحاديث المهدى -- بدافع سياسى — لصالحهم ، وزادوا فى كميتها وضعاً واختلاقاً ، فقالوا : قال عليه السلام : « منَّا أهل البيت أربعة منّا السفاح ومنَّا المنذر ومنّا المنصور ، ومنّا المهدى الذى سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » . رواه الحاكم عن ابن عباس . وقد حمل ذلك أبا جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس ، والسياسى المحنك ؛ على تسمية ابنه بالمهدى ، وسرعان ما حدّثه المتزلفون — وهم كثيرون — بحديث قد اختلقه الوضّاعون ورفعوه إلى النبى عن طريق ابن مسعود ، يقول فيه : « لا تذهب الدنيا حتى يلى أمتى رجلٌ من أهل بيتى ، يواطئ اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » . قال المطهر بن طاهر المقدسى فى كتابه « البدء والتاريخ » المنسوب خطأ للبلخى : « وقد تأول قوم أنه المهدى محمد ابن أبى جعفر عبد الله المنصور ، لقبه المهدى واسمه محمد واسم أبيه عبد الله ، وهو من أهل البيت ، ولم يأل جهداً فى إظهار العدل ونفى الجور » .

ومن الطريف حقاً أن المنصور نفسه لم يكن يعتقد أبداً أن ابنه هو المهدى[1] .

وهكذا قال بهذه الأسطورة اليمنيون والمضريون والعلويون والأمويون والعباسيون ، وأخذت عند كلٍّ لوناً خاصاً ؛ فالعلويون هم البادئون لما سقط فى أيديهم وضاع نصيبهم من الخلافة ، حتى لا يتسرب اليأس إلى الجماهير المحبة لآل البيت ، وساعدهم على اصطناعها ما بثّه فيهم معلمهم الأول ، ابن السوداء عبد الله

---

(١) انظر كتابنا هذا ص ١١٧ .

ابن سبأ تحت ضوء عقيدة « المخلّص » كما أسلفنا ، وحرّكت العصبية القبلية أهل اليمن فابتدعوا لنا القحطانى والكلبى ، واختلق المضريون التميمى ، وجاء خالد ابن يزيد يجرّ أذيال الخيبة من الحكم والكيمياء ، فوضع السفيانى ، وكان العباسيون أبعد الجميع نظراً وأحكمهم سياسة وأسدّهم تدبيراً ، فسلّموا بالفكرة واستغلوها لتوطيد سلطانهم ، والجمهور ساذج فطرى ، متحمس للدين جياش بالعقيدة ، محبّ لآل البيت ، فآمن وأعرق .

المهديون من غير آل البيت

إجمال :

يحدثنا ابن سعد كاتب الواقدى فى طبقاته ، أن الناس كانوا يعتقدون أن موسى ابن طلحة بن عبيد الله ، هو المهدى المنتظر ؛ قال فى الطبقات : « قدم المختار ابن أبى عبيد الكوفة فهرب منه وجوه أهل الكوفة ، فقدموا علينا ها هنا البصرة ، وفيهم موسى بن طلحة بن عبيد الله قال : وكان الناس يرونه زمانه هو المهدى ، قال : فغشيه ناس من الناس ، وغشيته فيمن غشيه ، فإذا شيخ طويل السكوت قليل الكلام ، طويل الحزن والكآبة . . . الخ(١) »

وحدثنا ابن سعد أيضاً أن التابعى الكبير سعيد بن المسيَّب ، كان يقول بمهدية عمر بن عبد العزيز ففى « الطبقات » : « عن أبى معن قال سمعت سعيد ابن المسيَّب ، وقد سأله رجل فقال له يا أبا محمد مَن المهدى ؟ فقال له سعيد : أدخلت دار مروان ؟ قال : لا ، قال : فادخل دار مروان ، ترَ المهدى . قال : فأذِن عمر بن عبد العزيز للناس ، فانطلق الرجل حتى دخل دار مروان ، فرأى الأمير والناس مجتمعين ، ثم رجع إلى سعيد بن المسيَّب فقال يا أبا محمد : دخلتُ دار مروان فلم أرَ أحداً أقول هذا المهدى ! فقال له سعيد — وأنا أسمع — هل رأيت الأشجَّ عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير ؟ قال نعم ، قال فهو المهدى(٢) . »

وفى الطبقات أيضاً : « عن نافع عن ابن عمر قال : كنت أسمع ابن عمر كثيراً يقول : ليت شعرى مَن هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة يملأ الأرض عدلًا ؟(٣)

ويروى ابن سعد « قال ابن عمر إنّا كنّا نتحدث أن هذا الأمر لا ينقضى حتى يلى

---

(١) انظر الطبقات جـ ٥ ص ١٢٠ ط ليدن

(٢) انظر الطبقات جـ ٥ ص ٢٤٥ ط ليدن

(٣) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٤٣

هذه الأمة رجلٌ من ولد عمر ، يسير فيها بسيرة عمر ، بوجهه شامة ، قال : فكنّا نقول هو بلال بن عبد الله بن عمر وكانت بوجهه شامة ، قال : حتى جاء الله بعمر ابن عبد العزيز ، وأمّه أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، قال يزيد : ضربته دابة من دواب أبيه فشجّته ، فجعل أبوه يمسح الدم ويقول : سعدتَ إن كنتَ أشجَّ بنى أمية[1] »

ويروى ابن سعد : « قال سمعت محمد بن على يقول : النبى منّا والمهدى من بنى عبد شمس ، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز[2] » ، وفى الطبقات : « أخبرنا مسلم ابن ابراهيم قال حدثنى أبو بكر بن الفضل قال حدثنى أبو يعقوب ، مولى لهند بنت أسماء قال : قلت لمحمد بن على ، إن الناس يزعمون أن فيكم مهديًّا ، فقال : إن ذاك كذاك ولكنه من بنى عبد شمس ، قال فكأنه عنى عمر بن عبد العزيز[3] » .

ويقال إنه لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، سُمع صوت لا يُدرى صاحبه يقول :

من الآن قد طابت وقرّ قرارها　　على عمر المهدىِّ قام عمودها

والحق أن هذه الشخصية الفذة لهذا الخليفة الأموى ، كانت تحظى دائمًا بالرضى والتقدير ، بل والإعجاب عند كل الطوائف الإسلامية ، حتى بين خصوم بنى أمية السياسيين ، أعنى بنى العباس ، الذين بلغ بهم حقدهم على الأمويين أن نبشوا قبور موتاهم ، وتركوا قبر عمر بن عبد العزيز قائمًا تقديراً له وإجلالاً .

وقد كان زهد هذا الخليفة وتقشفه وصفاته الروحية العالية التى انحدرت إليه من جده الأعلى لأمّه عمر بن الخطاب ، عاملاً هاماً فى فرض شخصيته على قلوب الناس فأحبوه ، حتى ليرى فيه التابعى الكبير ابن المسيَّب أنه المهدى المنتظر .

والطبرى[4] يحدثنا أنه فى عام ١٢٨ هـ قد ادّعى الحارث بن سُريج أنه ذلك

---

(١) الطبقات جـ ٥ ص ٢٤٣

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥

(٣) المصدر السابق نفسه

(٤) الطبرى جـ ٩ ص ٦٧ ط الحسينية .

المهدى المنتظر صاحب الرايات السود ، ولكن دعوته لم تلق نجاحاً ، وغير بعيد أن يكون صاحبنا هذا قد ابتدع الحديث الذى رواه أبو داود والقائل :

« يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حرّاث ، على مقدمته رجل يقال له منصور ، يوطئ أو يمكّن لآل محمد ، كما مكّنت قريش لرسول الله ، وجب على كلٍّ نصرُه » وقد رفعه إلى النبى ؛ ليتخذ منه سلاحاً وتكأة لتأييد مزاعمه ، ولكن الحكومة القوية إذ ذاك ، أخمدت أنفاسه فأخفق الحارث فى دعوته .

وقد ذهب بعض طوائف الخُرَّميّة — أتباع بابك الخُرَّمى[1] إلى أن «أشيدراما» أحد أعقاب « زرادشت » الذى ينتظر المجوس عودته كمخلّص فى آخر الزمان ، هو بعينه أبو مسلم الخراسانى أحد مؤسسى دولة بنى العباس ، والذى فتك به خدعة — بعد أن أمّنه — الخليفة الصارم أبو جعفر المنصور ، غير أن الخُرَّمية لم تؤمن بموته ، فأخذوا ينتظرون رجعته ليملأ الأرض عدلاً . وقد فرّ رجل يدعى إسحق الترك بعد موت أبى مسلم إلى بلاد ما وراء النهر ، ونصب نفسه داعية له وزعم أن مولاه قد اختفى بمدينة « الرى » وأنه نبى أرسله « زرادشت » وسيعود حتماً إلى الوجود ؛ لينشر الزرادشتية ويرفع لواءها .

---

(١) الخرمى : نسبة إلى « خرمة » كسكرة : بلدة بقرب اصطخر .

ابن تومرت مهدى الموحدين

وفى صحارى المغرب المقفرة و بين قبائله البدائية ، راجت عقيدة «المهدية» رواجاً كبيراً ، ووجدت بين أهله السذّج مرتعاً خصيباً ، قال ياقوت :

« البربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشاً ، وأسرعهم إلى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم لنمق الجهالة ، ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط ، وكم من ادّعى فيهم النبوّة فقبلوا ، وكم زاعم فيهم أنه المهدى الموعود ، فأجابوا دعوته ولمذهبه انتحلوا ، وكم ادُّعى فيهم مذهب الخوارج ، فإلى مذهبهم بعد الإسلام انتقلوا » .

ويقول سيد الباحثين الطيب الذكر العلامة « جولدزيهر » Goldziher :

« كثيراً ماظهرت الحركات المهدوية فى الإسلام المغربى (شمال أفريقية) ، وعند المغاربة اعتقاد متواتر بأن المهدى لابد أن يظهر فى الأرض المراكشية ، واستعان المغاربة بالأحاديث التى تنحو هذا المنحى . كما ظهر أيضاً فى المغرب فى عصور مختلفة رجال ، كان يدَّعى كل واحد منهم أنه عيسى ابن مريم ، وكان يتمسك بهذا الاسم لمناهضة السياسة الأجنبية »[1] .

ولعل أخطر هذه الحركات جميعاً ، تلك الحركة الكبرى التى تزعّمها محمد ابن تومرت ، والتى أقامت دولة الموحدين على أنقاض الدولة المرابطية ، وهى وإن قامت باسم « المهدى » لم تكن قط ذا طابع دينى خاص تطبع به الجماهير ، فيبقى بعدها أجيالاً وقروناً ، كما استطاع ذلك بنو عبيد ؛ قال «جولدزيهر» Goldziher :

« ومع أن بعض هذه الحركات المهدوية كتلك التى أدَّت إلى قيام دولة الموحدين بالمغرب ، لم تحتفظ بأى أثر تؤثر به فى المستقبل بعد سقوط الأنظمة السياسية ، التى كانت هذه الحركات ثمرة لها ، فإن الآثار الباقية لهذه الحركات المهدوية لاتزال باقية إلى اليوم فى الفرق الشيعية »[2] .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٣٤٢

(٢) المصدر السابق .

أما ابن تومرت الداعية المغربى الذى أقام بأسطورة «المهدية» دولة الموحدين فهو من بين دعاة المهدية جميعاً — أوفرهم براعة وذكاء وحزماً وزهداً ، وكان نفوذه الروحى أقوى دعامة لقيام دولته وقد جاء فى « روض القرطاس » أنه :

« كان جميل الطلعة أسمر اللون منفصل الحاجبين قوى النظر ، أقنى الأنف غائر العينين ، خفيف اللحية له شامة سوداء على يده ، وكان داهية قادراً ، تساوره الشكوك فلا يتردد عن إراقة الدماء ، كما كان حافظا للحديث عالماً بالمسائل الدينية مبرزاً فى المناظرة ، ويحدثنا صاحب « المُغرب فى أخبار أهل المغرب » فيقول[1] :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعِيان تراه

« له قدم فى الثرى وهمّة فى الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيَّا ، أغفل المرابطون حلّه وربطه ، حتى دب دبيب الفلق فى الغسق ، وترك فى الدنيا دويّا ، أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم ، لكان لعزمه فيها غير مسلم ، وكان قوته من غزل أخت له ، فى كل يوم رغيفاً بقليل سمن أو زيت ، ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ، ورأى أصحابه يوماً ، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه ، فأمر بضمّ ذلك جميعه وأحرقه ، وقال من كان يتبعنى للدنيا فما له عندى إلا ما رأى ومن تبعنى للآخرة فجزاؤه عند الله تعالى ، وكان على خمول زيّه وبسط وجهه ، مهيباً منيع الحجاب إلا عند مظلمة ، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه ، وكان كثيراً ما ينشد :

تجرّد من الدنيا فإنك إنما خرجتَ إلى الدنيا وأنت مجرّد

وكان يتمثل بقول المتنبى :

إذا غامرتَ فى شرف مَرُوم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمرٍ حقير كطعم الموت فى أمرٍ عظيم

---

(١) أنظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ط الحلبى .

و بقوله أيضاً :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولـكن معدن الذهب الرغام »

وابن تومرت بربرى لحماً ودماً ، ولذلك فنحن ندرجه فى قائمة « المهديين من غير آل البيت » وإن اختلق هو لنفسه نسباً عربياً ينتهى به إلى على بن أبى طالب أو إلى الرسول نفسه ، كى يعتمد عليه — شأن غيره من المهديين — فى ادعائه «المهدية» ، ولـكى تؤيده « مجموعة الأحاديث » المفتعلة التى لا تنصر مهدياً من غير آل البيت ، ولا ندرى كيف خفى ذلك على بعض الباحثين الممتازين كسيد أمير على، الذى زعم أن صاحبنا ينتمى إلى أسرة عربية [١] ، والحق أن ابن تومرت كان ذا نسب فى البربرية عريق ؛ فهو هرغىّ من « هرغة » أحد بطون « مصمودة » وهى بربرية بشهادة ابن حزم القاطعة فى كتابه الممتع «جمهرة أنساب العرب[٢]» ، وقد أدرجها أيضاً ضمن قبائل البربر ، صاحب كتاب « مفاخر البربر[٣]» الذى نشره (بالرباط) العلامة « بروڤنسال » Provencal ، كما حدثنا عنها أيضاً كقبيلة بربرية العلامة « يڤر » Yver فى « دائرة المعارف الإسلامية » [٤] . ولم يخف ذلك على القاضى ابن العماد فقال فى شذراته : « وفيها (سنة ٥٢٤ هـ) محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودى البربرى المدعى أنه علوى حسنى وأنه المهدى » [٥] .

وابن خلدون الذى انتفع بأبحاث ابن حزم ، يحدثنا أن ابن تومرت الداعية المغربى ، اسمه « أمغار » وهى كلمة بربرية معناها رئيس ، أما « ابن تومرت » فى هذه اللغة ، فيقول الأستاذ « عنان » [٦] نقلاً عن أبى بكر الصنهاجى ، تلميذ ابن تومرت ومؤرخه ، إن سبب تلقيبه بذلك أن أمّه فرحت بمولده ، وكانت كلما سئلت عنه

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى « الترجمة العربية » ص ٤٥١

(٢) أنظر جمهرة أنساب العرب ص ٦١ ، نشر « بروفنسال » Provencal بالقاهرة .

(٣) أنظر « مفاخر البربر » ص ٥٩ وص ٦٢ نشر « بروفنسال » Provencal بالرباط .

(٤) أنظر مادة « البربر » بدائرة المعارف الإسلامية « الترجمة العربية » مجلد ٣ ص ٥٠١

(٥) أنظر شذرات الذهب حـ ٤ ص ٧٠ ط القدسى بالقاهرة .

(٦) تراجم إسلامية ص ٢١٢

أجابت بلسانها البربرى « يك تومرت » ومعناه « صار فرحاً » فغلب عليه ذلك اللقب . وقيل إن معناه « ابن عمر الصغير » وعمر اسم أبيه الذى كان يدعى أيضاً عبد الله ، كما دُعى ولده بمحمد ، فأشبه النبى فى اسمه واسم أبيه واتسق بذلك مع أحاديث المهدى ، أما أسماء أسلافه فبربرية .

وتاريخ مولد هذا الداعية مجهول ، ولكنه ينحصر بين ٤٧٠ هـ — ٤٨٠ هـ ويذكر « عنان » أنه كان فى عام ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢م (١) وقد ولد صاحبنا بإحدى قرى جبال السوس من أسرة هى فخذ من هرغة أحد بطون مصمودة ، ولهذا يعرف بالهرغى ؛ قال ابن خلدون : « كان من بيت نسك وكان قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى باللسان البربرى « أسافو » ومعناها الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها » .

وأكبر الظن أن هذه النزعة الملحّة فى طلب العلم ، هى التى دفعته إلى النزوح والرحلة لطلبه من ينابيعه فى المشرق والمغرب والعلامة « رينيه باسيه » Rene Basset يحدثنا أنه ابتدأ فى رحلته بالأندلس ولا يشك « باسيه » فى أن لكتابات ابن حزم أثراً فى أفكاره (٢) . ويقول « أشباخ » Aschbach إنه درس فى قرطبة قبل الرحيل إلى المشرق (٣) .

وبعد أن بلغ صاحبنا غايته من معاهد قرطبة شدَّ رحاله إلى الشرق فعرج فى طريقه على الإسكندرية ؛ وتتلمذ لأبى بكر الطرطوشى الأشعرى ، وكان يعارض تعاليم الغزالى ، ثم أخذ ابن تومرت طريقه بعد ذلك إلى العراق ، حيث درس فى بغداد وتقول الأساطير إنه التقى بالغزالى هناك ، ودارت بينهما أحاديث حول كتاب الإحياء من جهة ، وحول تنبؤ الغزالى لصاحبنا المغربى بخطر شأنه وقيام دولته من جهة أخرى . وقد سلّم بهذه الأسطورة بعض المؤرخين القدامى كابن خلكان الذى يقول :

---

(١) تراجم إسلامية ص ٢١١

(٢) أنظر مادة « ابن تومرت » بدائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ١٠٦

(٣) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين « الترجمة العربية » جـ ١ ص ١٩٥ ، وانظر صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٥ ص ١٣٦

« ثم رحل إلى المشرق فى شبيبته طالباً للعلم فانتهى إلى العراق ، واجتمع بأبى حامد الغزالى والكيا الهراسى والطرطوشى وغيرهم[١] » .

والقلقشندى الذى يحدثنا فيقول : « كان (ابن تومرت) إماماً متضلعاً بالعلوم ، قد حج ودخل العراق واجتمع بأئمته من العلماء والنظّار كالغزالى ، والكيا الهرّاسى وغيرهما ، وأخذ بمذهب الأشعرية أهل السنّة ، ورجع إلى الغرب ، وأهلُه يومئذ على مذهب أهل الظاهر فى منع التأويل ، فاجتمع إليه قبائل المصامدة من البربر ، وجعل يبثّ فيهم عقائد الأشعرية ، وينهى عن الجمود على الظاهر ، وسمَّى أتباعه الموحّدين ، تعريضاً بتكفير القائلين بالتجسيم الذى يؤدى إليه الوقوف على الظاهر[٢] » .

ويقول فى موضع آخر :

« وكان أهل بيته أهل دين وعبادة ، وشبّ محمد هذا فيهم قارئاً محباً للعلم ، وارتحل فى طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومرَّ بالأندلس ، ودخل قرطبة وهى إذ ذاك دار علم ، ثم لحق بالإسكندرية وحجّ ، ودخل العراق ، ولقى أكابر العلماء به يومئذ وفحول النظّار ، ولقى أئمة الأشعرية من أهل السنّة ، وأخذ بقولهم فى تأويل المتشابه ، ويقال إنه لقى أبا حامد الغزالى رحمه الله واستشاره فيما يريده من قيام الدولة بالمغرب[٣] » .

والقاضى الحنبلى ابن العماد يقول : « رحل إلى المشرق ولقى الغزالى وطائفة[٤] » .

كذلك أخذ بهذه الأسطورة — أسطورة التقاء ابن تومرت بالغزالى — بعض المحدَثين من الباحثين كأشباخ Aschbach [٥] وسيد أمير على[٦] ولم يُبد فيها الأستاذ عنان رأياً قاطعاً ، عندما ترجم لابن تومرت فى كتابه « تراجم إسلامية » .

---

(١) أنظر وفيات الأعيان حـ ٢ ص ٣٧ ط الحلبى .
(٢) أنظر صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٩١
(٣) المصدر السابق حـ ٥ ص ١٣٦
(٤) شذرات الذهب حـ ٤ ص ٧٠ ط القدسى بالقاهرة .
(٥) تاريخ الأندلس حـ ١ ص ١٩٥
(٦) مختصر تاريخ العرب ص ٤٥١

والحق الذى لا مرية فيه أن ابن تومرت لم يلتق قط بالغزالى ؛ قال ابن الأثير : « وقيل إنه جرى له حديث مع الغزالى فيما فعله بالمغرب من التملك ، فقال له الغزالى إن هذا لايتمشى فى هذه البلاد ولا يمكن وقوعه لأمثالنا ، كذا قال بعض مؤرخى المغرب والصحيح أنه لم يجتمع به [1] » . ويقول ابن غلبون معقباً على هذا الخبر : « هكذا قال بعض مؤرخى المغرب والصحيح أنه لم يجتمع به »[2] .

وغير بعيد أن يكون هذا اللقاء من مختلقات ابن تومرت نفسه ، ليصبغ دعوته بصبغة قدسية ؛ إذ تنبأ بها « الغزالى » وهو إمام فى الشريعة والحقيقة ، يتمتع بنفوذ كبير ويعتبر حجة الإسلام .

وقد غيرت أعوام الطلب والرحلة داعيتنا المغربى تغيراً كبيراً ، فاعتزم فى نفسه أمراً ، وهو وإن لم يكن قد رسم خطته بالتفصيل فقد تصوّرها بالإجمال ، وعندما ركب البحر عائداً إلى بلاده ، أخذ لأول مرة يأمر ركاب السفينة وبحارتها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وألزمهم إقامة الصلاة وقراءة القرآن . ولما هبط الأراضى المغربيّة ازداد حماسة وحميَّة ، فاستمر على طريقته فى شيء غير قليل من الشدة والعنف ، عملاً بقول النبىّ عليه السلام : « مَنْ رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » .

وقد كانت دولة « المرابطين » القائمة بالمغرب إذ ذاك فى دور الاحتضار ، كما كانت الحياة العقلية فى غاية الانحطاط ، مما ساعد ابنَ تومرت كثيراً فى نشر دعوته ، التى لم يقف المرابطون فى سبيلها حجر عثرة ، بل كانوا بضعفهم وانحلالهم الْخُلقى والسياسى ، أكبر عامل فى نجاحها .

وبإحدى قبائل صنهاجة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن على ، الذى ينتهى بنسبه إلى بنى سليم من قيس عيلان ، والذى تمت على يديه دعوة ابن تومرت ، وكان عبد المؤمن كأستاذه طالباً فقيراً ، يريد الارتحال لبلاد المشرق لطلب العلم ، فتحدث

(١) أنظر ابن الأثير حـ ١٠ ص ٢٠١ طبع الحلبى .

(٢) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ص ٧٨ .

إليه ابن تومرت وتفرّس فيه واختبره بدقة ، فوجد فيه عضداً قوياً وساعداً متيناً ، فأقنعه بالعدول عن رحلته كما أقنعه باصطحابه فى دعوته ، زاعماً له أنه هو المقصود بالحديث المختلق القائل : « إن الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس ، فقيل من أىّ قيس ؟ فقال من بنى سليم . . » .

ثم أخذ ابن تومرت بعد ذلك يضرب فى البلاد ، حتى وصل مراكش فسار فيها سيرته المعروفة من الأمر بالمعروف وتنفيذ برنامجه فى الإصلاح الخُلقى بالشدة والعنف ، لا يكاد يعرف فى ذلك ليناً أو هوادة ، حتى لقد أساء إلى أخت الأمير المرابطى الذى كان أكثر منه حلماً وتسامحاً ، فلم يُنزل به ما يستحقه من العقاب ، واكتفى بأن عقد مجلساً ناظر فيه ابن تومرت فقهاء المرابطين فحجهم وفلجهم ، ولم يكن ذلك عليه بعسير . ولقد أشار القاضى النابه البعيد النظر ، مالك بن وهيب على الأمير المرابطى بقتل ابن تومرت ، لِما استشفه وراء دعوته المقنَّعة من خطر داهم على الدولة ، ولكن الأمير لم يستمع لنصيحة ابن وهيب ، وأبقى على حياة الداعية الداهية ، الذى ما كاد يشعر بهذه الشباك تحاك من حوله ، حتى فرّ إلى « أغمات » حيث اشترك هناك فى مناظرات أخرى ، كان دائما يخرج منها ظافراً منتصراً ، لفصاحة لسانه وقوّة جنانه ، وحضور بديهته ، ولِما أكسبته دراسة المنطق من قوّة الحجة ووسائل الغلب والفلج .

ثم توجه ابن تومرت إلى جبال المصامدة ، وأخذ هناك ينظم دعوته ، فاكتفى بادئ الأمر بإنكار ما يخالف القرآن والسُّنَّة من أخلاق وعادات . وبعد أن أصبح له نفوذ قوىّ والتف حوله الأتباع ، هاجم المرابطين وشدد عليهم النكير ؛ لحيدتهم عن تعاليم الإسلام الصحيحة القويمة ، ورمى كل من عارضه فى ذلك بالمروق من الدين ، وأعلن حرباً دينية ليس على الوثنيين فحسب ، بل على المسلمين أيضاً ؛ لضلالتهم وسلوكهم مسالك الشيطان . وقد جاء فى رسالة حماسية له — يحرّض فيها أتباعه على محاربة المرابطين — قوله :

« فكل من أطاعهم فى معصية الله وأعانهم على ظلمهم ، فى سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم ، وكل من أعانهم من القبائل ، فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسُّنة ، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السُّنَّة وأعانوكم على جهاد الكفرة فخلّوا سبيلهم وهم إخوانكم فى دين الله وسُنة رسوله ، و إن عاندوا الحق وأصرّوا على معونة الباطل والفساد ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًّا ولا نصيرا[١] »

و بعد أن هيّأ ابن تومرت الأذهان لصفات المهدى المنتظر ، الذى يتم على يديه إصلاح الحال ، بادر فاعتبر نفسه ذلك المهدى ، وخرج به على الناس عام ٥١٥ هـ ، واصطنع له نسباً يعلو به إلى علىّ بن أبى طالب . وقد ساعده على النجاح ، تلك الأساطير الكثيرة التى راجت هناك عن قيام دولة بر برية ؛ قال القلقشندى :

« وكان الكهان يتحدثون بظهور دولة بالمغرب لأمّة من البربر ؛ وصرفوا القول فى ذلك إليه ، ودعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسّمين سنة خمس عشرة وخمسمائة فبايعوه على ذلك[٢] » .

وقد تأثرت تبعاً لذلك دعوته ، فلم تعد أشعرية خالصة ، بل خالطها الكثير من تعاليم الشيعة . ودارت بينه و بين المرابطين فى هذا الصراع معارك حربية طاحنة ، بيد أن دعوته قد أخذت فى الانتشار والذيوع ، مما أكسبه الأيد والقوة ، فى الوقت الذى كانت فيه دولة المرابطين تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ولكن لم يتح لابن تومرت أن ينعم بثمرة جهاده ، فقضى فى رمضان عام ٥٢٤[٣] هـ = سبتمبر ١١٣٠ م .

وتقول الأساطير إنه رأى فى منامه قبيل وفاته بيسير — كأن رجلاً وقف بباب داره ينشده هذا البيت :

كأنى بهذا البيت قد باد أهله   وقد درست أعلامه ومنازله

فأجابه ابن تومرت بقوله :

---

(١) تراجم إسلامية لعبد الله عنان ص ٢١٦

(٢) أنظر صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٩١

(٣) وقيل عام ٥٢٥ هـ .

كذاك أمور الناس يَبلى جديدها وكل فتًى حقاً ستبلى شمـــائله

فقال الرجل :

تزوَّدْ من الدنيا فإنك راحلٌ وإنك مسئولٌ بما أنت قائله

فقال ابن تومرت :

أقول بأن الله حقٌ شهدته وذاك مقالٌ ليس تُحصى فضائله

فقال الرجل :

فخذ عـدَّة الموت إنك ميِّتٌ وقد أزِف الأمر الذى أنت نائله

فقال ابن تومرت متسائلاً :

متى ذاك خبِّرنى هُديتَ فإننى سأعمل ما قد قلتَـــه وأعاجله ؟

فأجابه الرجل :

تبيت ثلاثاً بعـد عشرين ليـلةً إلى منتهى شهرٍ فما أنت كامله

فلم يلبث بعدها غير ثمان وعشرين ليلة[١] .

وقد رثاه شاعر مجهول بقصيدة ضافية ، اختصرها المراكشى فى كتابه « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » يقول فيها ناظمها[٢] :

سـلامٌ على قبر الإمام المجدَّد سلالةِ خـير العـالمين محمـد

ومُشْبِهــه فى خُلْقه ثم فى اسمـه وفى اسم أبيه والقضـاء المسدَّد

ومحيي علوم الدين بعد مماتهـا ومظهر أسرار الـكتاب المسـدَّد

أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا بقسطٍ وعـدلٍ فى الأنام مخـلَّد

ويفتتح الأمصـار شرقاً ومغرباً ويملك عُرْباً من مُغـيرٍ ومنجد

فمن وصفِه : أقنى وأجـلى وأنه علاماته خمسٌ تبين لمهتـد

زمانٌ واسمٌ والمـكان ونســـبةٌ وفِعْـــلٌ له فى عصمة وتأيُّد

(١) أنظر مقدمة كتاب « أعز مايطلب » لابن تومرت نشر « لوسيانى » Luciani بالجزائر عام ١٩٠٣

(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٢١ ط مطبعة السعادة .

ويلبث سبعاً أو فتسعاً يعيشها | كذا جاء فى نصٍّ من النقل مُسْنَد
فقد عاش تسعاً مثل قول نبيِّنا | فذلكم المهدىُّ بالله يهتدى
وتتبعه للنصر طائفة الهدى | فأَكرِمْ بهم إخوان ذى الصدق أحمد
هى الثُّلةُ المذكور فى الذكر أمرُها | وطائفة المهدىّ بالحق تهتدى
ويقدُمها المنصور والناصر الذى | له النصر حزبٌ إذ يروح ويغتدى
هو المنتقَى من قيس عيلان مفخراً | ومن مُرَّة أهل الجلال الموطّد
خليفة مهدىّ الإله وسيفه | ومن قد غدا بالعلم والحلم مُرْتد
بهم يقمع الله الجبابرة الألى | يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطع أيام الجبابرة التى | أبادت من الإسلام كل مشيَّد
فيغزون أعراب الجزيرة عَنوة | ويغزون منها فارساً وكأَنْ قَدِ
ويفتتحون الروم فتح غنيمة | ويقتسمون المال بالتُّرس عن يد
ويغدون للدجّال يغزونه ضحى | يذيقونه حدَّ الحسام المهنّد
ويقتله فى باب « لِدٍّ » وتنجلى | شكوك أمالت قلب من لم يوحِّد
وينزل عيسى فيهمُ وأميرهم | إمام فيدعوهم لمحراب مسجد
يصلّى بهم ذاك الأمير صلاتهم | بتقديم عيسى المصطفى عن تعمُّد
فيمسح بالكفَّين منه وجوههم | ويخبرهم حقاً بعزٍّ مجدَّد
وما إنْ يزال الأمر فيه وفيهمُ | إلى آخر الدهر الطويل المسرمد
فأبلغ أمير المؤمنين[1] تحية | على النأى منى والوداد المؤكد
عليه سلام الله ما ذرّ شارق | وما صدر الورّادُ عن وِرْد مورد

قال المراكشى : « وقد قيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه ، منعته عن ذلك الكبرة وبعد الشقة ، وإنما أرسل بها فأنشدت على

---

(١) يقصد عبد المؤمن بن على .

قبر الإمام ، وكان عمله إياها وعبد المؤمن حىّ ، فالله أعلم وهى طويلة وهذا ما اخترت له منها[(١)] » .

وهكذا مات الداعية المغربى مهدى الموحدين ابن تومرت ، دون أن يرى ثمرة جهاده الذى واصله من بعده خليفته عبد المؤمن بن علىّ ، حتى قضى على المرابطين وسقطت دولتهم المثلومة صريعة دامية تحت ضرباته ، فأنشأ على رسومها ومعالمها وفوق أطلالها وأنقاضها بالبلاد المغربية ، دولته الفتية القوية دولة الموحدين إحدى الدول التى قامت على أسطورة « المهدية » .

وقد ترك ابن تومرت تعاليمه مدونة فى كتاب أملاه عبد المؤمن هو « أعزّ مايطلب » نشره « لوسيانى » Luciani بالجزائر عام١٩٠٣ ، وقدم له « جولدزيهر » Goldziher مقدمة طويلة ممتعة ، وهو فى جملته لا يخرج عن تعاليم الأشعرية مصطبغة بصبغة شيعية . وقد ترك أيضاً رسالة قصيرة باسم « عقيدة ابن تومرت» نشرها — ضمن رسائل — الكردى بالقاهرة عام ١٣٢٨ هـ ، وهى أيضاً من نوع كتابه السابق من حيث صبغة البحث واتجاهاته ولم يكن فيهما قطّ مبتكراً أو مجتهداً ، بل كان من هذه الناحية مقلداً لا شخصية له ، وقد انتهى إلينا أخيراً بعض رسائل أخرى له نشرت مع طائفة من أخباره بقلم تلميذه أبى بكر بن على الصنهاجى المعروف بابن البيدق بعناية العلامة « ليفى بروفنسال » Provencal بعنوان « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » ، وقد جاء فى رسالة منها يوصى أتباعه :

« والذى نوصيكم به تقوى الله العظيم والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكل عليه ، واتباع الكتاب والسنَّة ، وتعليم التوحيد فأنه أصل دينكم و به تصلح أعمالكم ، والمحافظة على الصلوات فى أوقاتها فإنها عماد الإسلام ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، وائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، واقطعوا المداهنة وسوء السيرة ، وعوايد الجاهلية ، واللهو والنياحة والسخط

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٢٣

عند المصائب ، ولا تخالطوا أهل الفساد ولا تعاملوهم ، وتواصلوا فيما بينكم ولا تقاطعوا ، وتحابوا ولا تدابروا ، واتفقوا ولا تختلفوا ، وتطاوعوا ولا تنازعوا ، ولا تغتروا بالدنيا فإنها فانية وكل من عليها فان [1] » .

وقبر ابن تومرت لا يزال موجوداً في « تينمل » ، أما اسمه وتاريخه فقد ابتلعهما الماضي السحيق بين طواياه . ولعل نجاحه في دعوته هو الذي حفز بعض المغاربة من بعده ، إلى أن ينهجوا نهجه ؛ ففي أوائل القرن الثامن الهجري خرج بسوس ، في عصر السلطان يوسف بن يعقوب ، داعية يعرف بالتُوَيْزري ، زعم أنه المهدي وتبعه كثير من الدهماء ، ولكنه قتل غيلة وانقطع أمره قبل أن يعظم . وفي نهاية القرن الثامن أيضاً خرج ناعق آخر اسمه العباس زاعماً هذا الزعم ، وهاجم مراكش وأحرقها ولكنه قتل غيلة أيضاً .

(١) أنظر كتاب « تراجم إسلامية » لعبد الله عنان ص ٢١٧

الفصل السابع

المهدية فى العصر الحديث

يقول العلامة « جولدزيهر » Goldziher :

« وفى الأزمنة الحديثة نسبياً اشتد تعلق المسلمين بهذه العقيدة حتى من كان منهم غريباً عن التشيع ؛ فمسلمو القوقاز يؤمنون برجعة بطل استقلالهم « إيليا منصور » الذى ظهر قبل زعيمهم « شامل » سنة ١٧٩١ ، والذى لا بدّ أن يعود إليهم بعد قرن من طرد الروس ، ويعتقد أهل سمرقند برجعة أوليائهم ، كشاه زند وقاسم بن عباس ، كما ثبت أن الأكراد منذ القرن الثامن الهجرى على الأقل ، يؤمنون برجعة زعيمهم المصلوب ، تاج العارفين حسن بن عدى »[1] .

ويقول Goldziher فى موضع آخر من تعليقاته الممتعة على كتابه القيم « العقيدة والشريعة فى الإسلام » Vorlesungen Uber Den Islam :

« وفى القرون الأخيرة ظهرت بعض الحركات الانشقاقية الدينية ذات الصلة الوثيقة بالفكرة المهدية ، وذلك بين مسلمى الهند ، وقد أثارها رجال ادّعى كل واحد منهم أنه المهدى المنتظر ، ولا يزال أتباعهم يؤلفون جماعات وفرقاً مختلفة . وزعم هؤلاء المهديون أن انتظار المسلمين للمهدى قد انتهى بظهورهم ، وهذا هو السبب فى تسمية هذه الفرق باسم « غير مهدى » أى أنهم قوم توقفوا عن الاعتقاد بظهور المهدى فى المستقبل ، ومنهم فرقة المهدوية التى تحمل على مخالفيها فى الرأى وتبالغ فى بغضهم والتعصب عليهم . وقد أورد « سل » Sell فى كتاب « ديانة الإسلام » تفصيلات دقيقة عن هذه الفرق . ولا تزال ذكرى أحد المهديين الهنود الذين عاشوا فى نهاية القرن الخامس عشر عالقة بأذهان أهل مقاطعة كرمان (بلوخستان) .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ١٩٣ .

ويعارض السنيُّون فى هذا الأقليم (ويسمون النمازى لأنهم يؤدون الصلاة واسمها نماز) فرقةَ « ذكرى » التى ينتمى أغلب أتباعها إلى البدو من سكان البلاد ، وقد وصلوا مذهبهم وشعائرهم الحائدة عن التعاليم السنّية الإسلامية بأحد المهديين ، ويدعى الشيخ محمد الجونبورى ، الذى أخذ بعد نفيه من بلاد الهند فى التجوال من مكان إلى آخر وتوفى سنة ١٥٠٥ م فى « تيل هلمند » Tale Helmend وهم يشيدون دائرة من الأحجار فى ليلة القدر التى يقدسها أهل السنّة ، ويؤدون فى داخلها مناسكهم الزائفة ، ولذا يطلق على هذه الفرقة أيضاً اسم « دائرة والى » أى أهل الدائرة » .[١]

ولعل أهم آثار لعقيدة « المهدية » فى العصر الحديث ، هو قيام الدولة المهدية فى السودان ، ونشوء « البابية » و « البهائية » فى إيران ، و « الباريلية » و « الأحمدية » فى البلاد الهندية .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٣٤٣

محمد أحمد مهدى السودان

شخصية فذّة من شخصيات التاريخ وعلَمٌ من أعلامه ، كرثته أحوال بلاده ، وما تردّت فيه من انحطاط فكرى وخلقى واقتصادى ، نتيجة لرزوحها تحت نير الاستعمار البغيض ، فثار الرجل بمهديته لينقذ السودان من تلك الهاوية السحيقة ، ولقد عمر قلبه الإيمان العميق فى حق بلاده أن تحيا ، فأعلنها على المستعمرين حرباً شعواء لا هوادة فيها ، خرج منها ظافراً منتصراً ، وفى فترة وجيزة جمع بين السودانيين وألّف بين قلوبهم ، وأشاع بينهم العدالة والطمأنينة والحياة الكريمة ، وخلق منهم أمّة أبيّة تأبى الضيم وتستمسك بتعاليم الإسلام ، فمن هو هذا المهدى ؟

يقول الرواة : هو أبو عبد الرحمن ؛ محمد بن عبد الله ، بن فحل بن عبد الولى ، ابن عبد الله بن محمد ، بن حاج شريف بن على بن أحمد بن على ، بن حسب النبى بن صبر ، بن نصر بن عبد الكريم ، بن حسين بن عون الله ، بن نجم الدين بن عثمان ، ابن موسى بن أحمد أبى العباس ، بن يونس بن عثمان ، بن يعقوب بن عبد القادر ، بن الحسن العسكرى ، بن علوان بن عبد الباقى أبى صخرة ، بن يعقوب بن الحسن بن على بن أبى طالب .....!

هذا من جهة أبيه ، أما من جهة أمّه زينب بنت نصر ، فتنتهى السلسلة فيما يقولون إلى العباس بن عبد المطلب .....!

قال الرواة : وقد هاجرت أسرة المهدى العلوية ، من الجزيرة العربية فيمن هاجر من العلويين ، فراراً من المظالم والآلام التى كان يصبها على رءوسهم الحجاج بن يوسف الثقفى ، فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وفى عهد ابنه الوليد .

وقد اتخذت الأسرة وادى النيل مهاجراً لها ، فأقامت فى الفسطاط ما طابت لها الإقامة ، وبها مات أحد كبار رجالها المعروفين ، وهو نجم الدين بن عثمان ، ودفن عند باب الوزير وله هناك مقام يزار . ثم شدت الأسرة رحالها وواصلت رحلتها جنوباً

وقد طاب لبعض أفرادها المقام فى « كشتمة » بين أسوان والدرّ ، ومن أشهر هؤلاء نجم الدين بن عون الله ، وظل باقى الأسرة وعلى رأسهم السيد نصر الدين بن عبد الكريم ، بين ظعن و إقامة وحل وترحال ، حتى انتهى بهم المطاف والتجوال إلى أقليم « دنقله » بالسودان ، فألقوا عصا تسيارهم ، وقد وسموا المكان الذى نزلوه « بالخنّاق » ، على اسم آخر قرية سكنوها بأعلى الصعيد ، وقد اتجه بعضهم إلى جزر هناك ثلاث ، فاستوطنوها وهى ضرار ، ولبب ، وآب تركى ، ومن ثَم عرفت هذه الجزر ، وما زالت تعرف إلى اليوم ، باسم جزائر الأشراف .

ومن هذا الإقليم العلوى « دنقلة » ، وفى أواسط القرن السابع الهجرى ، سطع نجم أحد رجال هذه الأسرة المبرزين ، وهو السيد حاج شريف ، وطار ذكره و بعُد صيته وعُرف بالعلم والتقوى ، فقصده الأتباع والمريدون زرافات ووحدانا من كل فج عميق راكبين ورُجَّلاً ، وقد عمر هذا الشيخ طويلاً مستمتعاً بسلطان روحى قوى ، وولد له من الذكور ستة ، أكبرهم السيد محمد جد المهدى من قِبل أبيه ، ثم قضى الحاج شريف ، وما زالت له ولذراريه إلى الآن قباب بدنقله ، تعرف بقباب الأشراف يؤمها المريدون والأتباع .

وقد وُلد للسيد محمد بن الحاج شريف ولد ، أسماه عبد الله هو والد المهدى ، وكان صناعا ماهراً ، حذق هو و بعض أفراد أسرته حرفة النجارة وصناعة السفن ، وكانت المنطقة التى يعيشون فيها بدنقلة لا تسعفهم بالأخشاب الصالحة لمزاولة مهنتهم ، فارتحل عبد الله هذا ومعه أسرته إلى مدينة « كررى » ، الواقعة على بعد خمسة عشر ميلا شمالى « أمّ درمان » ، والتى كانت أخشاب غاباتها موائمة لمهنته ، وقد صحبه فى هذه الرحلة التى لا تخلو من خشونة ، ولده محمد أحمد .

وظل عبد الله يزاول مهنته بمدينة « كررى » حتى عام ١٢٦٥ هـ = ١٨٥١ م حيث توفى تاركاً ولده محمداً فى سن الخامسة ، ولسبب لانعلمه — ربما كان نقص الأخشاب أو مجرد الانتجاع والظعن ، حيث يدلّنا تاريخ الأسرة على أنها كانت

بدوية رحَّالة لاتــكاد تعرف الاستقرار — هاجرت الأسرة بعد موت عاهلها عبدالله إلى الخرطوم ، وهناك راحوا يزاولون مهنتهم ببلدة « المنجرة » عند « المقرن » (اقتران النيل الأبيض بالأزرق) . و بعد سنوات ست من وفاة عبد الله ، لحقته زوجه « آمنة » والدة محمد أحمد عام ١٢٧١ هـ = ١٨٥٧ م ، ودفنت بمقبرة الخرطوم القديمة . و يقال إن قبرها معروف هناك من آثار ترشد إليه وتدل عليه .

أما ابنها محمدصاحب هذه القصة وخالق تاريخها ، فقد ولد ليلة السابع والعشرين من رجب عام ١٢٦٠ هـ = اكتوبر عام ١٨٤٥ م ، بدنقلة بجزيرة « لبب »[1] إحدى جزائر الأشراف الثلاث ، وقد أطلق عليه والده عبد الله اسم « محمد أحمد » وظل يُعرف به إلى أن جهر بدعوى « المهدية » فى الثامنة والثلاثين من عمره ، حيث نقش على خاتمه « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، محمد المهدى بن عبد الله » .

لم ينعم صاحبنا بأبويه كثيراً ؛ إذ مات أبوه وهو فى الخامسة ، وفقد أمّه وهو فى الحادية عشرة . ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا وجه التشابه بينه و بين الرسول صلوات الله عليه ، فى اسمه وفى اسم أبيه ، وفى اليتم الذى لفّهما بردائه ، بل وفى طريق هذا اليتم نفسه ؛ حيث مات أبواهما أولاً ، ثم فى كفالة الغير لهما ؛ فقد كفل الرسول جدُّه عبد المطلب ، ثم عمه أبو طالب ، وكفل محمد أحمد ، أخوه الأكبر السيد محمد . وكل هذا التشابه الذى جاء دون شك وليد المصادفة البحتة ، قداستغله المهدى فيما بعد أوسع استغلال لنشر دعوته وتمـكينها . وقد حاول هو أخيراً أن يزيد من وجوه التشابه هذه بينه و بين الرسول ، فتزوّج بامرأة اسمها عائشة وكنَّاها بأمّ المؤمنين ...!

وقد كان محمد أحمد ميالاً منذ طفولته لحياة التدين والزهد ، التى انحدرت إليه بذورها من جدّه الأعلى الشيخ الصالح السيد حاج شريف ، فالتحق بكُتَّاب شرق النيل بقرية محاذية لمدينة « كررى » ، و يدعى صاحبه « الفقيه الهاشمى » ، وكان مشهوراً فى تلك الجهة بتعليم القرآن بغير أجر . وقد مكث فيه صاحبنا مدة ، خرج

---

(١) قال ابراهيم فوزى : إنه ولد بجزيرة « الخناق » عام ١٢٥٠ هـ ، أنظر كتابه « السودان بين يدى غردون وكتشنر » حـ ١ ص ٧٠

بعدها ليلتحق بمدرسة لرجل من أهل « شنقيط » ، يدعى الشيخ محمود ، كان يعلّم الناس الفقه و بعض العلوم الشرعية . بيد أن صاحبنا أيضاً لم يمكث طويلاً فى هذه المدرسة ، بل أخذ طريقه إلى مكتب الشيخ محمد الضكير ، أحد معلمى الصبيان « بالقبش » وهى قبيلة صغيرة تسكن على ضفة النيل الغربية بإزاء « الخيرق » مركز مديرية « بربر » ، ويطلق عليها اسم « القبش » أى الزهاد المتقشفون . ويقال إن للشيخ محمد الضكير هذا ضلعاً كبيراً فى ادعاء تلميذه للمهدية ، وقد صار هذا الشيخ فيما بعد من أنصار المهدى المتحمسين وأعوانه المخلصين ، وقد أبدل المهدى اسمه فأسماه « محمداً الخير » .

وقد كان الشيخ محمد الضكير هذا على حظّ وافر من الصلاح والتقوى ، و إن كان على جهل تام باللغة العربية ؛ يقول إبراهيم فوزى :

« ونقل لنا أحد تلاميذه أنه لما تصدَّر للتدريس ، كان ذا تحقيق فى مذهب إمام دار الهجرة مالك رضى الله عنه ، ومع هذا كان لا يعرف شيئاً من النحو والصرف وعلوم البلاغة ، فاحتقره تلاميذه وأسمعوه مرّات عديدة انتقاداتهم على جهله ، حتى إن أحدهم قال له يوماً : ياسيدى الشيخ إنك لا تعرف إعراب جاء زيد ، فكيف يليق بنا أن نتكوّف حولك ! فى حين أن تكوّفنا هذا لطالب العلم وأنت مفتقر إليه أكثر منّا ؟ ! . فتأثر من هذا القول وقام من مجلسه ، و بعد صلاة العشاء دعا اثنين من خاصته وركبوا دوابهم بغير أن يشعر بهم أحد ، وقصدوا الخرطوم ومنها إلى ضواحى المسلمية ، حيث اجتمعوا بالشيخ الحسين زهراء ، وقصّ عليه محمد الخير ما جرى له مع تلميذه ، فقال له : قد محضك والله النصح . ثم انقطع لدرس النحو وعلوم البلاغة على الشيخ الحسين نحو عامين ، أدرك فيهما ما يدركه غيره فى أربعة أضعافهما ، ثم عاد إلى مزاولة دروسه فى بربر »[1] .

ولما أتم محمد أحمد دروسه على الشيخ الضكير ، نزعت نفسه إلى التصوّف

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر حـ ١ ص ٣١٥

وتاقت إليه ، وقد انسابت فى عروقه جراثيمه المنحدرة إليه من أسلافه ، فرغب فى الانخراط فى سلك الطريقة « السمانية » إحدى الطرق الصوفية المنتشرة وقتذاك فى السودان ، والتى كان يمثلها الشيخ محمد شريف ، حفيد صاحب الطريقة الشيخ الطيّب ، فقصده صاحبنا وسأله الدخول فى مصاف أتباعه ومريديه ، فأجابه شيخ الطريقة إلى طلبته . وأقام المريد الجديد عنده منقطعاً للصلاة والعبادة ، متشحاً برداء التقشف والزهد ، بطريقة لفتت إليه نظر شيخه ، فمال إليه بقلبه وأحبه ، فاصطفاه وقرّبه وأدناه .

ولما آنس محمد أحمد من نفسه القوّة على التدريس افتتح مكتباً لتعليم الغلمان القرآن الكريم ، ولكن يظهر أنه برِم بهذه الحرفة ، فأبطله ورغب إلى أستاذه أن يأذن له بالسياحة وإعطاء العهود ، فأذن له ، فأخذ صاحبنا فى التجوال وإعطاء العهود على الطريقة السمانية ، وقد كثر تلاميذه ومريدوه كثرة منقطعة النظير ، حسده عليها شيخه محمد الشريف نفسه ، ثم انقلب الحسد إلى نفور وعداء فى أوائل عام ١٢٩٥ هـ ، عند ما أخذ محمد أحمد فى انتقاد أعمال أستاذه ، الذى كان يأذن للنساء فى حضور مجلسه وتقبيل يده ، وكان يسمح بالغناء والرقص ، مما رآه تلميذه غير متسق وتعاليم الإسلام ، وقد أحفظ ذلك عليه أستاذه ، الذى ضاق به ذرعاً وبرِم به ، واعتبره عاقًّا فخلعه من الطريقة . ويعتبر ذلك عند الصوفية كارثة كبرى ، فلجأ محمد إلى الملاينة والاستعطاف علّه يحظى ثانية بعطف أستاذه فيرجعه إلى الطريق ، ولكن عبثاً حاول وذهبت جهوده فى هذا الصدد أدراج الرياح ، فقد كان غضب الشيخ عليه بالغاً أقصاه . ويقال إن بذور فكرة « المهدية » كانت قد بُذرت فى ذهن التلميذ فى هذا التاريخ — ولعل لشيخه السابق الشيخ الضكير ضلعاً فى ذلك — ويقال إن سبب النفور الذى وقع بين المريد وشيخه ، يرجع إلى أنه كان يحرض شيخه الشريف على ادعاء « المهدية » ، فلما امتنع الشيخ ورأى من تلميذه ميلاً لادعائها لنفسه ، نهره وعزله من الطريق .

لم يجد صاحبنا بدًّا بعد هذا من الذهاب إلى شيخ آخر لنفس الطريقة ، اسمه

الشيخ القرشي ، وكان بينه و بين الشريف منافسة ، فخشى هذا الأخير عاقبة الأمر ، ورأى أن من الحكمة أن يرضى عن تلميذه ، فاستقدمه ليجدد له العهد ، غير أن التلميذ الداهية رفض بإباء وشمم ، وقد كان لرفضه هذا ضجة كبرى فى آذان أهل السودان ، وارتفع على أثره قدره وعلت منزلته .

جدد محمد أحمد العهد على الشيخ القرشي ، الذى كان بالغاً من العمر وقتئذ تسعين عاماً ، وكان فاقداً لقواه العقلية ، و يؤكدون أنه ذو يدٍ كبرى فى تدبير دعوى « المهدية » والتمهيد لمحمد أحمد بانتحالها ، بما أخذ يشهد له به من الشهادات الحسنة ، التى كان يدّعى أنه يتلقاها عن طريق الكشف والاطلاع على الغيب ، ولم يلبث القرشي أن مات ، فبالغ أتباعه فى إكرام محمد نكاية فى الشريف ، فازداد بذلك اشتهاراً .

وقد ترك الشيخ القرشي وصية جاء فيها : « إن زمن ظهور المهدى المنتظر قد حان ، و إن الذى يشيد على ضريحى قبة و يختن أولادى ، هو المهدى المنتظر[1] » فلما سمع محمد أحمد بذلك — وقد كان عائداً من سياحة أخرى يبث فيها بذور دعوته — طار فرحاً وشيد القبة وختن أنجال الشيخ القرشي ، بعد أن أخذ العهود والمواثيق على الناس بتصديقه فى دعواه قبل أن يصدع بها .

وكان السودان إذ ذاك يرزح تحت نير الحكم التركى الغاشم المستبد ، الذى لم يُثبت قط صلاحيته فى أى بلد ابتُلى به ، ولا غرو فالأتراك سلالة المغول ، يجمعهما العنصر الطورانى ، وهو عنصر تترى هدام ، إذا هبّت موجة منه قضت على حضارات بأسرها ، وقد كان جباة الأموال فى السودان يلهبون ظهور الجماهير بالسياط ، ويستنزفون ما عندهم من صبابة مال أو بقية متاع ، فى شىء كثير من القسوة والوحشية ، مما هبط بالمستوى الاقتصادى فى البلاد إلى حد خطير أنذر بالقحط والجدب والدمار والخراب ، وأشاع السخط والتذمر والاستياء فى نفوس الضحايا القاطنين .

وقد استغل صاحبنا محمد أحمد هذا الحال لحسابه وصالحه ؛ فكان إذا ذُكر

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر لإبراهيم فوزى ح ١ ص ٧٤

بمجلسه الضيق الذى شمل السودانيين من ظلم الجباة ، سارع بأسلوبه الجذاب وحديثه الشائق ، فنسب ذلك كله — بلباقة وبراعة — إلى فساد الزمن وضلال الناس عن سواء السبيل ، وحيدتهم عن الطريق القويم ، وأخذ يبث فى نفوس الناس أن الله سبحانه سيجعل لهم من بعد شدة فرجاً ، ومن بعد عسر يسراً ، على يد رجل صالح يبعثه الله تعالى ليصلح ما فسد ، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، هو المهدى المنتظر . . . ! وهكذا استطاع محمد أحمد أن يمهد لدعوته ويهيىء النفوس لمهديته ولقد بلغ من اهتمام الناس بحديث « المهدى » هذا ، أن صار سمرهم فى مجتمعاتهم ، وشغلهم الشاغل فى حياتهم ، وأملهم المستقبل كلما ذكروا ما يقاسونه من ضيق وضنك وما يعانونه من عسف وجور .

ولقد حدث أن جاء أحد المشتغلين بالتنجيم وكتابة الأحجبة من أهل «البقّارة» واسمه عبد الله التعايشى ، وكان أمياً بائساً يائساً من حياته ، جاء إلى المهدى وهو يشيد قبة شيخه القرشى « وحينما وقعت عينه عليه خرّ على الأرض مدعياً أنه أغمى عليه ، وبعد حين رفع رأسه فسأله الحاضرون عن سبب إغمائه فقال : نظرت أنوار المهدية على وجهه فصعقت من شدة تأثيرها على حواسى . . . ![1] » وهكذا أكد التعايشى لمحمد أحمد أنه هو « المهدى » وحثه على الظهور والجهر بالدعوى .

والحق أن التعايشى هذا ، كان قد برم بحرفته التى ورثها عن أمه أمّ نعيم وضاق بها ، وكانت تجول فى نفسه مطامع كبيرة ، لا تستطيع هذه الحرفة الحقيرة المحدودة الموارد أن تعلو به إليها ، فتقرب الى محمد بهذا الحديث ، الذى صادف هوىً فى النفس ، ولم يلبث صاحبنا بعد نجاحه فى دعوته أن حفظ له هذه اليد الطولى فى إشعال اللهب ، وذكرها له فقرّبه وأدناه ، وجعله أكبر خلفائه من بعده ، وأعطاه مرتبة الخليفة الأول أبى بكر الصديق ، فأثار هذا الصنيع سخط أتباعه ، حيث كان التعايشى من الجهل والأمية فى درجة لا تسمح له بالوصول إلى هذه المرتبة ، فكثر

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ﺣ ١ ص ٧٥

اللغط واشتد القيل والقال ، فما ازداد المهدى إلاّ تمسكاً بصاحبه ، بل رفع مكانته إلى مرتبة العصمة فى القول والعمل ، وزعم أن الرسول نفسه قد أشار إليه ، وأن الله قد اختاره واصطفاه ...!

ولا يسعنا إلا أن نورد هنا نص الكتاب الذى طلع به المهدى على الناس بهذه الدعاوى ، ليهدِّئ من ثائرتهم و يُسكت من ألسنتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، و بعد فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى بن عبد الله ، إعلاماً منه إلى كافة عباد الله المؤمنين بالله وكتابه .

« أما بعد : اعلموا أيها الأحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق ، المقلَّد بقلائد الصدق والتصديق ؛ فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية ، المشار إليه فى الحضرة النبوية ، فذلك السيد عبد الله بن السيد محمد ، حَمَدَ الله عاقبته فى الدارين ، فحيث علمتم ذلك يا أحبابى أن الخليفة عبد الله هو منى وأنا منه ، وقد أشار إليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، فتأدبوا معه كتأدبكم معى ، وسلموا إليه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لى ، وصدقوه فى قوله ولا تتهموه فى فعله ، فجميع مايفعله بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، أو بإذن منّا ، لا بمجرد اجتهاد منه ، ولا هو عن هوًى ، بل هو نائب عنه فى تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم ، والقضاء بإشارته ، فإن فِعْله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك . واعلموا يقيناً أن قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

« فمن كان فى صدره حرج لأجل حُكمه ، فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته ، وذلك بشاهد قوله تعالى : « فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليما » .

« ولا شك فى شِرك من استنكف عن حكم الله ورسوله ، سيَّما بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفى » الخ الحديث .

« مع أنه خليفة الصديق[١] وأول المصدقين فى المهدية ، فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن العظيم ، وانظروا المكانة من أورثه الله مكان الصدّيقين ، ووازره بالباطن بالخضر عليه السلام ، فهو مسدّد مؤيد من الله ورسوله ، ويدٌ من أيادى الله لنصر دينه ، بإشارة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وقد ورد فى فضله كثير ؛ فحيث فهمتم ذلك فالتكلم فى حقّه يورث الوبال والخذلان وسلب الإيمان .

« واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب ، لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ؛ ولو كان حكمه على قتل نفس منكم ، أو سلب أموالكم فلا تعترضوا عليه ، فقد حكَّمه الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا ، لتصفى قلوبكم وتقبلوا إلى ربكم . ومن تكلم فى حقه ولو بالكلام النفسى جزماً ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله ؛ لأنه خليفة الصديق الذى قال الله فى حقّه : « إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا » ، وقال عليه السلام : « ماطلعت شمس على أحد بعد النبيين أفضل من أبى بكر » .

---

(١) قسم المهدى أصحابه طوائف ، فجعل منهم أربع خلفاء راشدين ، كخلفاء الرسول الراشدين الأربع ، وجعل التعايشى خليفته الأول ، وأحله محل خليفة الرسول الأول ، أبى بكر الصديق .
ومن الطريف ماحدثنا به ابراهيم فوزى ، إذ يقول :

« ودخل عليه (المهدى) مرة شاعر ينظم أشعاراً باللغة العامية يدعى ابن التويم ، وكان يتغالى فى مدح المهدى ، حتى أفتى كثير من العلماء بكفره ، وأسروا فتواهم ، حيث أيقنوا أنهم إن أظهروها ، حكم عليهم بالكفر وقتلوا شر قتلة ، وقال المهدى : أطلب منك إعطائى مقاماً ، فقال له : أعطيتك مقام حسان بن ثابت رضى الله عنه ، فخنقته العبرة وبكى ، وقال : ياسيدى ، إن حسان كان شاعراً مثلى ، ولكنه كان جباناً ، لايقاتل مع مولاه ، وأنا شجاع ، أخترق صفوف القتال ، وأنا قائد عشيرتى ، فكيف أرضى بمقام حسان ؟ فقال له المهدى : قد أضفنا لك مقام خالد بن الوليد رضى الله عنه على مقام حسان ، فأنت إذاً حائز المقامين ، فاستبشر وقبل يد المهدى ... ، ومنح أحد الموالى مقام زيد بن حارثة ، وسمى نساءه بأمهات المؤمنين ... » أنظر « السودان بين يدى غردون وكتشنر » ح ١ ص ١٤٦

« وحيث علمتم فهو بمنزلته الآن ؛ لأن أصحابنا كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المذكور خليفتنا فى الدين ، وخلافته بأمر النبى صلى الله عليه وسلم . فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقاً بمهديتى ، فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً ، وإذا رأيتم منه أمراً مخالفاً فى الظاهر ، فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن ، واعتبروا يا أولى الأبصار بقصة موسى والخضر عليهما السلام ، حكاها الله فى كتابه العزيز كحكم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ، لتسلموا من الشكوك والأوهام .

« وإنما أنذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم ، وليبلّغ الشاهد منكم الغائب ؛ لئلا تسبُّوه وتنسبوا إليه الظلم والجور فتهلكوا ، فاحذروا من أذيّة أولياء الله ، فإنها أذيَّة الله ورسوله ، وقد لعن الله ذلك فى كتابه فقال : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة » كما قال : « من آذى لى وليًّا آذنته بالحرب »[1] فإن الله غيور على أوليائه ؛ فقد علمتم أنه ورد : « من نقض الكعبة حجراً حجراً ثم حرقها بالنار أهون عند الله من أن يؤذى وليًّا من أوليائه » .

« وإن الخليفة هو قادة المسلمين ، وخليفتنا النائب عنّا فى جميع أمور الدين ، وإياكم والوسوسة فى حقه وظن السوء وعدم الامتثال إليه فى قوله والمشاجرة له أو لأحكامه والخلاف والحسد ، فتوبوا إلى الله وارجعوا قبل أن تذهب حسناتكم ، وتُسلبوا ثواب الإيمان .

« وإنما حملنى على هذا البيان النصيحةُ فى الله ، وحمايتكم من الوقوع فى هاوية الأنفس والأمانى ؛ فمن تاب تاب الله عليه ، ومن عاد فينتقم الله منه ويسلط عليه .

« وهذا أمر الله ورسوله ؛ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم . والسلام »[2] .

وهكذا استطاع المهدى أن يخرس الألسنة ، التى كانت قد تناولت خليفته

---

(١) حديث قدسى .

(٢) « السودان بين يدى غردون وكتشنر » لإبراهيم فوزى ، حـ ١ ص ١٦٩

الجاهل بشيء من النقد اللاذع غير قليل ، وإن كانت قد أحفظت عليه القلوب وملأتها حقداً وبغضاً .

* * *

ابتدأ محمد أحمد فى أواسط عام ١٨٨١ ، يُسر بدعوته إلى تلامذته الكثيرين ، فلاقت ذيوعاً وانتشاراً قام على اثره بسياحة فى أنحاء السودان ، يبشر فيها بدعوته ويبثّها سراً بين رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، وأخذ يوحى إلى الجماهير فى منشوراته أنه مكلف بأداء هذه الرسالة من قِبل السماء ، وأن العناية الإلهية قد اصطفته واختارته وهى تحوطه وترعاه حتى يبلّغ الدعوة ، وأن محمداً عليه السلام هو الذى يأتيه بالأخبار من السماء ويرسم له أمر دعوته وطريق السير فيها . . . !

ونحن نسوق هنا بعض كتبه فى هذا الصدد ، يقول المهدى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد :

« فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى بن عبد الله ، إلى أحبابه فى الله المؤمنين بالله وبكتابه ، أما بعد :

« فلا يخفى تغير الزمن ، وترك السنن ، ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن ، بل أحق أن يترك لذلك الأوطار والوطن ، لإقامة الدين والسنن ، ولا يتوانى عن ذلك عاقل ؛ لأن غيرةَ الإسلام المؤمن تجبره .

« ثم أحبابى — كما أراد الله فى أزله وقضائه — تفضّل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله ، وأخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنى المهدى المنتظر . . . ! وخلفنى — عليه الصلاة والسلام — بالجلوس على كرسيه مراراً ، بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام . . . ! ، وأيدنى الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا . . ! وكذلك المؤمنون من الجن ، وفى ساعة الحرب يحضر معهم أمام جيشى سيدُ الوجود صلى الله

(١٤)

عليه وسلم بذاته الكريمة ، وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام ، وأعطانى سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم ، وأُعلمت أنه لا يُنصر علىَّ معه أحد ، ولو كان الثقلين الإنس والجن . . . !

« ثم أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لى على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى ، تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب ، يحملها عزرائيل عليه السلام ، فيثبِّت الله بها أصحابى ويُنزل الرعب فى قلوب أعدائى ، فلا يلقانى أحد بعداوة إلا خذله الله . . . !

« ثم قال لى صلى الله عليه وسلم إنك مخلوق من نور عنان قلبى . . ! فمن له سعادة ، صدَّق بأنى المهدى المنتظر ، ولكن الله جعل فى قلوب الذين يحبون الجاه النفاق ، فلا يصدقون حرصاً على جاههم ؛ قال صلى الله عليه وسلم : حب المال والجاه يُنبتان النفاق فى القلب كما يُنبت الماء البقل ، وجاء فى الأثر : إذا رأيتم العالِمَ يحب الدنيا فاتهموه على دينكم ، وجاء فى بعض كتبه القديمة : لا تسأل عنى عالماً أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريق محبتى فأولئك قطاع الطريق على عبادى .

« ولما حصل لى يا أحبابى من الله ورسوله ، أمرُ الخلافة الكبرى ، أمرنى سيدُ الوجود صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى ماسة بجبل قدير . وأمرنى أن أكاتب بها جميع المكلفين أمراً عاماً ، فكاتبنا بذلك الأمراء ومشايخ الدين ، فأنكر الأشقياء وصدَّق الصديقون ، الذين لا يبالون فيما لاقوه فى الله من المكروه ، وما فاتهم من المحبوب المشتهى ، بل هم ناظرون إلى وعده سبحانه وتعالى بقوله : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

« وحيث إن الأمر لله ، والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدى بن عبد الله ، فيجب بذلك التصديق لإرادة الله ، وقد اجتمع السلف والخلف فى تفويض العلم لله ، فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين ، بل يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمُّ الكتاب ، قال تعالى : « ولا يحيطون بشىء

من علمه إلا بما شاء » ، « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو » ، « لا يُسأل عما يفعل » ، « يخلق ما يشاء ويختار » ، « يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

« وقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي فى تفسيره على القرآن العظيم ، علمُ المهدى كعلم الساعة ، والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله ، وقال الشيخ أحمد بن إدريس : كذبت فى المهدى أربعة عشر نسخة من نسخ أهل الله (؟) ، ثم قال : يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونه .

« وهذا لا يخفى عليكم أن التأليفات الواردة فى المهدى ، منها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك ، فيختلف كل منها ، كما علمت من أنه يمحو الله ما يشاء (الآية) ومنها الأحاديث ، فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع ، بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح ، والصحيح ينسخ بعضه بعضاً ، كما أن الآيات تنسخها الآيات ، وحقيقة ذلك على ما هى عليه ، لا يعرفها إلا أهلُ المشاهدة والبصائر .

« هذا وقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله — كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات — . . . ! وجميعُ ما أخبرتكم به من خلافتى على المهدية الخ ، فقد أخبرنى به سيدُ الوجود صلى الله عليه وسلم يقظةً فى حال الصحة ، وأنا خالٍ من الموانع الشرعية ، لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل ، أقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فيما أمر به والنهى عما نهى عنه . . . . ! !

« والهجرة المذكورة بالدين واجبة كتاباً وسنّة ؛ قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة ، وكان رفيقَ أبيه خليل الله إبراهيم ونبيه محمدٍ عليهما الصلاة والسلام » ، وإلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

« وإجابةُ داعى الله واجبة ؛ قال تعالى : « واتبع سبيل من أناب إلىّ » ، فإذا فهمتم ذلك ، فقد أمرنا جميع المكلفين ، بالهجرة إلينا لأجل الجهاد فى سبيل الله ، أو إلى أقرب بلاد منكم ؛ لقوله تعالى : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » فمن تخلف عن ذلك ، دخل فى وعيد قوله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » الخ ، وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » الخ الآيتين .

« فإذا فهمتم ذلك فهلموا للجهاد فى سبيله ، ولا تخافوا من أحد غير الله ؛ لأن خوف المخلوق من غير الله يعدم الإيمان بالله ، والعياذ بالله من ذلك ؛ قال تعالى : « فلا تخشَوا الناس واخشونى » وقال تعالى : « والله أحق أن تخشَوه » ، لا سيما وقد وعد الله فى كتابه العزيز بنصر من ينصر دينه ؛ قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم » وقال تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله » ، وحيث إن لم تجيبوا داعى الله وتبادروا لإقامة دين الله ، تلزمكم العقوبة عند الله تعالى ، لأنكم أدلّة الخلق وأزمّتها ، فمن كان مهتماً بإيمانه شفيقاً بدينه حريصاً على أمر ربّه ، أجاب الدعوة واجتمع مع من ينصر دينه .

« وليكن معلومكم أنى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأبى حسنى من جهة أبيه وأمّه ، وأمّى كذلك من جهة أمّها ، وأبوها عباسى . . ! والعلم لله أن لى نسبة إلى الحسين . . ! وهذا (كذا) المعانى الحسان ، تكفى لمن أدركه بالله الإيمان ، فلا عبرة لمن يراها ولم يصدق بها ، هذا والسلام[1] . . . » .

ومهما يكن من شىء ، فقد صادفت دعوة المهدى ذيوعاً ونجاحاً ، كان دون ريب لحالة البلاد السياسية والاقتصادية اليدُ الكبرى فيه ؛ فقلوب الناس متفتحة ونفوسهم عطشى وآذانهم مرهفة وآمالهم معلقة ، وقد عمّهم القحط والجدب والظلم والبلاء ، حتى لم يعد فى النفوس الصابرة منزع لمصطبر ، وقد بلغ الحزام الطبيين ، وإنّا لنرى بعض شيوخ القبائل يقول للمهدى :

---

(١) انظر الفصل الخاص بمهدى السودان فى كتاب نعوم شقير « تاريخ السودان القديم والحديث »

« أبايعك على المهدية ، وإن لم تكن مهدياً . . . ، أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها [(١)] » .

والحق أن صاحبنا محمداً كان بالنسبة للسودان مبعوثاً من قِبل السماء ، أعاد للسودانيين الإنسانية والكرامة والحرية ، وجنّدهم حرباً على المستعمرين فأعطاهم دروساً قاسية لم ينسوها أبداً ، وإنه ليعدّ دون شك « باعث الحياة » فى السودان أو « منقذ السودان » أو إن شئت « مهدى السودان » .

علم محمد الشريف الشيخ السابق لصاحبنا محمد أحمد بهذا الحدث الهائل ، فسارع — تدفعه دون شك أحقاده على تلميذه العاق — بإبلاغه إلى الحكومة التى كرثها الأمر فدارت بينها وبين محمد أحمد مكاتبات ، انتهت بإعلان محمد لمهديته وجهره بدعوته عام ١٢٩٨ هـ ، وأرسل إلى أتباعه منشوراً يحثّهم فيه على الهجرة إليه يقول فيه :

« جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم فى اليقظة (كذا) ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام . . . !! ، وأمسك بيدى صلى الله عليه وسلم وأجلسنى على كرسيه وقال لى : أنت المهدى المنتظر ومن شك فى مهديتك فقد كفر . . . ! ، وأن الترك كفار وهم أشد الناس كفراً ؛ لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وأخبرنى صلى الله عليه وسلم بأن النصر يسير بين يدىّ أربعين ميلاً ، وأنه صلى الله عليه وسلم يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى ومعه الخلفاء الراشدون . . . ! ، وأن الله تعالى أيدنى بالأولياء والشهداء والصالحين من لدن آدم عليه السلام إلى زماننا هذا ، ومؤمنى الجن يجاهدون معى ، ولا يهزم لى جيش ، وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين ، وأن أصحابى كأصحابه صلى الله عليه وسلم ، وعامتهم أكبر مقاماً فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الجيلى .. الخ [(٢)] .

ولم يكد يمضى عام ١٨٨٢ حتى كان السودان بركاناً ثائراً وأتوناً مستعراً ، ينادى باسم المهدى محمد أحمد ، وقد جاءه الناس أفواجاً يتزاحمون ، يتدافعون بالمناكب يبايعون . وهاك صورة البيعة :

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر حـ ١ ص ٨٥

(٢) المصدر السابق ص ٧٧

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، أما بعد :

فقد بايعنا الله ورسوله ، وبايعناك على توحيد الله ، وألاّ نشرك به أحداً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نأتى ببهتان ، ولا نعصيك فى معروف . بايعناك على زهد الدنيا وتركها ، والرضى بما عند الله والدار الآخرة ، وعلى ألاّ نفرَّ من الجهاد »[1] .

وهكذا ابتدأ ذلك الصراع الدموى الطويل بين المهدى والحكومة ، كان صاحبنا يخرج منه دائماً أصلب عوداً وأصعب مكسراً وأكثر نفراً ، بما يحرزه فيه من نصر مبين ، وقد أخفقت الحكومة فى مقاومته ، وخسرت فى هذا المعترك كثيراً من رجالها . وبمقتل « هيكس » والقضاء على حملته ، أخلت الحكومة المصرية السودان بمشورة انجلترا ، وأصدرت بذلك قراراً بتاريخ ٨ يناير عام ١٨٨٤ ، ولم يجد المهدى بعد ذلك مقاومة تذكر ، ففتح الخرطوم وقتل غردون ودان له السودان بالطاعة ، فدبت فيه الحياة بعد موت ، وأخصب بعد جدب ، وأورق بعد أن صوّح .

وقد طمع المهدي بعد ذلك فى فتح مصر ، فبعث بإنذارين أحدهما إلى الخديو توفيق والآخر إلى المصريين ؛ فكتب إلى توفيق يعده ويتوعده ، ويسجل عليه خضوعه المشين للإنجليز ويمدّ له يده للتعاون على إخراجهم من وادى النيل ، فيقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، وبعد :

« فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله إلى خديو مصر :

« لا يخفى على من نوّر الله بصيرته وشرح صدره أن الدين الذى يكون المتمسك به ناجياً عند الله هو دين الإسلام ، الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ونزل به القرآن من الملك العلام ؛ قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » ، وقال تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » .

---

(١) تاريخ مصر الحديث لجرجى زيدان حـ ٢ ص ٢٨٣ الطبعة الثانية .

« وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو الشيطان إليه حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، ومن منحه الله تعالى عقلاً يميز به بين الخبيث والطيب ، لا ينبغى له أن يصرفه إلا فيما ينتج خلاصه عند الله ، يوم تزل الأقدام و يشيب الطفل و يشتد الزحام ، و إلاّ كان أسوأ من البهائم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه ، ولا سبيل إلى السلامة عند الله إلا اتباع دينه ، و إحياء سنَّة نبيه وأمينه ، و إماتة ما حدث من البدع والضلال ، والإنابة إليه تعالى فى كل الأحوال . وقد تأكد ذلك فى هذا الزمان الذى عمّ الفساد فيه سائر البلدان ؛ فإن دسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الإسلام ، وضلالاتهم التى مكّنوها من قلوب الأنام ، قد أفضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنّة بيقين ، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات ، وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الإسلام ، واشتد الكرب على أهل الإيمان ؛ فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر لتراكم البغى والعدوان .

« فعند ذلك أظهرنى الله طبق الوعد الصادق ؛ رحمةً لعباده لأنقذهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، وأدلّهم إلى الله على هدًى منه وتبيان ، وطوقنى بالخلافة الكبرى المهدية ، وخلع علىّ حللها البهية ، و بشرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم على كل من يعادينى ولو كان الثقلين ، و بأن من يقصدنى بعداوة يخذله الله فى الدارين ، وقلدنى سيف النصر ، وأيدنى بقذف الرعب فى قلوب أعدائى ، يسعى أمامى أربعين ميلاً وأخبرنى بأنى أملك جميع الأرض ؛ و بأن من شك فى مهديتى فقد كفر بالله ورسوله . . . ! ونفسُه ومالُه غنيمة للمسلمين ، و بأن الله قد أيدنى بالملائكة الكرام و بالجن والأولياء أحياء وأمواتاً ، وهكذا من البشارات والعجائب التى يطول شرحها ، وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين والخلفاء الأربعة والخضر عليه السلام . . . !

« وما كنت أترقب هذا الأمر لنفسى ولا سألت الله إياه ، بل كنت أسأله أن يجعلنى مُعيناً لمن يقوم به ، فلما أراد الله ما كان ، وحتم الأمر علىّ من سيد

الأكوان ، قمت بأعباء هذه الحالة ، واعتصمت بالله وتوكلت عليه ، وأخبرت الحكمدارية بأنى المهدى المنتظر ، وقد كان بها محمد رءوف ، وما تركت لأهلها فى إيضاح هذا الأمر شيئاً ، وأنا فى انتظار الاختبار ، وتسليم الأمر لله الواحد القهار .

« فما كان منهم إلّا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحاً ، وطوَوا عن قبوله كشحاً ، وبادرونى بالمحاربة من غير رويّة ولا تثبت فى هذا الأمر الدينى الذى جئتهم به من خير البريّة ، فأيدنى الله عليهم كما وعدنى .

« وهكذا صارت جيوشك تأتينى ثلّة بعد ثلّة ، وأقدم لهم الإنذارات ولم تنفعهم ، والله يؤيدنى وينصرنى عليهم كما وعدنى ، ويقطع دابرهم ، إلى أن قلَّت حيلتك وتلاشى أمرك ، فسلمت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم لأعداء الله الأنكليز ، وأحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، فجاء الإنكليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله ، فلما سوَّل الشيطان لهم إدراك غردونهم بالخرطوم ، وأيستُ من هداية أهله ، وعلمتُ أن تكرار الإنذارات لا ينفعهم ، وحقّت عليهم كلمة العذاب ، وصاروا مثل من قال الله تعالى فى شأنهم : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » الآية ، عجّل الله بفتحه وإهلاك من فيه ، وأحرقت النار أجسامهم عياناً كالذين من قبلهم إظهاراً للحقيقة وتعجيلاً للعقوبة ، وصدق عليهم قوله تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » الآية .

« ثم أنذرت الإنكليز فلووا رءوسهم ، فوجهتُ إليهم طائفة من الأنصار ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب فولوا هاربين ، بعد أن أهلك منهم من أهلك وشتت شملهم ، وهذا كله ليس بخاف عليك ، ولا زال حزب الله مقتفياً أثر باقيهم ، وعن قريب يحل به من الدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر .

« هذا . وإن المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما فى الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ، ولا يأسف على ما فات من ملكها الذى مآله إلى الزوال وعظيم النكال ، وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من النوال فى دار الكرامة والإفضال ؛ فإن الدنيا لو بقيت للأول لم تنتقل للآخر .

« ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموت أو عزل من كان قبلك ، وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك ، وحيث كان الأمر كذلك فلا ينبغي لك ، إن كنت ترجو من الله نعيم الأبد ، أن تأسف على ما فاتك من الدنيا ، ولو كان الدنيا بحذافيرها . فدقِّق النظر وأجمع عليك فكرك ، وتدارك نفسك ، واسع فيما ينجيك عند ربك إذا تمثلت بين يديه ، وسألك عما جرى منك ، وسلِّم الأمر إليه تسلم .

« وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله ، وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أفلم تسمع قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم » الآية ؟ وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » الآية ؟ وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » الآية ؟

« وما هذه الطاعة لأعداء الله ؟ والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله » إلى أن قال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » الآية ؟

« فإذا كنتَ ممن ينظر بعين بصيرته ، ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته ، فاعتبر بذلك وبادر إلى النجاة والسلامة المعتبرة وهى سلامة الإيمان ، ونزِّه نفسك عن أن تكون فى أسر أعداء الله دائماً ، ولا تهلك من كان معك من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، واغسل ما جرى منك بدموع الندم ، ولا تكترث بجاه الدنيا الفانى ولا بملكها الزائل فإن لله داراً خيراً منها ، وقد أعدها لعباده المتواضعين لجلاله ؛ قال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » الآية .

« وإياك والركون إلى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال ، حتى اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فيهلكوك كما أهلكوا من قبلك ؛ ففى الحديث القدسى : « لا تسأل عنى عالماً أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريقى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى » ، ولا تغتر بقوة حصن بلدك ، وكثرة أسلحتك وعددك الظاهرية ومظاهرة أهل الكفر لك ، فإنها لا تغنى عنك من الله شيئاً ، وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة ، مَن هو أشد منك قوة وأكثر جمعاً لما بغَوا وعثَوا فى الأرض مفسدين .

« وليكن فى علمك أن أمرنا هذا دينى مبنى على هدًى من الله ، ونورٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية ، وما قصدنا فيه إلا إحياء الدين ، وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين ، ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً ، فإن نوّر الله بصيرتك وخالفت النفس الأمارة بالسوء ، وقبلت هدينا وأنبت إلى الله بنية خالصة ، فعليك أمان الله ورسوله وأماننا ، وما بيننا وبينك إلا المحبة الخالصة لوجه الله تعالى ، ونكون نحن الجميع يداً واحدة على إقامة الدين ، وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين ، وقطع دابرهم واستئصالهم من عند آخرهم إن لم ينيبوا إلى الله ويسلموا .

« وقد حررت إليك هذا الكتاب ، وأنا بالخرطوم ، شفقةً عليك ، وحرصاً على هدايتك فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله ، ويدلك على صلاحك ورشادك فى الدارين . وها أنا قادم إلى جهتك بجنود الله عن قريب إن شاء الله تعالى ، فإن أمر السودان قد انتهى ، فإن بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية ، والإنابة إلى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية ، وأمنت على نفسك ومالك وعرضك ، أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك ، ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة .

« وهذا إنذار منى إليك ، وفيه الكفاية ، لمن أدركته العناية ، والسلام على من اتبع الهدى »[1] .

* * *

وبعث المهدى إلى أهل مصر يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد :

« فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله إلى كافة سكان مصر حكاماً وتجاراً وعمداً وغيرهم ، وفقهم الله وهداهم ، ولرشادهم ولاّهم . آمين .

« أهدى لكم السلام ، وأعرفكم أن النجاة من عذاب الله إنما تكون للمتمسك بدينه ، الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد رأيتم ما ناله من الاندراس الذى لا يخفى ، ولما أن أراد الله إحياءه وإظهار شعائره أنجز موعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فأظهرنى بالخلافة المهدية ، وأمرنى بدعاية الخلائق إلى العمل بالسنّة المرضية .

« ومن عهد ظهورى بهذا المظهر الدينى ، ما زالت دولة الترك تجيش جيوشها ، وترسل رجالها لمحاربتى من غير استناد إلى دليل شرعى ولا حكم مرعى ، بل رغبة فى ملك الدنيا الفانى ، الذى مآله الحسرة والندامه ، وجلب عذاب الله يوم القيامه ، وما زال الله يؤيدنى وينصرنى عليهم نصراً من عنده لا بحولى وقوتى ، وقد أهلك الله جميع عساكرهم الذين بالسودان على يدى ، وأحرقهم بالنار عياناً ، شاهدهم جميع من رآهم حين قتلهم الله بسيفى وما ذلك إلا إظهار لكفرهم وتعجيل لعقوبتهم .

« ولا شك أن جميع ذلك قد بلغكم ، وتواتر إليكم من الواردين ، وما زلتم عن الحق معرضين ، وعلى حب حطام الدنيا الخسيس عاكفين ، مع علمكم بأن الله قد ذمّ هذه الدنيا فى جميع كتبه السماوية ولا سيما القرآن فقد أكثر من ذمّها فيه ، ويكفى من ذلك قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر لإبراهيم فوزى حـ ٢ ص ٤٦

فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ، وقوله تعالى : «وماهذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان » . ولعظم شأن الآخرة عنده أعدّها لعباده المؤمنين ، وجعل لهم فيها من النعم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم ، ودعاهم إليها بقوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » الآية .

« وحيث فهمتم خسّة هذه الدار الفانية ، وعظم تلك الدار الباقية ، فيلزمكم الإعراض عن هذا الفانى الخسيس ، والمسارعة إلى حوز نعيم الأبد النفيس ، ولا يخفى عليكم ما حصل منكم من التفريط فى جنب الله ، وتربص الدوائر بحزب الله بالركون إلى محبة نصرة أعداء الله ، ومع ذلك فقد سامحناكم فى جميع ما جرى منكم إن بادرتم إلى إجابة دعوتنا والانتظام فى سلك أصحابنا أوّلَ وصول كتابنا هذا إليكم ، ولا نقول لكم إلا كما قال يوسف عليه السلام لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

« وليكن فى علمكم أن أمر السودان قد انتهى ، ونحن قادمون على جهتكم بحزب الله قريباً إن شاء الله . وما كاتبتكم بهذا الكتاب إلا شفقة عليكم ، وخوفاً من أن يحل بكم من العذاب ما حلَّ بإخوانكم الذين خالفوا أمرنا ، وغرتهم الأمانى ، واعتمدوا على قوتهم الظاهرية التى أنستهم قدرة الله على كل شىء . فإن شرح الله صدوركم ، وتلقيتم أمرنا هذا بالقبول ، فأبشروا بخير الدارين ، وعليكم أمان الله ورسوله وأماننا فى أنفسكم وأموالكم وأعراضكم أنتم وجميع من يجيب دعوتنا معكم . وإن ضربتم عن مقالنا هذا صفحاً ، فاعلموا أن الله تعالى قادر قاهر لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وقد وعدنى بالنصر وأيدنى بملائكته وجنده وأوليائه ، وأخبرنى بملكى لجميع الأرض ، وبأنه لا يثبت لقتالى إنسٌ ولا جنٌّ ، ولا بدّ

بإذن الله من وقوعكم فى قبضتنا ولو اتخذتم نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء وستعلمون غداً من الـكذاب ؟ .

« فيا عباد الله : ارفقوا بأنفسكم وأصلحوا عاقبة أمركم ، ودعوا هذا الإعراض ، والتلاهى بشهوات الدنيا المنغصة بالعلل والأمراض ، وتشوقوا للقاء الله ، فإن الدار آخرة والحياة آخرة . وهذه الدار قد ولَّت مدبره ، فاتخذوها معبره .

« ويحكم ويحكم إن لم تتداركوا نفوسكم وتنشلوها من هذا الوجل ، المفضى بكم إلى العطل ، وإياكم أن تغتروا بقوة حصن بلدكم ، فإن الله أقدر من كل قادر ، وكم أهلك قبلـكم من أهل الحصون المنيعة مَن هو أشد منكم قوة وأكثر جمعاً فاعتبروا بهم ، وبما فعله الله بهم ، لما بغوا وعثوا فى الأرض مفسدين ، فالله الله عباد الله ، هلمُّوا إلى النجاح والفلاح ، قبل قصِّ الجناح .

« وهذا ما حبّرته إليكم وأنذرتكم به ، ولا داعى إلى التطويل ، فإن الهداية من الله الجليل ، أسأل الله أن يلهمكم رشادكم ، ويأخذ بنواصيكم إلى طريق سدادكم ، هذا والسلام[1] . »

بيد أن صاحبنا المهدى محمد أحمد لم يعمر طويلاً ليحقق ما كان يصبو إليه ، ولقد حاول خلفه التعايشى تحقيق بعض هذه الأهداف ، فأغار بدراويشه على حدود مصر ، ولـكنه هُزم فقفل راجعاً .

* * *

وقد خرج محمد أحمد المهدى فى تعاليمه الدينية على ما قاله الفقهاء ، وكان له تشريع خاص به من اجتهاده ووضعه ، يطبقه بمنتهى الشدة والصرامة ، وقد أثار خروجه على المذاهب الفقهية المعروفة فى الإسلام سخط بعض العلماء ، فقابله أحدهم وقال له : « معلوم أن المذاهب هى أربعة : الحنفى والشافعى والمالـكى والحنبلى ، فما هو مذهب المهدى ؟ فقال له : هؤلاء الأئمة جزاهم الله فقد درَّجوا الناس ووصلوهم

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ٢ ص ٥١

إلينا ، كمثل الراوية وصلت الماء من منهل إلى منهل ، حتى وصلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيراً ، فهم رجال ونحن رجال ، ولو أدركونا لاتبعونا ، و إن مذهبنا هو الكتاب والسنّة والتوكل على الله ، وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ .. » .

وهكذا « أعلن المهدى إبطال تقليد الأئمة الأربعة وقال إنه مجتهد ، وأخذ يكتب المنشورات متضمنة كثيراً من أحكام العبادات والمعاملات ، وكان يسمى الزمن الذى قبله زمن الجاهلية أو الفترة[1] ...» .

ومن تعاليم المهدى هذه التى كان يبسطها للناس ما تضمنه هذا المنشور الذى أذاعه من الأبيِّض عام ١٣٠١ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . و بعد :

« فمن عبد ربه محمد المهدى بن السيد عبد الله ، إعلاماً منه ، إلى كافة المشائخ فى الدين ، والأمراء والنواب والمقاديم أتباع المذكورين :

« يا عباد الله : اسمعوا ما أقول لكم ، وكونوا على بصيرة ، واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التى خصكم بها ، وهى ظهورنا فهو شرف لكم على سائر الأمم .

« ولكن المطلوب منكم يا أحبابنا المهاجرة فى سبيل الله ، والمجاهدة فى سبيل الله ، والزهد فى الدنيا ، وكلُّ ما فيها فإلى البوار ، ولو كانت لها بال لكان ربكم يحليها . وانظروا فى أهلها الذين كانت فى كل ما يطلبوه (كذا) ، وصارت لهم — بعد ما كانت عسلاً — حنظلًا وسُمًّا ، وصاروا فى غاية العذاب والهلاك وشدة التعب والمشقة ، ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا ، و بعد ذلك فلهم العذاب الشديد .

« فإن عجبكم هذا فافعلوا ، و إلّا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، وجاهدوا فى سبيل الله ؛ فلهزةُ سيف مسلم فى سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة ، ووقفةٌ

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ١ ص ٩٢ وما بعدها .

فى الجهاد على قدر فواق ناقة (يعنى حلبة ناقة) أفضل من عبادة سبعين سنة .

« وعلى النساء الجهاد فى سبيل الله ، فمن صارت قاعدة وانقطع منها أرب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها ، والشابة فليجاهدن نفوسهن ، ويسكنّ بيوتهن ، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ولا يخرجن إلا لحاجة سريعة ، ولا يتكلمن كلاماً جهراً ، ولا يُسمعن الرجال أصواتهن إلّا من وراء الحجاب ، ويقمن الصلاة ، ويطعن أزواجهن ، ويسترن بثيابهن ؛ فمن قعدت كاشفة ، فاتحة رأسها ولو لحظة عين ، فتؤدب وتُضرب سبعة وعشرين سوطاً ، ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً .

« ومن قال لأخيه : يا كلب ، أو يا خنزير ، أو يا يهودى ، أو يا . . . . ، أو يا . . . . فيُضرب ثمانين سوطاً ويُحبس سبعة أيام .

« ومن قال : يا فاجر ، أو يا سارق ، أو يا . . . ، أو يا خائن ، أو يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً ، أو يا كافر ، أو يا نصرانى ، أو يا . . . فعليه ثمانون سوطاً ، ويُحبس سبعة أيام .

« ومن تكلم مع أجنبية وليس بعاقد عليها ، ولا لأمر شرعى يجوِّز ذلك الكلام فيُضرب سبعة وعشرين سوطاً ، ومن حلف بطلاق أو حرام يؤدب سبعة وعشرين سوطاً .

« ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويُحرق التنباك إن كان عنده ، وكذلك مَنْ خزنها فى فمه ، ومَنْ عملها بأنفه ، ومن أبقاها فيه يؤدب مثل ذلك ، ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً .

« ومن شرب الخمرة ولو مصّة إبرة فيؤدب ثمانين سوطاً ويُحبس سبعة أيام ، وجاره إن لم يقدر عليه يكلم أمير البلد ، وإن لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويُحبس سبعة أيام ، ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء أو إناء فيؤدب كذلك ويُحبس ، ويجاهد نفسه فى طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالأرماح ؛ لأن النفس

أشد من الكافر مقاتلة ؛ فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه ، وهى عدوّة فى صورة حبيب فقتلها صعب ، ومسلكها تعب .

« ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصى الله ورسوله ؛ قيل : كافر ، وقيل : يُقتل . وجارُه إن لم يقدر عليه يكلم أمير البلد ، وإن لم يكلمه فيُضرب ثمانين سوطاً ويُحبس سبعة أيام ، وقيل : أموالهم غنيمة .

« وبنتُ خمس سنين إن لم يسترها أهلها فيضربون من غير حبس ، ومن علم بأمَةٍ معها زوجٌ بغير عقد وصبَر يوماً ؛ قيل : يُقتل ، وقيل : يُحبس وماله غنيمة .

« واعلموا أيها الأحباب أن خلافتكم وإمارتكم ونيابتكم عنّا فى الأحكام والقضايا لأجل أن تشفقوا على الخلق وتزهدوهم فى الدنيا ليتركوها ، وترغبوهم فى الآخرة ليرغبوها ويطلبوها ، وتعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها ، وتنصفوا من أنفسكم إذا ادعوا عليكم فيها ، فما أشكل عليكم فأْمروهم فيه بالصبر لغاية طلب الأمراء وجمعهم عندنا ، ويصير تخييره بحسب الحكم فيه من الله ورسوله ، واعلموا يقيناً أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

« واعلموا أيها الأحباب أن القضايا التى كانت من اثنى عشر رجب الماضى عام ١٣٠٠ ببقعة « ماسة » ، قد صار رفعها مطلقاً ما عدا الأمانة والدَّيْن ومال اليتيم ، وأما التى بعد الاثنى عشر رجب الماضى وقبل الفتوح ، تسمع فيه الدعاوى .

« وأما قتل النفس ففيه تفصيل فى كونه مُخيِّر (كذا) ولىَّ المقتول فى أخذ الدية أو القصاص ، وأما بعد الفتوح بالنسبة إلى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير .

« فاعملوا بذلك طبق المنشور ، وكذلك مال الخلع ؛ عموماً من الأزواج بعد الدخول بهن والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن ، فلا يصح أخذه منهن ، فاحكموا فيه بالحكم الذى فصّله الله تعالى فى القرآن العظيم .

« واعلموا يا أحبابى ولا تخالفوا ، وامتثلوا الأمر وكونوا سامعين طائعين لأمرى ، ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التى منَّ الله عليكم بها فقيدوها بالشكر .

« وتزوّج الغنية بعشرة ريال مجيدى أو أنقص ، والعَزَبَةُ بخمسة ريال مجيدى أو أنقص ، ومن خالف هذا فعليه الأدب بالضرب والحبس فى السجن حتى يثوب أو يموت فى سجنه ، ومقطوع من أهل زمرتنا ، ونحن بريئون منه ، وهو برىء منّا ، والسلام[1] » .

وقد ركّز هذا الداعية مذهبه وتعاليمه فى منشور كبير ، يعتبر بين أتباعه إنجيلاً للدعوة ودستوراً لها ، ولا يسعنا إلا أن نورده بنصه لقيمته وخطورته ، يقول المهدى:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، و بعد :

« فمن عبد ربه محمد المهدى ابن السيد عبد الله ، إلى كافة الأحباب فى الله :

« أيها الأحباب ، إن الأمر كله لله و إليه المرجع والمـآب ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا أجلسنى على كرسى المهدية ، قد أمرنى بجهاد الترك ، وقال لى إن الترك كافرون بل هم أشد الناس كفراً ونفاقاً ؛ لقوله تعالى : « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » ، وأنهم يسعون فى إطفاء نور الله تعالى ؛ لقوله تعالى : « يريدون ليطفئوا نور الله » بإهانة السنّة النبوية واستضعاف الإسلام ، وقد أظهروا كتباً يريدون بها طفى نور الله تعالى ، ويسمونها كتب القانون مع شتم الإسلام وقهره .

« أما ترونهم يسحبونكم فى الحديد والسلاسل لأجل أخذ أموالكم ، لا يوقرون كبيركم ولا يرحمون صغيركم ، ويحملونكم المشاق القوية ؟ لا تتركوهم حتى يسلموكم الأسلحة والأموال ، فإن فعلوا ذلك فلا تسترقوا أولادهم ونساءهم ، بل أقرّوهم على حالهم ، وهم إخوانكم فى الدين ، وأحسنوا إليهم .

« وإن العمل كله للنية فى الجهاد فى سبيل الله ، كمثل خطاف أخذ بمنقاره من ماء البحر ؛ قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » عوضاً عنها إذا قتلوا أو قاتلوا ؛ قال تعالى : ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

---

(١) تاريخ مصر الحديث لجورجى زيدان ، جـ ٢ ص ٢٨٥ الطبعة الثانية .

« وقال لى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم : من أنكر مهديتك فقد كفر . ! و إن أرواح الترك اشتكت إلىّ وقالوا يا إلهنا (؟) وخالقنا ، إن الإمام المهدى قتلنا من غير إنذار ، فقلت يا إلهى أنذرتهم وخالفونى وصالوا علىّ ، وسيد الوجود شاهد علينا ، وقال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ذنبكم عليكم وأنكم خالفتم وصلتم فقتلتم . . . ! ؟

« وإنى عبد مأمور بإظهار الكتاب والسّنة المقبورين حتى يستقيما ، وقد أمرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن كل من خالفنى عُدَّ كافراً ... ! وأن الله قد غفر ذنب من اتبعنى وقوّانى ، وقد أمرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن زواج السيّب بخمسة ، والبكر بعشرة ريالات تخفيفاً لأمّته ، ومن نقص الصداق عن ذلك فهو أقرب إلىّ من بياض العين إلى سوادها و إياكم والزيادات .

« فامنعوا نساءكم عن النوح والتسنيم وذبح الأموال سرفاً ، وأما كيفية الحافرين والحاملين للنعش ، فلا بد من ماله ، إن كان له مال ، وإلا فمن بيت مال المسلمين . فمن بكت أو سوّدت الباب أو ناحت أو حدّت على غير زوجها ، فتؤدب حتى تظهر توبتها ، بالضرب والسخط بما يناسب لها .

« ونهيتكم عن التنباك الخبيث ، فمن شربه منكم فليؤدب حتى يموت أو يتوب

« و إن الجهاد فرض ، فمن تخلف عنه فهو عاص الله ورسوله ، ولا تقبل صلاته ولاصومه ولاصدقته ، بل أمره كلّه هدر ، فمن تركه من غير عذر باين ، فحكمه كذلك ، أطعموا طعامكم المجاهدين ، فمن لم يأخذ البيعة من الأمراء أصحاب الرايات ، الذين يخرجون من عندنا لأجل الجهاد ، فهو منافق ملعون .

« فأما العالم التابع لى فى مهديتى ، فهو كالنبى المرسل . . . ! ، والعامى التابع لى كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلانى . . . ! ، والعالم المخالف لى كفرعون ، والعامى المخالف لى كهامان . . . !

« ومن علامة مهديتى أن النار تخرج من ثقب السلاح ، أى يخرج دخاناً . . . ! وأن الله قوّانى بالملائكة الكرام ، وعزرائيل حامل لواء نصرتى ، وأن الخضر وسيدالوجود والأولياء ، من عهدأبينا آدم إلى هنا ، معى ...! ومؤمن الجن كذلك معى .

« وقد أمرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن يخرجوا الأحراز ساعة الملاقاة ، كون الجان تنفر منه (؟) ، وأمرني بأن أتوكل على الله ، كيف يهتم العبد بالرزق حيث ضمن الله رزقه ؟ لقوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » وقوله تعالى : « وما مِنْ دابة في الأرضِ إلا عَلَى الله رزقها » ، كيف يرتقي العبد من الأمراض ؟ كونه هو الفاعل ، والتوكل أولى ، وكيف يصح للعبد أن يسوء في بساط الخيرات ؟ لأن الفاعل يفعل والمفعول يدفع ؛ لقوله تعالى : « وَمَن يَتَوكل عَلَى الله فَهُوَ حسبُهُ » .

« ومن سرق منكم سرقة ، قلَّ أو كثر ، فاقطعوا يده ، لأنه يوم القيامة يقوم بلا يدٍ ويتخبط كما يتخبط العبد في الدنيا بمس الشيطان ، لا بارك الله في وليّ تركه أو أمير استعان به .

«وكذلك الزاني ، يُرجم إذا كان محصناً ، ويُجلد البكر ، وأما المرأة فإذا دخلت بالأجنبي ، الذي يخشى عليها منه ، فيؤدبان بالاجتهاد ؛ لأن الشاب والشابة إذا تلاقيا ، يكون الشيطان دليلهما ، فلا بأس بمقاضاة الحاجات بحضرة واسطة من الناس .

« ومن ترك الصلاة أو تهاون بها ، قتل حدًّا في ضرورية ، وأما من تعدّى منكم على أخيه ببسط لسانه في عرضه أو ماله ، فهو ليس مني وأنا لست منه ، وإن ادّعيتم أنكم أتباعي ولم تفعلوا فعلي ، فإنكم منافقون ؛ لقوله تعالى : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » ، فإذا لم تتحابوا كالأخوين من الأبوين فليس أنتم أتباعي .

« ومن ستر على سرقة رآها ، أو شرْب خمرٍ ، أو زنى ، فكتمه رأفة عليهم ، فهو كالفاعل ، ومن تخلف عن الجهاد ، بصحة جسم ، لا بارك الله فيه ، وإذا أخذتم ذنب الأبقار والأغنام والإبل والزرع وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم .

« اتركوا الترفهات وفراوي الريف ؛ لأن موت النفوس حياتها ، والبسوا الجبب المرقعات ، ولبّسوا نساءكم الثياب الخلقة ، وإن أمري مبهم ، لا يعرفه إلا أصحاب الحضرة ، الذين يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: «ويخلق ما لا تعلمون».

« أما ترون الترك ، لهم الأسلحة النارية والقوة العـديدة ، قد هلـكوا وأورثـكم الله أرضهم وديارهم ، هذا حصل لهم بمعصية الله ، كذلك إذا عصيتم الله يحصل لـكم كمثلهم ؛ لقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وأفضل الخلق من اتقاه بمأموراته ونهى نفسه عن منهياته ، وإن الشخص إذا أخذ البيعة وعاد إلى فعله الخبيث ، فهو كالمرتد .

« ويقول الإنسان إذا الليل أظلم بجناحه : الله القادر المقتدر القاهر على كل جبار عنيد ، ناصر الحق حيث كان به الحول والقوة ، إن هى إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ، اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشأى هذا إليك ، لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفرلى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . ومن قال هذا الدعاء صباحاً ومساء إحدى وأربعين مرة فهو معى ومع سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وإن عمله كعمل أهل السماوات والأرض . . . !

« ولا تجاوروا من ترك الجهاد ، أوفعل منكراً من المنـكرات المنهية كتاباً وسنَّة فاستعينوا عليه ، فخذوا نفسه وماله غنيمة للمسلمين المجاهدين إن استحلّ ذلك ، وإلاّ فيؤدب ، ولا تمنعوا الأراضى ، لأنها لا تُملك بل هى محوزة لبيت مال المسلمين ، وأما المجاهد فإن استضافكم فأضيفوه ، وإن استغاث بكم فأعينوه .

« وأما أرباب الجاه الذين اتخذتموهم أولياء ، إن نهوكم عن متابعتنا ، فإنهم كافرون ، لا تسمعوا لهم قولًا ، لأنهم ضالون مضلون ، بل هم أشد أهل النار ، وعملهم كعمل الذين قال فيهم ربنا : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله ربَّ العالمين » .

« وقال لى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم : إن السعيد من اتبعك والشقى من خالفك . . وإنى عبد ضعيف ، ليس لى طاقة على قوام أدنى شىء ، فضلًا عن ذلك الملك الجائر ، الذي غيَّر السنَّة النبوية والـكتب الأزلية ، وإنى على بصيرة من الله وإعانة من

رسوله ، ومعى سيف النصر ، لا ينفع الشريف شرفُه ، ولا العالم علمه ، ولا الوالى ولايته ، إلاّ باتباعى . . . ! والخير كلّه فى تسليمه الأمر . . .

« أيها الأحباب إنى محمد بن عبد الله ، وأبى حسنى من جهة أبيه وأمّه ، وأمّى عباسية من جهة أبيها وأمّها ، حينئذ لا شك أنى من نسل المصطفى صلى الله عليه وسلم . . . وأنى ولدت فى بحر النيـل ، وهاجرت إلى ماسـة ، فى أقصى الغرب ، بلصق جبل يقال له قدير ، لأنى موعود به ، فلا تلبسوا على أنفسكم بقول : ظهرنا فى المشرق ، المعنى : أننا نظهر بالمشرق ويملأ الله لنا البلدان عدلاً ، كما ملئت جوراً ، ويدرّ الله لنا الأرزاق درًّا ، ويفيض الماء فيضاً ، وتتآنس الذياب (يعنى بها السباع الضارية) فى الأنعام ، ويأمن كل مؤمن من سمّ الحية ، وهذا كلّه بعد وصولنا لبيت الله الحرام والبيعة الثانية هى الـكبرى ، وتسمى بيعة الفوز والرضوان .

« اللهم اجعلنا وإخواننا المؤمنين على التقوى لقوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون » وقوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين يا عبادى لا خوف عليـكم اليوم ولا أنتم تحزنون » وقال تعالى : « واتقونى يا أولى الألباب » وقال تعالى : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » وقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ، والتقوى المذكورة لا توجد غاية إلا بالجهاد فى سبيل الله ، والعملُ بالـكتاب والسنّة رأس المـال والجهاد ثمنه ، ويجب على المجاهدين أتباعنا الذين يلهجون بالذكر فى جلّ أحوالهم بالتهليل والتسبيح والتكبير ، وإن أصحابى كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا قاله لى بلفظه الشريف : إن أصحابك كأصحابى . . . !! ، فلما كان كذلك ينبغى لنا أن نقتفى أثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قال فيهم ربنا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » ، وكن كذلك واحمل نفسك ودُسها تحت أقدامك لعلّ الله يعلوك .

« أيها الأحباب قد أمرتكم أن من ترك منكم عقيقة ابنه فليدعها ؛ لأن الروح

تشكى إلىّ وتقول والدى لم يدعنى ، فأعطنى اسماً أدعى به ، فيقول الله لها سمِّى نفسك بنفسك ، وكذلك من لم يسمِّه أبوه فليسمّ نفسه ، ولو بعيد الشيب والهرم ، فياحسرة أبٍ لم يسمّ ابنه .

« وكذلك تجب إعادة الزكاة لمرطها ، والصوم والكفارة ، فتفحصوا عن الذنوب ، و إذا ضعف المجاهدون عن الجهاد ، أعينوهم أيها القاعدون أولو الضرر بثلث مالكم ، واتقوا نفوسكم بمالكم ولا تخزنوها ، فيها لكم ضرر وسوء حظ .

« وحكم النساء أن المرأة الناشزة لزوجها ، احبسوها فى الأوكار والبيوت المظلمة ، حتى ترجع أو يتوفاها الله تعالى كالزانية ، فمن ثبطت نفسها عن زوجها ، فمالُها غنيمة لزوجها ، و إن راضاها ، فمالُه غنيمة المسلمين ، فإن فعلوا ذلك ، فلا تعودوهم إن مرضوا ولا تشيعوا جنائزهم ولا تعينوهم عند الشدائد .

« ولا يجهل فى مهديتى إلا شقى محروم الحظ وعادم الخير والإحسان ، واعلموا أن الوقت قد أزِف ، وربما قام كالشمس تكون فى أوكار غروبها ، وتجنّبوا عن النساء والملذات العديدة التى تورث صاحبها الكبر والبطر ، وجاهدوا فى حق الله حق جهاده ، أيها الأحباب الناظرون لرضوان الله الواحد القهار وناصحو المؤمنين .

« وحبّ لأخيك المؤمن ، كما تحب لأخيك من أبويك ، وقدّم حبّ أخيك المؤمن على نفسك ، وذلك الوقت تكون صاحبنا ، فإن لم تكن كذلك ، بل أنت مغرور ، وقد حرّم الله عليك سيد الوجود .

« وأموال الغنيمة و إن قلّت كابِرة ، فإنه لا يدخل الجنة إلا من أخذها بقسمة أو شراء أو استحق شيء (كذا) من بيت مال المسلمين ، فإن من سرق منها ، لا يُقبل عمله حتى يردّها أو قيمتها ، فمن أعان مجاهداً بلقمة أو درهماً أو إناء شرب أو آلة حرب ، فكان يوم القيامة تحت ظل العرش ، ومن ناصح مجاهداً فكأنما ناصح محمداً صلى الله عليه وسلم وأمن فى الجنة .

« ليتعلم بعضكم من بعض ، وليتأدب بعضكم لبعض ، وليكسر طرفه لأخيه

المجاهد ، وألّا يعلو عليه ، وأن يساويه فى الفراش والأكل ، إلا الضرر البيّن ، وإن الأمراء والعاميين ، فكلهم على حدّ سِوى ، إلا فى الأمر والنهى ، فليحبوهم ، ولا يتفاضلون (كذا) عليهم فى المركب والملبس والأكل ، فمن فعل ذلك فهو مردود منّا ، وقال الله فى الغنيمة المتقدمة : « وما كان لنبيّ أن يغلّ ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة » فهذا العتاب — عدم نهب الغنيمة — للنبى وغيره

« فمن جاهد خوفاً على ماله أو عياله وجاهه ، فهومخسور عند الله ، كالصدقة تخرج الناس (؟) .

« أيها الأحباب كونوا ربانيين وفوّضوا أمركم إلى الله ، فإن النصر لكم ، وإن القتل الذى ترونه ، امتحاناً (كذا) لكم ، وليس يريد به تضعيف المسلمين ، وإن الله مع المؤمنين والسلام[1] » .

* * *

وقد كتب المهدى إلى « يوسف الشلالى[2] » رسالة يدافع فيها عن مهديته ، قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله المنتقم القهار ، والصلاة على سيدنا محمد وآله الأخيار مع السلام و بعد :

« فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن السيد عبد الله ، إلى يوسف حسن الشلالى ، ومَن معه من الجموع :

« وصل إلينا كتابك ، وصار معلوماً لدينا وقوفكم على الإنذار ، ومجاهرتكم بالإنكار ، وكان قصدُنا أن نضرب عن إفادتكم صفحا ، ونطوى دون إجابتكم كشحا ، ولكن أردنا أن نبين لكم غلطكم فيما ادعيتموه بالبراهين السواطع .

---

(١) أنظر الفصل الخاص بالمهدى فى كتاب نعوم شقير « تاريخ السودان القديم والحديث »

(٢) يوسف حسن الشلالى أحد القواد الذين أرسلتهم الحكومة لقتال المهدى عام ١٢٩٩ هـ ، وكان جاهلا بالفنون العسكرية جهله بالقراءة والكتابة ، وقد أرسل يوسف هذا رسالة للمهدى يدعوه فيها إلى الطاعة ويحذره من العصيان ، فرد عليه المهدى بخطابه هذا الذى أوردناه ، وكان نصيب حملة الشلالى الهزيمة والخذلان

« أما قولك : إن إرسال الطلائع ينافى دعوى المهدية ؛ لأن علم الغيب ضرورى لها ، فنقول لك : هذا جهلٌ منك بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإنه كان يرسل الطلائع كحذيفة اليمانى و بلال والزبير بن العوّام ، فلم يكن ذلك منافياً لرسالته صلى الله عليه وسلم فكيف يكون منافياً لمهديتنا ؟

« وقلتم : إننا قتلنا جملة من المتوطنين بهذا المكان ظلماً وعدواناً . فهذا كذبٌ صريح لأننا لم نقتل إلا أهل جبل الجرادة بعد أن كذّبونا وحاربونا . وقد أخبرنى النبى صلى الله عليه وسلم بأن كل من شك فى مهديتى كافر ... ، ودمه مهدور ، وماله وأولاده غنيمة للمسلمين . . . . ! ولما انقاد من بقى منهم لحكمنا ، رددنا عليهم أموالهم من أيدى أصحابنا مع أنها حلال لهم .

« وقلتم : إننا قتلنا العساكر غدراً فى الوقعتين « آبا » و « راشد بك » وهو قول باطل ؛ لأننا ما بدأناهم بالقتال ، بل هم الذين بدؤونا بالقتال ، ولما اجتمعت أرواحهم فى الدار الآخرة شكونى إلى الله عز وجل ، وقالوا : يا ربنا إن المهدى قتلنا بغير إنذار ، فقلت : يا ربى أنذرتهم فلم يسمعوا لى ، واتبعوا ساداتهم وعلماءهم ، وشهد على صحة قولى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن المهدى أنذركم فلم تسمعوا له ، واتبعتم ساداتكم وعلماءكم فأضلوكم السبيل ، وأمر بهم فسيقوا إلى جهنم ... !

« وقلتم : إن هؤلاء العساكر ما أرسلتهم الحكومة لحربنا ، بل ليقفوا على ما عندنا من الأدلة ، وهو باطل أيضاً ؛ لأن الحكومة لو كانت تقصد ذلك لما أرسلت العساكر الأغبياء وأعطتهم السلاح النارى ، بل كانت أرسلت العلماء وأهل الدراية بهذا الشأن .

« وقولكم : قوموا وتوجهوا إلى مكة المكرمة محلّ المهدية فنقول لكم : اعلموا أن توجهنا إليها يكون بأمر النبى صلى الله عليه وسلم فى الوقت الذى يختاره الله ، فإننى عبدٌ مأمور وقد أجلسنى صلى الله عليه وسلم على كرسيه وقال لى : أنت المهدى المنتظر ومن شك فيك فقد كفر . . . ! وقال لى : إن الترك كفار وهم أشد الناس كفراً ،

لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله ، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

« وقلتم : اطلبوا من الله إظهار كرامة تدل على مهديتكم ، فاعلموا أننا لا نطلب ذلك لقوله تعالى : « ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر » ، ومع ذلك فقد أظهر الله كرامة لمهديتنا ؛ حيث وُجد اسمنا منقوشاً على ورق الأشجار و بيض الدجاج ... ! ، ونحن لا نطلب من الله إظهار كرامة لمهديتنا بل نقف معه عند حد عبوديتنا ، فإن أظهر لنا كرامات كانت بمشيئته ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى و نجهلها .

« وقلتم : ما اتَّبعَنا غيرُ الجهلاء وأراذلُ البقارة ، فاعلم أن أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا كذلك ، وقد قال تعالى حاكياً عن قوم نوح : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » الآية . ولا بد أن يجعلك الله ومن معك غنيمة للبقارة .

« وقلت : لا تغتر بإسماعيل الأمين ، ونواى ، فاعلم أننى منصور على كل من ناوأنى من أهل الثقلين وقد أخبرنى النبى صلى الله عليه وسلم بأنه يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى .. ! وأن عزرائيل ملك الموت عليه السلام يحمل راية سوداء أمام جيشى .

« وقلتم : إن أفندينا ولىّ النعم أمركم بعدم محاربتنا حتى نتعدى الحدود ، وهذا قول لا يفوه به غير ضعفاء العقول ؛ لأننا تعدينا حدودكم ، وخالفنا مقصودكم من يوم قتلنا عساكركم « بآبا » و بعد هذا ليس بيننا و بينكم خطاب غير الحرب والطعان ، والسيف والسنان ، والسلام على من اتّبع الهدى ، وخشِى عواقب الرّدى ، ولعنة الله على من كذّب وتولى[1] » .

* * *

و بعد سقوط الخرطوم انتقل المهدى إلى أمّ درمان ، وجعلها عاصمة ملكه ومقر حكومته ودانت له البلاد والعباد ، و بدأ السودان به صفحة جديدة من تاريخه .

وكان المهدى طويل القامة عريض المنكبين ، أقنى الأنف عريض الجبهة واسع العينين أسودهما حاد البصر ، خفيف اللحية أسودها ، وعلى خدّيه آثار الأخاديد

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر لإبراهيم فوزى ج ١ ص ٨٦ ومابعدها

العرضية الثلاثة من كل جانب كسائر الدناقلة أبناء قبيلته ، وكان أسمر اللون قاتمه ، قوى البنية مفتول الساعدين ، وفى أول قيامه بدعوته كان ربع القامة ، فأصبح فى أواخر أيامه سميناً ضخم الجثّة عظيم الهامة ، أسنانه كاللؤلؤ لا ينفك مبتسماً فتظهر بين فكّه الأعلى فلجة تشبه الثمانية (٨) ، وهى عند السودانيين و بعض الشرقيين من علامات السعد و يقال لصاحبها أفلج ، وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة تراها دائماً نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد ، وكان مشهوراً بين أتباعه بهذه الرائحة ، حتى نسبوها إليه فسموها « رائحة المهدى » ، وذكر بعضهم خالاً كان فى خدّه ذكر هو أنه من علامات المهدية . . .

ولم يمتد بعد هذا بصاحبنا الأجل ، ففى ليلة الأربعاء لأربع ليال خلون من شهر رمضان عام ١٣٠٢ هـ ، أصيب بحمى التيفوس وذاع خبر مرضه بين الناس فلم يكترثوا به ؛ لأنهم واثقون بما كان يعدهم به من أن المنيّة لا تدركه قبل أن يفتح مصر والشام والكوفة والحجاز .

وفى صبيحة يوم الجمعة عندما أحسّ بدبيب الموت يسرى فى عروقه ، استخلف من بعده صاحبه عبد الله التعايشى ، وأمره أن يخلفه فى صلاة الجمعة ، فقيل له : إن الخليفة عبد الله أمىّ لا يعرف الكتابة والقراءة فكيف يخطب الناس ؟ ! فقال لهم : ادفعوا له ورقة الخطبة ومروه فليقرأ منها كلمتين أو كلمة ، فدفعوا له الورقة وخطب الناسَ وصلّى بهم ، وهم فى غاية العجب من جهله بالقراءة وتحريفه لألفاظ القرآن ... !

وفى يوم الأحد ثامن رمضان اشتدت وطأة المرض على المهدى ، فكان يرفع صوته مستغيثاً قائلاً : « لا إله إلّا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ، وكان يتجرد من ملابسه ويأمر بالماء البارد فيهرق على بدنه وفى يوم الاثنين تاسع رمضان سنة ١٣٠٢ هـ فاضت روحه ، وهو محاط بخلفائه ونسائه و بعض ذوى قرابته ، ثم احتفروا قبراً فى نفس الغرفة التى مات فيها ، وقالوا إنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدفن حيث قُبض ، كما دفن صلى الله عليه وسلم حيث قُبض .

وقد رثاه جماعة من أتباعه السودانيين الأدباء نظماً ونثراً ، ومنهم الأديب إبراهيم شريف الدولابى الكردفانى ، الذى رثاه بقصيدة ضافية قال فيها[1] :

كيف التئامُ فؤادىَ المفطورِ ورقودُ دمع محاجرى المفجور
أم كيف ينفكُّ الضنا عن مهجةٍ أحشاؤها تصلى على تنّور
أسفٌ على المهدىّ من مهد الصبا قد كان معصوماً عن المحظور !
لا زال فى كنف العناية يغتذى بدقائق التبصير والتنوير
حتى انتهى لمقامه الأعلى الذى عنه النُّهى فى حيرةٍ وقصور
وأقامه المختارُ عنه خليفةً خلعتْ عليه ملابساً من نور
فدعا إلى الدين الحنيف مجاهداً بالسيف والإنذار والتبشير
فتح الفتوحَ ودمَّر الكفار فى كلّ البلاد بجيشه المنصور
ومن اهتدى بهداه أصبح داخلاً سورَ الرضى أعظمْ به من سور
ومن انتمى لسواه أمسى حائراً ضلّ الطريق بليلةٍ ديجور
هو مجمع البحرين بحرِ شريعةٍ طامٍ وبحرِ حقيقة مسجور
سرُّ الوجود وترجمان الحضرة العليا ومظهر غيبها المستور !
والله أكرمه بطيب تحيــة يحذو بها موسى كليم الطور
وتفيض بالجود الكثير يمينُه أبداً بلا منٍّ ولا تكدير
لا يبتغى جاهاً ولا مالاً ولا عزَّ الملوك ولا ارتياع الدور
لما أبان لنا السبيل ولم يدع إيضاحَ منهىٍّ ولا مأمور
والدين عزَّ وأهلُه بلغوا المنى وتقلبوا فى نعمةٍ وحبور
تاقت إلى الذات العلية روحُه وسمت لمقصد صدقها المذخور
فمضى وأودع كلّ قلب حسرةً وحشا الحشا ببلابلٍ وسعير
تبكى المساجد والمحارب فقدَه ومواطنُ الأذكار والتذكير

(١) ارجع إلى كتاب نعوم شقير « تاريخ السودان القديم والحديث »

يا طيبَ أرضٍ ضم جسمَك تربُها   تزرى بعَرف المسك والـكافور
يا آل بيت المصطفى صبراً وإن   جلّ المصاب وعزّ عن تصبير
صـلّى الإله عـلى ضريح ضمَّه   أزكى صـلاةٍ فى المسا وبكور

وبعد وفاته سرعان مابويع التعايشى ولُقِّب بخليفة المهدى ، غير أن دولته لم تدم طويلاً ؛ فقد عصفت بها الجنود المصرية والإنجليزية بقيادة « كتشنر » الذى دخل أمّ درمان ظافراً فى ٢ سبتمبر عام ١٨٩٨ ، ففرّ منها التعايشى واستمر مختفياً إلى أن قُتل فى موقعة بتاريخ ٢٤ نوفمبر عام ١٨٩٩ ، وانقرضت حكومة الدراويش من السودان ودالت دولة المهدى ، ولم ينس « كتشنر » — وهو الرجل المتحضر — أن ينسف قبته وينبش قبره فى بربرية وهمجية فيبعثر عظـامه ، ويبعث بجمجمته إلى المتحف البريطانى بلندن انتقاماً لمقتل غردون .

* * *

هذا ولا يسعنا فى ختام حديثنا عن المهدى إلا أن نشيد بالأعمال العظيمة التى قام بها من أجل السودان ؛ فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، حتى ليعدّ محمد أحمد — بحق — خير من ادّعى المهدية ؛ فلقد كان الرجل حريصاً كل الحرص على تحرير بلاده من نير الاستعمار ، كما كان حريصاً على رفع مستواها الاقتصادى والخلقى وبناء مجتمع إسلامى صالح فى السودان ، قائم إلى حد كبير على التعاليم التى أقامت المجتمع الإسلامى الأول ، ولقد وفّق الرجل فى كل ذلك توفيقاً كبيراً .

وإنا لنرجو للسودان اليوم أن يذكر هذه الأمجاد ، التى تنادى أبناءه من وراء حجب الغيب ليدفعوا بالمستعمرين بعيداً عن البلاد ، ويعيدوا للسودان مجده وكرامته ، ويعيشوا مع إخوانهم — فى مصر — يداً واحدة متحابين متحدين على ضفاف النيل الخالد ، الذى وحَّدهم وجمع بينهم وألّف بين قلوبهم ، وجرى فى عروقهم منذ القدم حياةً ودماً .

البابية والبهائية

التشيع فى فارس :

ظهر التشيع فى فارس متأخراً عنه فى العراق والشام ، وهو يكاد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقيام دولة بنى العباس ، و إن وُجدت هناك بذور قديمة ترجع إلى عصر الخلفاء ، وتتصل بشخصية سلمان الفارسى ، الصحابى المعروف ، وتدور حول الحديث القائل : « سلمان منّا أهلَ البيت » .

ولكنّ هذه البذور من القلة والضعف بحيث لا يحق لنا أن نعتبرها مبدأ للتشيع فى البلاد الفارسية .

والتشيع كمذهب لم يأخذ صبغته العامة فى تلك البلاد إلا فى أواخر حياة الدولة الأموية ، أو أوائل المائة الثانية للهجرة ، وقد ازداد اتساعاً وانتشاراً بقيام الدولة العباسية ، التى مهدت لظهورها بالدعوة إلى « آل البيت » أو « الرضا من آل محمد » . وقد تقلص تبعاً لذلك ظلُّ مذهب أهل السنّة ، وأخذ الشعور القومى فى البلاد يناصبه العداء ، الذى بلغ أوجَه منذ قيام الدولة الصفوية ، التى حكمت البلاد من عام ١٥٠١ إلى عام ١٧٢١ ميلادية ، والتى عملت على توطيد المذهب الشيعى فى فارس ، وجعلته مذهب الدولة الرسمى ، وحملت الناس على معاداة مذهب أهل السنّة ومجافاته ، ولا شك أن العوامل التى أرّثت هذا الشقاق كانت سياسية أكثر منها دينية .

والشيعة فى فارس اثنا عشرية[1] ، بيد أنهم افترقوا تحت هذا العنوان إلى طوائف ثلاث : « أخبارية » ، و « اجتهادية » ، و « شيخية » ، ولكل من هذه الطوائف آراء مبنية على مقتضيات الوسط الذى تعيش فيه ، والبيئة التى تسيطر عليها .

فالأخبارية — كاسمها — تقبل جميع الأحاديث والآثار المنقولة عن الأنبياء

---

(١) راجع حديثنا عن هذه الفرقة ص ١٢٩ من كتابنا هذا .

والأئمة دون نقد أو تمحيص ؛ و بهذا يمكن أن تقبل هذه الفئة عقائد وتعاليم لم تكن ذات أصل قرآنى ، و إذا ورد فى الحديث — وهو البحر الخضم والميدان المتسع لكثير من المبادئ والمعتقدات الأجنبية — ما يوافق مشربها ، أصبحت هذه العقائد أسرع قبولاً ، و إذا أمكن وضع أحد هذه المعتقدات تحت اسم واحد من الأئمة ، كان ذلك مبرراً كافياً للأخذ به واعتناقه كعقيدة دينية دون نقاش ، مهما كان هذا المعتقد غريباً عن الإسلام ...

و إنّا لنجد فى التعاليم التى يدينون بها ويُكرهون الإسلام على قبولها ، بقايا من الديانات الفارسية القديمة ، وكثيراً من المعتقدات الساسانية .

وهم يذهبون فى حشر الأجساد مذهباً يخالف الظاهر من النصوص الإسلامية ؛ حيث لا يقولون برجعة الأجساد كما هى بعد الموت ، بل يقولون — كما قال بعض متكلمى الإسلام — إن البشر يُنشرون بأجساد أخرى غير تلك التى كانت لهم فى حياتهم الدنيا ، و يرون أن نعيم الأبرار وعذاب الفجار فى الآخرة ، كلاهما عقلىٌّ محض لا مادية فيه ، و إنما صُوِّر فقط فى قالب مادى ، تقريباً إلى أذهان عرب الجزيرة البدائيين .

و « الأخبارية » تعتقد أنها أخلص الشيعة وأقرب الطوائف إلى مبادئ التشيع كما رسمها الأئمة ، و ينتسب إلى هذه الفئة كثير من أهل الطبقة الوسطى من الشعب الفارسى .

* * *

أما « الاجتهادية » فتنقد الأخبارية بعنف ، وتنكر عليها سرعة تهافت رجالها على النقل وسهولة تلقّيهم للأخبار دون نقد أو تمحيص ، وتقول إن الخبر — لكى يكون معمولاً بموجبه — يجب أن يستوفى شروط التمحيص المنصوص عليها فى كتب الأئمة .

والواقع أن « الاجتهاديين » لا يتساهلون فى هذا الموضوع من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة العملية فنجدهم — بالعكس — يقبلون كثيراً من الروايات

عن معجزات الرسول المادية ، أو عمّا أُسند إلى الأئمة من خرق قوانين الكون وسنن الطبيعة ، ولا يفكرون مطلقًا فى نقدها أو تمحيص أسانيدها أو حتى مجرد إثارة النزاع أو الشك فيها ، لأن قدسيتها تعلو بها عندهم فوق العقل وفوق النقاش . . .

و « الاجتهاديون » — وليس لهم من اسمهم نصيب — يرفضون الكثير من مبادئ « الشيخية » — وهى الطائفة الثالثة من الشيعة الاثنى عشرية فى فارس ، وللعقل فى تعاليمهم قدرٌ وحُرمة — ويرون أن تحكيم العقل الإنسانى فى كل شىء مناف للإيمان ، ومفضٍ إلى تقويض أركان الدين . . . .

وينتسب إلى هذه الطائفة كثيرٌ من قضاة الدولة ومأمورى الإدارة والطبقات التى تشتغل بالحياة العملية ، أكثر من اشتغالها بالمسائل النظرية والبحوث الأكاديمية .

أما الطائفة الثالثة وأعنى بها « الشيخية » فسنخصها بدراسة أوسع لما لها من اتصال وثيق بموضوع كتابنا ، ولما لها من الأثر الكبير الفعال فى نشوء « البابية » و « البهائية » فى البلاد الفارسية .

الشـــــيخية

حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى (١٧٤٤ م = ١١٥٧ هـ) . وُلد صاحب هذه الفرقة الشيخ أحمد الإحسائى ، المتكلم الشيعى الاثنا عشرى ، من أبٍ يدعى الشيخ زين الدين الإحسائى ، أحد كبار مشايخ عشيرة بنى صخر ، التى يقال إنها من العشائر العربية الخالصة . وقد نزح الشيخ أحمد من موطنه الإحساء بالبحرين ، فى سنٍّ مبكرة واتجه صوب فارس ، طلباً للعلم وسعياً وراء المعرفة ، وأخذ يتقلب بين المدن التى كان يشعّ منها إذ ذاك نور العرفان ، فتنقل بين « يَزْد » و « كرمانشاه » و « تبريز » و « قزوين » ، بعقل متعطش يقظ وروح وثابة ، ولم تكتف نفسه الظمأى بما نالت من قسط وافر من تعاليم الإسلام الشيعى الاثنى عشرى على كبار مشايخ الشيعة فى فارس ، بل حفزته على التوجه إلى العراق العربى ، لترتوى من المنابع الصافية الأصيلة للتشيع ، لا سيما « كربلاء » محط أنظار الشيعة وملتقى جموعهم .

ولما أتم « الشيخ » دراسته — وقد اكتمل عقله ونضج فكره — تصدر للتدريس ونجح نجاحاً كبيراً فى اجتذاب الناس إليه ، لما حبته به الطبيعة من فصاحة فى اللسان وسلامة فى التعبير وسلاسة فى الأسلوب ، وفلج فى الحجة وقوة فى الجنان ، ومواهب شخصية ممتازة ، سرعان ما رفعت ذكره وأطارت صيته ، فأصبح ذا مقام ملحوظ وقد نُسب إليه مريدوه وتلامذته فعرفوا باسم « الشيخية » .

ومع أن « الشيخ » لم يخالف فى دروسه مبادئ التشيع الاثنى عشرى ، فقد أصرّ فقهاء العامة على مناصبته العداء ، واعتبروه مارقاً من الدين ، وذلك لما ارتآه فى مسألة معراج الرسول ومعاد البشر الجسمانيين ؛ فقد كان « الشيخ » عقلياً — إلى حدّ ما — فى تفكيره ، فأنكر جسمانية المعراج والمعاد — مقتفياً أثر الفيلسوف

الرئيس أبى على ابن سينا فيما ذهب إليه فى هذا الصدد — فقال : « إنه يستحيل على هذا البدن السفلى الصعودُ إلى الأفلاك . ومعراج الرسول معراج روحانى لا جسمانى[١] » أى أنه كان رؤيا فى المنام ، وهذا الرأى على ضعفه لم ينفرد به ابن سينا بل هو موجود فى الإسلام قال به كثيرون ، وينسب أيضاً إلى معاوية بن أبى سفيان .

أما عن معاد الناس فى الآخرة فيقول « الشيخ » : « إن هذا الجسم الترابى مؤلف من العناصر الأرضية ، فبعد الموت يتلاشى بالكلية لا محالة ، ولا يمكن أن تكون له رجعة أبداً ، أما القابل للدوام والحرىّ بالبقاء والنشر والحشر ، فهو هذا الروح الإلهى الذى هو من عالم المثال »[٢] .

ومما أخذه عليه الفقهاء إنكاره لمعجزات الرسول المادية ، وادعاؤه أن حادثة انشقاق القمر — الواردة فى القرآن فى أسلوب صريح — لم تقع قط ، وإنما هى كناية لفظية عن أهوال اليوم الآخر

أما رأى « الشيخ » فى « المهدى المنتظر » فقد كان خروجاً جريئاً حقاً ليس فقط على مبادئ التشيع الاثنى عشرى ، بل على مبادئ التشيع عامة ، بقدر ما كان قريباً كل القرب مما يقوله العامة من فقهاء أهل السنة ، إذ ذهب إلى أن « المهدى » سيوجد بالولادة ، وليس شخصاً مختفياً عن الأنظار فى بئر أو سرداب منذ ألف سنة . . .

وقد أثار عليه هذا القول الجديد الجرىء ، غضب الشيعة الذين ينتظرون — وقد عيل صبرهم — خروج صاحب الزمان محمد بن الحسن العسكرى من مخبئه ، بيد أن « الشيخ » لم يكترث لحملات الشيعة ولعناتهم ، وأخذ يبشر أتباعه بقرب ظهور المهدى وولادته ، ويحثهم على البحث عنه والترصد لبزوغ نجمه والالتفاف حول رايته ، ومن أقواله لهم فى هذا الصدد : « إياكم أن يحول بينكم وبين الإيمان به أمرٌ

(١) الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية ، لميرزا عبد الحسين آواره ج ١ ص ٤٢ « الترجمة العربية » .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣

من الأمور أياً كان عندما يبلغ مسامعكم نداؤه »[1] . وقد أيقن تلامذته أن كلماته كانت عن طريق المكاشفة اليقينية التى لا يحوم حولها شك أو ريبة .

وقد خص « الشيخ » أئمة التشيع بهالة من القداسة البالغة حدّ العبادة ، ولم يشأ هنا — مع الأسف — أن يُعمل عقله ، بل لفّه فى كساء غليظ ، وأسدل عليه ستائر سوداء كثيفة ، وتركه يغطّ فى نوم عميق ، فرأى على أسلوب « الغنوصيين » أن الصفات الإلهية قد حلّت وتجسدت فى أشخاص الأئمة ؛ فهم القوى الخالقة المسيطرة على الكون ، ولولاهم ما وُجدت العوالم ولا عُرفت ذات الله ، فارتفع « الشيخ » بالأسطورة الإمامية المعروفة إلى مدى بعيد .

يقول العلامة « هيار » Huart :

« ولسنا نعرف مذهبه الذى بسطه فى كتبه على وجه كاف ، وإذا أخذنا بما قاله « براون » فإن الإحسائى يكون من الشيعة الحلولية الذين يعبدون عليًّا »[2] .

وقد زار « الشيخ » مكة المكرمة غير مرة فى غضون حياته ، بقصد أداء فريضة الحج ، وفى المرة الأخيرة لمرحلتين بقيتا إلى المدينة المنورة ، صعدت روحه إلى خالقها وكان ذلك يوم الأحد ٢١ من ذى القعدة عام ١٢٤٢هـ = ١٨٢٧م ، فحمل رفقاؤه جسده معهم ، حيث دفنوه ببقيع الغرقد .

* * *

كاظم الرشتى :

من تلامذة « الشيخ » المقرّبين ، وُلد عام ١٢٠٥ هـ من أسرة مشهورة بالتجارة والثراء ، ذات أصل عريق وخلق قويم ، فدرج « كاظم » فى كنفها ، وشبّ فى حجرها نجيباً ذكياً ، ولما اكتمل واستوى لحق بالشيخ الإحسائى ، وانخرط فى سلك تلامذته ، ولم تمض إلا أعوام قلائل ، حتى بذّ « كاظم » جميع المريدين

---

(١) الكواكب الدرية ص ٤٦

(٢) أنظر مادة « الإحسائى » بدائرة المعارف الإسلامية « الترجمة العربية » مجلد ١ ص ٤٤٨

واكتسب قلب أستاذه «الشيخ» فمال إليه وانعطف، وأوصى له بالخلافة بعد مماته، وما كادت المنية تخترم حياة «الإحسائى»، حتى تربع «كاظم» على كرسى الخلافة تنفيذاً لوصية «الشيخ»، وبذل الأتباع والمريدون له كمال الطاعة والانقياد.

وقد سار «الرشتى» على طريقة أستاذه وسننه، واقتفى أثره بانتهاج منهجه، وقد أربى عليه فى التبشير بقرب ظهور «المهدى»، وأكبر الظن أنه قد وقف حياته لخدمة هذا الغرض، واتخذه له رسالة يحيا بها ويعمل لها ويدافع عنها، ومما قاله لتلاميذه فى هذا الصدد:

«فى أواسط القرن الثالث عشر للإسلام أى سنة ١٢٦٠ هـ ينال العالم نعمة تأويل القرآن، وتظهر وتتلألأ أسرار التنزيل وبواطن هذا السفر الجليل[١]».

وعند ما أخبر «الرشتى» تلامذته بقرب وفاته جزعوا جزعاً شديداً، فالتفت إليهم قائلاً: «إن أوقات بقائى بهذه الدنيا قد انتهت، وساعة الرحيل قد دنت، فلماذا تحزنون من نبأ وفاتى؟ ألا ترضون أن أذهب، والحق يظهر؟[٢]...»

وفى هذا السبيل أخذ «الرشتى» يتابع جهاده ليؤدى رسالته العليا، رسالة الإرشاد ولفت الأنظار إلى قرب ظهور «المهدى» الذى طالما انتظره الجميع قروناً عديدة فى ترقب ولهفة بالغين — حتى وافاه القضاء المحتوم عام ١٢٥٩ هـ = ١٨٤٣ م.

وهكذا يتضح لنا من تاريخ «الرشتى» وأستاذه «الشيخ الإحسائى»، أو من دراسة «الشيخية»، ما لها من الأثر الهامّ والمباشر فى قيام الدين الجديد، أعنى الديانتين «البابية» و «البهائية» اللتين اعتمدتا فى ظهورهما على أسطورة «المهدى».

---

(١) الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية حـ ١ ص ٥٠ ومابعدها
(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٥١

البـــابية

فى غرّة المحرم عام ١٢٣٥ هـ وُلد بشيراز — المعروفة بدار العلوم — الشاب الورع السيد على محمد الشيرازى ، من أسرة محترفة للتجارة ، ينتهى نسب أبيه « أغا سيد محمد رضى » ونسب أمّه « فاطمة بكم » — على ما يزعم الرواة — إلى علىّ بن أبى طالب . . . كبقية الرعيل السابق من الدعاة وقد توفى والده وهو صغير ، فكفله خاله « الحاج سيد على » وضمّه إليه ، وقام بتربيته إلى أن بلغ أشدّه واستوى ، فاشتغل بتجارة أبيه

وقد ولع هذا الشاب منذ نعومة أظفاره بالاتجاه الدينى ، الذى انتهى به إلى حياة من النسك الصوفى ، والزهد الهندى والتقشف القاسى والتحمل « الرواق » ، حتى ليقال : إنه كان يقعد الساعات الطوال فى الشمس الحارة ، حاسراً عن رأسه ، تطهيراً لنفسه وكبحاً لجماح شهواتها — ولعله كان يحذو فى ذلك حذو «ديوچينيس» — إلى غير ما يُروى عنه فى هذا الصدد من ضروب التعبد الشاق .

تلقّى صاحبنا الشاب دروسه الأولى بمكتب « الشيخ عابد » أحد علماء شيراز المحترفين لمهنة تأديب النشء ، ثم توجه بعد ذلك إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين ، فعرج فى طريقه على مجلس « الرشتى » وتردد عليه مرتين ويقال :

« إن الأستاذ السيد الرشتى مع تبحره فى العلوم والمعارف ، وبلوغه العقد الخامس من العمر ، أدّى للشاب حين حضوره حلقة الدرس فائق التجلة والاحترام ، وقطع التدريس وحوّل أنظاره إلى حضرة الوارد ، ثم انبرى يشرح المسائل المتعلقة بظهور المنتظر . فبعد أن أعلن الشاب دعوته ، وسمع التلاميذ نداءه ، تذكروا تلك المقدمات التمهيدية التى كان يزوّدهم بها الأستاذ السيد ، وفطنوا إلى أنها كانت موجهة إلى جنابه ، قائلين إن السيد كان مقصده إفهام التلاميذ ، أن هذا الوارد عليهم هو صاحب المقام ، ومنتظر وموعود الإسلام[1] » .

---

(١) الكواكب الدرية جـ ١ ص ٦٨ ومابعدها .

وهكذا كان حضور صاحبنا مجالس « الرشتى » — بمحض المصادفة وهو فى طريقه إلى كربلاء — من أهم العوامل التى ساعدت على نجاحه فيما بعد، لما أوجده من أقاويل و إشارات وأساطير، كانت له عوناً ونصيراً .

وأكبر الظن أن صاحبنا السيد عليًّا هذا، لم يحظ بنصيب وافر من الدراسة والتثقيف، فإذا استثنينا تلك المعلومات البدائية، وتلك الدروس الضحلة البسيطة الأولية التى تلقاها بمكتب « الشيخ عابد »، ومجلساً أو مجلسين فى حلقة « الرشتى » — لا نظن أنه خرج منهما بشىء ذى بال — فإنّا لا نجده بعدها درس كتاباً قط، أو قرأ على أستاذ ما، وقد وضح جهله وظهرت أميّته المطبقة فى أخطائه الكثيرة التى لا تغتفر فى قواعد النحو الأولية، و إن كان هو يسدّ هذا النقص ويموّه على أتباعه البُله، بزعمه أن كلام الله الذى يجرى على لسانه لا يتقيد بقواعد اللغات البشرية . . . . !

ومهما يكن من شىء فقد عاد السيد علىّ بعد زيارته الخفيفة للأستاذ « كاظم الرشتى » إلى شيراز، معتقداً أنه قد استكمل دراسته — مع أنه كان فى حاجة شديدة إلى بدئها — وأخذ يحاضر فى المساجد كأحد أتباع الطريقة « الشيخية » التى انتشرت تعاليمها فى البلاد، وبهذا فقط نفسر نجاحه الفذّ فى اجتذاب كثير من الطلاب الذين استمعوا إليه، وقد زادهم به تعلقاً فصاحةٌ فى لسانه وانطلاق فى بيانه .

وفى هذه الأثناء توفى السيد « كاظم الرشتى » بعد أن أكثر من التبشير بقرب ظهور « المهدى » فرأت « الشيخية » أنها فى حاجة بعد وفاته لشخص يلى رياستهم الزمنية، فذهب عدد من رجالهم إلى مسجد الكوفة — حيث فيه ينتظر الكثيرون ظهور الإمام الثانى عشر — وهناك حبسوا أنفسهم وأخذوا فى الصلاة والصيام، تقرباً إلى الله ليوفقهم إلى رئيس زمنى جديد .

وهنا فكَّر الشيخ « حسين البشروئى » — من رجالهم ذوى النفوذ، ومن تلامذة « الإحسائى » و « الرشتى »، الذين يحظون بقسط وافر من التعظيم والاحترام —

فى اختيار صاحبنا السيد على محمد ، أحد أتباع الطريقة رئيساً لها ، وقد كان أتيح له أن رآه بمجلس « الرشتى » وأعجب بزهده وتقشفه فأحبه ومال إليه ، بيد أنه اعتزم اختباره بنفسه فارتحل إلى شيراز .

وفى اليوم الخامس من جمادى الأولى عام ١٢٦٠ هـ = ٢٣ مايو عام ١٨٤٤ م بينما كان الشيخ « البشروئى » جالساً مع هذا الشاب يراقبه ويختبره ، إذ بادر هذا فأعلن له دعواه وبغته بها بغتة ، وزعم أنه « المهدى » المنتظر ، ودعاه إلى الإيمان به ! فدهش الشيخ من جرأته وسُقط فى يده ، وإنه ليحدثنا فيقول :

« فى تلك الليلة التى كاشفنى فيها بسرِّ أمره ، أخذت الحيرة منى كل مأخذ ، وطفقت أسائل نفسى قائلاً : ترى ماذا جرى لهذا السيد التقى حتى اجترأ على دعوى عريضة كهذه ؟ ! فالواجب علىّ أن ألقى عليه بعض المسائل المعضلة الغامضة ، حتى لا يجد مجالاً للكلام ، وإذاً يرجع أدراجه ويعود عما فى خياله ، فخاطبته قائلاً :

« أيها السيد : إن المقام الذى تدّعيه حضرتكم هو مقام هائل خارج عن حدّ التصور ، ورتبة فى منتهى العلوّ والجلال ، وأقصى مراتب العزة والكمال ، فقبوله دون بيّنة وبرهان خارج عن حيز الاحتمال والإمكان ، فما هو برهانكم على صدق ادعائكم هذا المقام ، وحقيقة هذه الدعوى عظيمة الخطر والمقدار ؟ فأجابنى قائلاً : إن طرق الوصول إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ، فأى برهان تريدون وبأية حجة تقتنعون ؟ فأجبته قائلاً : بما أنى مطلع على الاصطلاحات العلمية ، وقد احتملتُ المشاق العديدة فى سبيل تحصيل المعارف والعلوم ، فأرانى فى حاجة إلى دقائق علمية تفوق علوم الناس كافة ، وتسمو عن مدارك الأوائل والأواخر ، حتى يتسنى لى إدراك المقصد والمطلب ، وشرعتُ أُلقى مسائل مشكلة علمية ودينية تباعاً على حضرته ، فكان يجيبنى عليها واحدة واحدة بأجوبة شافية وافية[1] » .

---

(١) الكواكب الدرية حـ ١ ص ٧٤ ، ولا يعزب عن بالنا أن « البشروئى » روى لنا روايته هذه بعد الإيمان بمزاعم على محمد .

وكان من المسائل التي دار النقاش فيها مسألة قرب ظهور المهدي ، فسأل السيدُ على الشيخَ « البشروئي » عن علاماته وصفاته التي اختص بها ، فأخذ الشيخ يسرد عليه بعضاً منها وقال في ختام حديثه : « وأيضاً إنه يكتب تفسيراً لسورة يوسف » ، فسرعان ما التفت إليه السيد وناوله شرحاً لهـذه السورة كان يخبئه لحينه ، أسماه « أحسن القصص » . وتقول الرواية إن « البشروئي » عند ما نظر في هذا التفسير ، خرج زمام الأمر من يده ، وأعلن فوراً أن السيد علي محمد هو حقاً « الباب » للاتصال بالإمام الغائب ، وأصبح هو أول مريديه ؛ فلقب من أجل ذلك « بباب الباب » ، ثم صدرت إليه أوامر مولاه الشاب بالارتحال عن شيراز ، والضرب في الأرض مبشراً بالدعوة الجديدة ، وداعياً لها ، فأخذ الرجل[1] في التجوال في البلاد حتى دخل مدينة طهران ؛ حيث آمن على يديه الأخوان « بهاء الدين » و « صبح أزل » ، وإن لهما في تاريخ هذا الدين لصفحات وصفحات

أما سيده « الباب » فقد توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وألف أثناء رحلته إليها بعض رسائل ، يزعم أتباعه أنها من وحي الله ، ثم عاد بعدها إلى شيراز ليواصل جهاده في سبيل رسالته .

وفي الخامس من جمادى الآخرة عام ١٢٦٠ هـ = ١١ يونيو عام ١٨٤٤ م أعلن صاحبنا السيد علي محمد التاجر الجاهل أنه « الباب » بمعنى أنه الوسيلة الموصلة إلى معرفة الحقيقة الإلهية ، وذلك بعد أن شهد له أصحابه — بسبب حماسته المتقدة — بأن العناية الإلهية قد اصطفته لغاية سامية ، وكانت هذه الشهادة من إخوانه الملتهبين غيرةً وحماسة ، إيحاء قوياً ، أثر في عقل هذا الغريق في تأملاته وأفكاره ، وبعد أن أفرغ عليه الشيخ « حسين البشروئي » هذا اللقب .

وترجع هذه الفكرة إلى أقدم أحاديث الشيعة التي تروى أن النبي قال : « أنا مدينة

---

(١) اشترك « البشروئي » بعد ذلك في الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في البلاد بين « البابية » والحكومة ، وكان بطل معارك قلعة « الطبرسي » وفيها لاقى مصرعه

العلم وعلىّ بابها » .[1] وقد كان هذا الحديث هو المخرج الوحيد الذى فسّر به السيد على محمد دعوته ، عندما عقد له مجتهدو الشيعة فى « تبريز» مجلساً ، لمناقشته فى دعواه التى اعتبروها زندقة ومروقاً من الدين .

أما لفظة « الباب » هذه فقد استعملها « الإسماعيلية » عنواناً على « الشيخ » أو « الأساس » ، الذى يعلّم الناس أسرار الدين ، أو الدعوة السرّية الإسماعيلية ، وكان سلمان الفارسى معروفاً بين « النصيرية » « بالباب » ؛ لأن أمر الدعوة كان معهوداً إليه بعد موت الرسول كما يزعمون واللفظة أيضاً كثيرة التداول عند الصوفية ، وعند بعض الفرق الباطنية تطلق على أركان الدعوة من الزعماء ، بمعنى أن هؤلاء الزعماء هم واسطة الدخول وسبب الوصول .

* * *

لم يتردد صاحبنا السيد على فاعتقد أنه يؤدى رسالة سامية فوق مستوى البشر ، وأن أداءها هو نتيجة حتمية ملازمة للتطور التاريخى للإسلام ، والتحقق الكامل لرسالته العالمية ، و بعد أن أعلن أنه « الباب » الذى يُتوصل به إلى الإمام المستور « الذى يعدّ المصدر الأعلى لكل حقيقة وهداية » ، سرعان ما جال فى روعه أنه أكبر من أن يكون واسطة للإمام الغائب فحسب ! وأن الله قد رفعه على هذا الإمام اقتصاداً فى مراحل التطور الروحى ، واختصاراً لمراتب الهداية ؛ فاعتقد أنه «المهدى» الذى لا بد من ظهوره لإصلاح الكون وتخليص بنى الإنسان من المظالم والطغيان ونشر العدالة بين البشر . .

وهذه الدعوى العريضة من صاحبنا هذا ، واقتناع « الشيخية » بها ، وحرصهم على الذود عنها ، والدفاع عن مبادئها بالمال والدماء ، نستطيع فهمها وتفسيرها فى سهولة ويسر ؛ فالشيخية جماعة من الشيعة الاثنى عشرية ، انقادوا دون وعىٍ للأضاليل والأباطيل التى لفقّها لهم الشيخ « الإحسائى » وتلميذه « الرشتى » حول

---

(١) رواه الترمذى

ظهور « المهدى » القريب ، والتبشير بعهده ، والحثّ على طاعته والإيمان به ، تلك الأقاويل التى شغلت أذهان « الشيخية » واستقرت فيها لا تريم ولا تبرح ؛ وكيف وقد عيل صبرهم ونفد ، من طول انتظار إمامهم المستور محمد بن الحسن العسكرى ، وهو فى غيبته الكبرى بعد أن مرَّ على انتهاء غيبته الصغرى ما يقرب من عشرة قرون ، و « الشيخية » فى تأييدهم للسيد على يعلنون ابتداء دور آخر ، يمثَّل فيه الإمام المنتظر بشخص مرئى مشاهَد وهو « الباب » .

ويلاحظ الدارس لتاريخ هذا الدين أن « الشيخية » لم تدن جميعها بمزاعم السيد على « الباب » ؛ فقد رفض الحاج محمد كريم خان الكرمانى الملقب بالأثيم ، هذه الدعوى وتابعه أشياع كثيرون .

يقول « الأثيم » إنه بالنظر لهذا الإثم العظيم والخطأ الكبير اللذين ارتكبهما السيد الباب بادعائه المهدية ، قد وقع البداء فى أمر ظهور المهدى وتأجل ميعاد قيامه ، ويجب ألاّ نتوقع بعد اليوم حدوث الظهور بسرعة ، وربما يمتد إلى ألف سنة أخرى[1] » .

وأخذ « الأثيم » يصنف الكتب والرسائل فى دحض مفتريات « الباب » ومزاعمه ، ومن جملتها « إرشاد العوام » و « رد الباب والبابية » .

والحاج محمد كريم خان هذا من شيوخ « الشيخية » ذوى النفوذ ، ومن أسرة كريمة ذات مكانة وفضل ، وكان الرجل عزيزاً فى قومه ، بيد أنه كان ديِّناً متواضعاً فلقّب نفسه بالأثيم ، اعترافاً بذنوبه على سبيل الزلفى إلى الله ، وقد أكثر من إطلاق هذا اللقب على نفسه فى مؤلفاته فيقول : « هكذا يقول العبد الأثيم كريم بن إبراهيم » إلى أمثال ذلك فاشتهر به ، غير أنه لسوء الحظ عندما أخذ الرجل يناهض « البابية » ويكثر من تفنيد مزاعمها والتشنيع بمبادئها ، استغل خصومه « البهائيون » — فيما بعد — لقبه هذا الذى اختاره لنفسه تواضعاً ، وقلبوه ضدّه ووسموه به على سبيل القدح والذم ، وقرنوه بالآيات القرآنية القائلة : « إن شجرة الزقّوم طعام الأثيم كالمهل

(١) الكواكب الدرية جـ ١ ص ١٥٤

يغلى فى البطون كغلى الحميم » ، « خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه » ، « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

ومهما يكن من شىء فقد نجح الرجل فى محاربة « البابية » ، وانقسمت « الشيخية » بذلك طائفتين : « الشيخية البابية » الذين آزروا « الباب » وجاروه فى مزاعمه ، و « الشيخية الكرمانية » الذين أنكروا هذه المزاعم ، والتفوا حول صاحبهم الكرمانى محمد عبد الكريم خان ، وهؤلاء مع رفضهم دعوى «الباب» يقولون بوجوب وجود شخص كامل ، يتمكن من التوسط بين الإمام الغائب وشيعته ، ويجمعون على أن صاحبهم « الأثيم » محمد عبد الكريم كان يرى نفسه أنه هو ذلك الرجل الوسيط ، وأكبر الظن أن أتباعه أيضاً كانوا ينظرون إليه كذلك . . .

ومهما يكن من دعوى هؤلاء وإنكارهم لما جاء به « الباب » ، فقد تمسكت « الشيخية البابية » بحقيقة أن السيد على محمد قد ظهر ، بعد أن مضى على غيبة الإمام الثانى عشر نحو ألف من السنين ، وتبعاً لأوهام الشيعة فى هذا الانتظار ، فإن الإمام الثانى عشر سيظهر باسم « المهدى » الذى سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فتتحقق أمنيتهم التى طالما كانوا يحلمون بها تحت سياط من الظلم تلهب ظهورهم ، وأسياف من العدوان تعمل فى رقابهم ، من مختلف الحاكمين فى مختلف العصور

وتزعم « البابية » أن الحقيقة الروحانية المنبعثة من الله ، قد حلّت فى شخص صاحبهم « الباب » حلولاً مادياً جسمانياً ، وأن الأنبياء جميعاً من لدن آدم قد تجسدوا فى شخصه الكريم ، واتخذوا منه سبيلاً للعودة إلى الدنيا من جديد ، وكان « الباب » يرى نفسه الممثل الحقيقى لهؤلاء الأنبياء والمعبّر عن رسالاتهم ، وترجع هذه العقيدة — كما يقول الطيب الذكر سيد الباحثين العلامة « جولد زيهر » Goldziher [1] — إلى « الغنوصية » — وقد جاءت بها الفرق المسيحية التى خرجت على الكنيسة قبل ظهور الإسلام .

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام للعلامة « جولدزيهر » Goldziher ص ٢٤٣

وقد أعلن « الباب » غير مرّة أن هذا التجلّى للروح الإلهى ، الذى تجسد فى شخصه لهداية البشر سوف يتجدد فى المستقبل . وقد لاقى فى سبيل تعاليمه هذه مقاومة عنيفة حادَّة من فقهاء الشيعة ، فدعا أتباعه إلى بغضهم ، واتهمهم بالنفاق والتكالب على الدنيا ، وأظهر فى دروسه ضدهم عناداً جريئاً ، ففسَّر القرآن تفسيراً مجازياً حسب المعنى الباطنى ، ولم يعن بفرائض الإسلام ، ولم يتمسك بقواعد الطهارة الإسلامية تمسكاً شديداً ، كما أوّل الجنة والنار وحساب الآخرة تأويلاً مخالفاً لما جاءت به شريعة القرآن ، بل سارع فأعلن فى جرأة بطلان هذه الشريعة وانقضاء عهدها ودروس أحكامها . . . ! !

وأكبر الظن أن صاحبنا هذا كان ينتوى الانسلاخ من الديانة الإسلامية منذ عهد بعيد مبكر جداً ، ولكنه تريث إذ رأى الخروج على هذه الديانة فى أول بدايته بدعوته ، هدماً لهذه الدعوة من أساسها ، وتقويضاً لأركانها وموتاً لها فى فطامها ، فأرجأ ذلك إلى أن يصلب عوده ويتسع نفوذه ويكثر أتباعه ، ويتضح ذلك لنا جلياً من خطاب أرسله إلى خاله — الذى كفله وآمن به ، واستشهد فى سبيله بطهران — قد حبَّره إليه عام ١٢٥٩ هـ وهى السنة التى توفى فيها السيد « الرشتى » ، والتى تلاها مباشرة عامُ جهره بدعوته ؛ يقول « الباب » فى هذا الخطاب :

« أعلموا الطلاب أن الأمر لم يصل إلى حدِّ البلوغ بعد ، ولم يأت زمانه ؛ فلذلك أكون أنا وأجدادى الطاهرون غير راضين فى الدنيا والآخرة ، عمن ينسب إلىّ غير ما أنا فيه من اتباع الفروع والمعتقدات الإسلامية (١) » .

والذى نستشفه من هذه الرسالة أن « الباب » همس برغبته فى التخلص من الشريعة الإسلامية لبعض تلامذته ؛ أو أن هذا البعض رأى من أستاذه هذه الرغبة فأذاعها ، ثم وجد « الباب » أن فيها خطراً كبيراً يكاد يقضى عليه وهو فى نشأته ، فاصطنع الرجوع مرة أخرى إلى تعاليم الإسلام ، وكتب لخاله يتبرأ هو وأجداده

---

(١) الكواكب الدرية حـ ١ ص ٦٧

الطاهرون ، ممن ينسب إليه خروجاً على الإسلام ، وكبت رغبته فى التخلص من هذا الدين إلى أن يأنس من نفسه القوة ، وها هى القوة تواتيه ، وها هو يجاهر بانقضاء عهد الشريعة الإسلامية ويعلن — فى غير مواربة وبرضًى من أجداده الطاهرين — بطلان أحكامها . . . ! !

حاول « الباب » بعد ذلك فى تعاليمه ، الإصلاح الاجتماعى فطالب — لكى يتسم دينه بالعالمية — بالإخاء بين كافة أفراد الجنس البشرى ، ولكنه لم يأت فى ذلك بجديد خلقه ، بديلاً من قديم نقضه وأبطله ؛ فالإسلام يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ويقول نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، وفى الإسلام : صهيب وعمار وبلال وسلمان فى الميزان ، كأبى بكر وعمر وعلى وعثمان .

وكذلك نرى أن ما قدَّمه « الباب » فى أوجه الإصلاح النسوى ، لتحسين حال المرأة والأخذ بيدها ، وإلغائه لحجابها ليس جديداً أو غريباً على الدين الإسلامى ، الذى فرغ من ذلك كلّه على أحسن نظام وأكمله منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

* * *

وما انتشرت تعاليم « الباب » التى تفترض انقراض الديانة الإسلامية حتى طار صواب الناس ، وفقدوا اتزانهم وثاروا ساخطين حنقين ، وكرث الأمر الحكومة الفارسية الإسلامية ، إذ بدت لها تعاليم « الباب » هذه على جانب كبير من الخطورة ، سواء من الناحية الدينية أو من الناحية السياسية ، فرأت أن تعالج الأمر أولاً بالحكمة ، فأكرهت « الباب » على الاعتكاف بشيراز ، وحظرت عليه اتصاله بأحد ، وأخذت من خاله على ذلك المواثيق والعهود . وفى هذه الأثناء اجتاح « شيراز » وباء الهيضة (الكوليرا) فهاجر منها من استطاع إلى الهجرة سبيلاً ، ورأى حاكم المدينة أن ينجو بنفسه هو الآخر من هذا الوباء الفتّاك ، ولكنه قبل أن يغادر شيراز » أمر « الباب » بالخروج منها والتوجه إلى أى بلد آخر شاء ، ليريح نفسه من عناء مراقبته ،

فامتثل « الباب » الأمر وأجابه بقوله : « لا مناص من الهجرة والسفر إلى بلاد أخر ؛ حيث كانت الهجرة ولم تزل إحدى سنن الأنبياء ، وقد قال السيد المسيح : لا حُرمة لنبيٍ في وطنه[1] » ، وهكذا نرى « الباب » أخيراً — بعد دعاواه السابقة — يدّعى النبوّة ، ويُدخل نفسه فى عداد الأنبياء و يهاجر كهجرتهم ....!

ارتحل « الباب » ذلك النبىّ الجديد إلى أصفهان عام ١٢٦٢ هـ ، ومكث بها ستة شهور كان فيها موضع التبجيل والإكرام ، من حاكمها الطيب القلب معتمد الدولة « منوچهرخان » ؛ الذى كلأه بعينه ورعايته ودفع عنه الأذى والعدوان ، و إن لم يدن برسالته ، ولسوء حظ « الباب » مات معتمد الدولة — هذا الحاكم المسموع الكلمة ، الخالص السريرة ، والمحبوب من البلاط الفارسى — فى أواخر ربيع الأول عام ١٢٦٣ هـ ، وكان له ابن أخ يُدعى « كركين خان » ينتظر وفاته بشيء كثير من الصبر ليرث ملكه ، وكان فى الوقت نفسه يعادى « البابية » ، فما إن مات عمه حتى سارع فوشى بالباب — فى تقرير مطول — إلى وزير الدولة الأعظم « ميرزا أقاسى » — أكبر أعداء « الباب » — بطهران ، وقد تقرب « كركين » بوشايته هذه إلى الحكومة الفارسية ، علّها ترشحه لحكم أصفهان خلفاً لعمه « منوچهرخان » وقد تم له ما أراد ، وطلب منه الوزير القبض على « الباب » فوراً ؛ و إرساله إلى طهران فأجابه إلى ذلك ، ثم عُدل بالباب — بأمر الوزير — إلى « تبريز » بأذربيجان ، حيث أُبعد عنها مرة أخرى إلى « ماكو » وهناك سُجن بقلعتها ، وكانت مخصصة لسجن الخارجين على الدولة . وقد أخذ « الباب » فى معتقله هذا يؤلف كتابه « البيان » ، الذى أودع فيه مجموعة تعاليمه ، وهو عند « البابيين » محل تقديس و إكبار . و بعد تسعة شهور من سجنه فى « ماكو » نقل عام ١٢٦٤ هـ إلى قلعة « جهريق » .

اشتد أنصار « الباب » — بعد اعتقال صاحبهم — تفانياً فى الإيمان برسالته ،

---

(١) الكواكب الدرية جـ ١ ص ١٢١

وقاموا بدعاية حماسية واسعة لمذهبه فى أنحاء البلاد ، فآمن بها بطهران على يد « باب الباب » — الشيخ حسين البشروئى ، أحد الأركان الهامة فى هذه الحركة — الأخَوان « ميرزا يحيى نورى » الملقب بعد ذلك « بصُبْح أَزَل » وأخوه من أبيه الأوفر حظاً « ميرزا حسين على نورى » الملقب فيما بعد « ببهاء الله » ، وهما فرعان من دوحة كريمة ، ولهما فى تاريخ هذه الديانة تاريخ .

وفى قزوين أعلنت « قرّة العين » إيمانها بالمذهب « البابى » ، على إثر مراسلات بينها و بين « الباب » ، والاسم الأصلى لهذه الفتاة — ذات الشأن فى تاريخ البابية — أمّ سلمى هانم ، ثم سُميت « زرِّين تاج » بمعنى التاج الذهبى ، لأن شعرها كان ذهبياً ، وهى كريمة « الملَّا صالح الباركانى » من أسرة معروفة بالعلم فى قزوين ، وكانت الفتاة ذات ذكاء حاد وجمال بارع مشرق فتّان ، وُلدت عام ١٢٣٠ أو ١٢٣١هـ ، وطالعت كتب « الشيخية » ورغبت فيها ، وكان بينها و بين السيد « كاظم الرشتى » مكاتبات ، تسأله فيها عن بعض المسائل الغامضة ، وهو الذى لقّبها « قرّة العين » ؛ قال العلامة « الألوسى » :

« القرّتية أصحاب امرأة اسمها (هند) ، وكنيتها أمّ سلمى ، ولقبها قرّة العين ، لقّبها بذلك السيد كاظم الرشتى فى مراسلاته لها ؛ إذ كانت من أصحابه ، وهى ممن قلَّد (الباب) بعد موت الرشتى ، ثم خالفته فى عدة أشياء : منها التكاليف ، فقيل إنها كانت تقول برفع التكاليف كلّها ، وأنا لم أحسّ بشىء من ذلك مع أنها بقيت فى بيتى نحو شهرين ؛ وكم من بحث جرى بينى و بينها رفعت فيه حجاب التقية ، فرأيت من الفضل ما لم أره فى كثير من الرجال . وهى ذات عقل وأدب ، وفريدة حياء وصيانة ، وقد ذكرنا من المباحثات فى غير هذا المقام ما إذا وقفت عليه تبين لك أن ليس فى فضلها كلام . والذى تحقق عندى أن البابية والقرّتية طائفة واحدة ، وهم يزعمون انتهاء زمن التكليف بالصلوات الخمس ، وأن الوحى غير منقطع ؛ فقد يوحى للكامل ، لا وحى تشريع ، بل وحى تعليم لما شُرع من قبل ، ولنحو ذلك ،

وهو رأى بعض المتصوفة . وأخبرنى بعض من خالطهم أنهم يوجبون على من نظر إلى أجنبية من غير قصد ، أن يتصدق بمثقال من الذهب ، وعلى من نظر إليها بقصد التصدُّق بمثقالين منه ، وأن منهم من يحيي الليل بكاء وتضرعاً ، وأنهم يخالفون الاثنى عشرية ، ويكفرونهم ، ويبرأون منهم . وهكذا حال هذه الفرقة مع كل من خالفها[1] » .

قال البحاثة الفارسى « ميرزا عبد الحسين آواره » معقباً على قول الألوسى :

« ومما لا ريب فيه أن ما زعمه هذا الفاضل (يعنى الألوسى) عن تسمِّى قرّة العين بهند غير صحيح ؛ فإنه من المستبعد استعمال هذه التسمية بين الشيعة ، لا سيما بين أكابر العلماء منهم ، أضف إلى ذلك أن هذا التسمِّى لم يرد فى كتاب ما غير كتابه ، ولم يُسمع من أحد قط ، والمحتمل أن يكون الحادى به إلى هذا الزعم ، اعتباره كلمة « أمّ سلمى » كنية طبق القاعدة العربية المتبعة بين العرب ، فتوهم هذه التسمية ، وفاته أن كلمة « أمّ سلمى » كانت ولم تزل تُستعمل بمثابة الاسم فى بلاد العجم ؛ فيتضح من ذلك إذاً أن اسمها كان كما ذكرنا أى « أمّ سلمى » . نعم لقبها قرّة العين كما قال ، وأن السيد الرشتى لقبها بذلك . ونقول إنها لُقِّبت بعد ذلك بالطاهرة ، لقَّبها بذلك حضرة « الباب » ، وأهل البهاء يذكرونها فى أكثر محادثاتهم بهذا اللقب الأخير[2] » .

***

أخذت الدعوة « البابية » — كما قلنا — فى الانتشار ، وكثر أتباعها وعظُم شأنها ، حتى عُدَّ خطراً يهدد كيان الدولة الفارسية ، فأجمعت الحكومة على استئصال شأفة « البابيين » ، وابتدأت سلسلة طويلة من المعارك الدموية ، والمجازر البشرية بينها وبينهم ، وجيء بالباب من سجنه إلى « تبريز » ؛ حيث أُعدم رمياً بالرصاص

(١) الكواكب الدرية جـ ١ ص ١١٥
(٢) المصدر السابق ص ١١٦

فى ٢٨ شعبان عام ١٢٦٦ هـ = ٩ يوليو عام ١٨٥٠ م ، ومع أن الرمية الأولى أخطأته ، وعدَّها أصحابه معجزة ، فقد أصابت منه الثانية مقتلاً ، ثم مُثِّل بجثته أشنع تمثيل ، وطُرح جسمانه فى حفرة قذرة ، انتشله منها أتباعه سرًّا ، حيث قاموا بدفنه فى طهران ، وقيل دفنه خليفته « بهاء الله » فى عكّا ؛ وبهذه الخاتمة انتهت حياة النبى « على محمد » على أبشع صورة وأشنعها .

وقد تعقبت الحكومة أتباعه فى كل سهل وجبل ، وجدُّوا فى أثرهم ، فنثروا عقدهم شذر مذر فى ٢٨ شوال سنة ١٢٦٨ هـ = ١٦ أغسطس سنة ١٨٥٢ م ، وأخرجوا الأخوين « صُبْح أزَل » و « بهاء الله » إلى بغداد ، ثم أُرسلا إلى « أدرنة » باتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ، ثم وقع الخلف بين الأخوين ، فنفت الحكومة التركية « بهاء الله » إلى قلعة عكّا و « صبح أزل » إلى جزيرة قبرص . أما « قرّة العين » فقد أخرجوها قبل ذلك التاريخ إلى بغداد ، حيث نزلت فى بعض منازل أعيانهم ومنهم العلامة « الألوسى » كما حدثنا هو بذلك ، بيد أن حكومة الأستانة لم ترض عن بقاء هذه المرأة فى بغداد ، فأخرجتها ثانية إلى إيران .

وهكذا انقضى الدور الأول من دورَى هذا الدين المحدث ، على أن الرواية لم تتم فصولا ، فقد قام بالدور الثانى فى هذه المسرحية البابى « بهاء الله » باسم جديد ، بل دين جديد هو « البهائية » . . . !

البهائيـــة

بعد مقتل « الباب » دبّ الشقاق بين صفوف « البابية » عنيفاً صارخاً ، ويرجع ذلك إلى أن صاحبهم ترك — بعد أن لاقى حتفه — تلميذين أخوين ، كان قد اصطفاهما وخصّهما لهداية البشر ، فآمن بكل واحد منهما فريق ، وادّعى أن صاحبه هو وحده المترجم الأمين لتعاليم « الباب » ، وقد التفّ الأقلّون حول « صُبْح أَزَل » المبْعَد إلى جزيرة قبرص كما أسلفنا ، وكان هذا — لجمـــود في تفكيره — يرغب في إبقاء « البابية » على الصورة التي تركها عليها مؤسسها ، وأتباعه — تبعاً لذلك — هم «البابيون» المحافظون . أما الأكثرون فقد التفّوا حول أخيه من أبيه ، ذلك الرسول الآخر المبعد إلى عكّا « بهاء الله » .

ويزعم أتباع « البهاء » أن « الباب » لم يصطف أحداً للقيادة غير صاحبهم ، وأنه أكثر من التصريح بذلك بله التلميح ، وقد وضع اسم « بهاء الله » في « البيان » وعبّر عنه « بمن يظهره الله » ، وأمر الناس بطاعته والانقياد له ، بيد أن « الباب » وهو في محنته خاف أن تمتد يد السوء إلى مصطفاه « بهاء الله » فأغفل أمره محافظة عليه ، وأعلن اصطفاء أخيه « صُبْح أَزَل » ، الذي كان يعلم سوء دخلته وفساد طويّته ، راجياً بذلك أن يظل أمر « البهاء » سرًّا مكتوماً ، فيسلم من الأذى ويشتهر أمر أخيه فيُقضى عليه ، وبذا يفتدى « البهاءَ » صفيَّه الأوحد بأخيه الدعيّ « صُبْح أَزَل » .

وُلد « ميرزا حسين على نورى » الملقب ببهاء الله ببلدة « نور » من أعمال « مازندران » في الثاني عشر من نوفمبر عام ١٨١٧ م ، وعند ما أعلن « الباب » السيد على محمد رسالته ، وصدع بها عام ١٨٤٤ ، كان « بهاء الله » شاباً ممتلئاً في السابعة والعشرين من سني عمره ، وقد آمن بالدعوة على يد أكبر دعاتها وأعظم أساطينها ، الشيخ الداعية حسين البشروئى « باب الباب » ، ثم التحق « بهاء الله » بالباب ،

وصار من أبرز تلامذته المخلصين ، وما زال معه يناضل ويكافح ، حتى فصلت الحكومة بينهما بفتكها بالباب ، ثم بنفى « البهاء » إلى البلاد التركية ، ومنها إلى مدينة « عكّا » .

ولما كان « الباب » قد أعلن غير مرة ، أن الروح الإلهية التى تجسدت فى شخصه لهداية البشر سوف يتكرر تجسدها فى المستقبل ، فقد رغب تلميذه الواسع المطامع — بعد عام ١٨٦٠ م إبّان إقامة « البابيين » المنفيين فى أدرنة — فى أن يبادر فيسعى إلى تحقيق المرحلة الثانية فى النظام الدورى التعاقبى ، فأعلن أنه « المظهر الأكمل » الذى بشّر به أستاذه ، والذى يتيسر بواسطته الارتفاع بالرسالة إلى مرتبة أعلى من مراتب الكمال . فعلىّ محمد « الباب » كان السابق الممهد لظهور « بهاء الله » ، الذى عادت الروح الإلهية للتجسد فى شخصه ، لكى تنجز على الوجه الأكمل ، العمل الذى ابتدأه ومهّد له الداعية على محمد المبعوث من قَبله ، فبهاء الله أعظم درجة من « الباب » لأن « الباب » « قائم » ، أما « البهاء » فهو « القيوم » أى الذى يظل ويبقى ، وقد اعترف « الباب » نفسه بأن من سيخلفه سيكون أعظم منه ، وذلك فى قوله : « إن الذى يجب أن يظهر فى يوم من الأيام لهو أعظم من ذلك الذى سبق ظهوره[١] » .

وقد آثر « بهاء الله » أن يتسمى باسم « مظهر الله » أو « منظر الله » ، الذى يُجتلى فى طلعته جمال الذات الإلهية ، وهو الصورة المنبعثة عن الجوهر الإلهى ، ومعرفة هذا الجوهر لا تتيسر أبداً إلَّا عن طريقه هو ، وقد رأى فيه أتباعه « البهائيون » أنه كائن فوق مستوى البشر ، وأسبغوا عليه كثيراً من الصفات الإلهية .

ولما احتدم النزاع بين « بهاء الله » وأخيه لأبيه « صبح أزل » أو بعبارة أخرى بين « البابيين » المحافظين « والبهائيين » ، حول مبادئ « الباب » وتطورها ، أو الوقوف عندها ، فرّقت الحكومة التركية بين الأخوين ، فأخرجت « صُبْح أَزَل »

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدزيهر Goldziher ص ٢٤٤ من الترجمة العربية .

منفياً إلى قبرص ، و « بهاءالله » مُبعَداً إلى عكّا ، حيث استقرّ بها مقامه،فألقى عصا ترحاله ، وأخذ يبسط قواعد ديانته الجديدة ، التى لم يعارض بها فحسب الشريعة الإسلامية[1] ،وإنما عارض بها أيضاً الديانة « البابية البيانية » أى البابيين الجامدين، الذين يناوئون الإصلاح ولا يريدون أن يتجاوزوا كتاب « البيان » . . .

وقداعتبر « بهاء الله » نفسه مظهراً للروح الإلهية ، التى تجسدت فى شخصه لإنقاذ كافة النوع الإنسانى ، وتحقيق المساواة والإخاء بين البشر جميعاً ؛ فاعتبر رسالته عالمية ، و بعث بكتبه إلى مختلف الدول فى العالمين القديم والجديد ، ودعا رؤساء الجمهوريات الأمريكية « ليستمعوا إلى سجع الحمام على أفنان الأبدية[2] » .

ولعلّ من الأسباب الفعّالة القوية التى ساعدت « بهاء الله » على رفعة قدره ، وعلوّ شأنه بين أتباعه ، حتى بلغ عندهم مرتبة الكائن الإلهى ، ما امتاز به من مواهب التنبؤ بالغيب والفراسة الصادقة ، ويحدثنا الرواة أنه بعث لنابليون الثالث برسالة ، تنبأ له فيها بسقوطه الداهم قبل هزيمة « سيدان » بأربع سنوات[3] ، وهكذا كانت أمثال هذه النبوءات ، التى يتاجر بها المشعبذون ، خير تمهيد عند أتباعه لقبول أباطيله وأراجيفه ، دون نقد أو تمحيص .

وقد حثّ « بهاء الله » أتباعه وتلاميذه على العناية بدراسة اللغات الأجنبية ، حتى يتهيأ لهم الاستعداد لبعث البعوث التى تقوم بالدعاية والتبشير لديانته العالمية ، هذه الديانة التى يرى فيها صاحبها أنها جديرة بجمع شمل الإنسانية تحت لوائها .

وقد تحرّر النبي « بهاء الله » من كل القيود الدينية ؛ الإسلامية[4] منها أو الخاصة بالديانة « البابية » القديمة ، التى انسلخ منها وأوسعها نقداً وتجريحاً ، بعد أن كان من أشد الناس تحمساً لها وانتصاراً لمبادئها ، وقد افترض صاحبنا أن الشريعة

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد زيهر Goldziher ص ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٦

(٤) نفس المصدر .

الإسلامية قد نُسِخت تماماً ، وأن عهدها قد انقرض و باد ؛ فبطلت أحكامها وأصبحت تاريخاً من التاريخ ، فلحقت بذلك بالديانات البائدة[١] . . ، وهو فى هذا يترسم خطا أستاذه « الباب »

وقد جاءت ديانته بطقوس وأوضاع جديدة للصلوات والعبادات ؛ فنسخت صلاة الجماعة بمراسمها الخاصة ، وأمرت الناس بالصلاة فرادى ، ولم تحتفظ بصلاة الجماعة إلا فى الصلاة على الموتى ، على أن الصلاة نفسها تختلف فى « البهائية » عنها فى الإسلام اختلافاً جوهرياً فى أقوالها وفى أفعالها ، وحتى فى القِبْلة فقد حولتها « البهائية » من مكة إلى المكان الذى يقيم فيه « البهاء » — ذلك الذى جعله الله مظهراً من مظاهره — تدور معه حيثما دار وأينما حل[٢] . . . . . !

وقد عالجت « البهائية » الناحيتين الأخلاقية والاجتماعيـة ؛ فحرمت الحرب تحريماً قاطعاً إلا دفاعاً عن النفس ، كما منعت الرق منعاً باتًّا ؛ لأنها تدعو إلى المساواة بين أفراد الجنس البشرى ، وقد جعلت من هذه المساواة لبّ تعليمها ؛ فعنَّف « بهاء الله » — فيما زعم أنه سورة أُوحيت إليه سمَّاها سورة الملوك — سلطانَ تركيا تعنيفاً شديداً ؛ لأنه فرّق فى الحقوق والامتيازات بين طوائف السكان[٣]

واتجهت « البهائية » أيضاً نحو الصِّلات الزوجية، فعملت على إصلاحها وتنظيمها، وهى التى سبق أن وجّه « الباب » إليها الكثير من عنايته ، ومَثَل « البهائية » الأعلى فى هذا الصدد ، هو الاقتصار على زوجة واحدة ، بيد أنها قد أباحت التزوج باثنتين فى حالات خاصة مستثناة ، مع ملاحظة أن ذلك هو الحدّ الأقصى لتعدد الزوجات . وأقرّت « البهائية » الطلاق ، ولكن فى حدود الضرورات الإنسانية ، وهو يختلف فى بعض صوره عما جاء فى الشريعة الإسلامية[٤] . وليس للوظائف الكهنوتية وجود

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٤٧
(٢) نفس المصدر .
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٦
(٤) المصدر السابق

عند « البهائية » ، وكل معتنق لهذه الديانة العالمية — كما يزعم مبتدعوها — عليه أن يخصص نفسه لأداء عمل منتج نافع للمجتمع الإنسانى كلّه .

ولا يشك لفيف من الباحثين فى أن مبادئ « بهاء الله » الأخلاقية ، إنما هو صدًى للمسيحية ، غير أنه يدّعى نظاماً دينياً ، وفكرةً ترجع فى أصلها إلى انتظار رجوع الإمام الثانى عشر الشيعى محمد بن الحسن العسكرى ، ويقول هؤلاء الباحثون :

« ومهما كان مقدار ما أضافه بأسلوبه فى اختيار الآراء المستحسنة لتوسيع تعاليمه ، فإن نفوذه يستند على ادعاءات « الباب » الذى وجد فرصته للظهور فى اضطراب « الشيخية » فى انتظار عودة الإمام الغائب » .

وقد أصبحت الحركة « البابية » منذ قيام « بهاء الله » هذا بدعوته لا تنتسب إلى « الباب » ؛ فقد آثر الناس أخيراً أن يطلقوا على هذه الفرقة — التى تفرّعت عن مذهب السيد على محمد الباب ، والتى انتشرت تعاليمها شيئاً فشيئاً ، حتى اكتسحت بعنف المذاهب الأخرى المنافسة لها — اسم « البهائية » ، وبه أيضاً تسمّى أتباعها ليمتازوا بذلك عن الحفنة الباقية من « البابيين » المحافظين أتباع « صُبْح أَزَل » المستمسكين — فى جمود — بكتابهم « البيان » معتبرين الخروج على تعاليمه قيد أنملة ، خروجاً على ديانة « الباب » السماوية .

وقد توفى « بهاءالله » فى ١٦ مايو عام ١٨٩٢ م ، وانتقلت بذلك رسالته إلى ولده وخليفته « عباس أفندى » الملقب « عبد البهاء » و « غُصْنَ » أعظم — دون أن تلاقى بهذا الانتقال معارضة تذكر ، وقد وسّع « عبدالبهاء » فى التعاليم التى ورثها عن أبيه ، وسعى تدريجياً فى أن يوفق بينها وبين صور التفكير الغربى الحديث ، فاقتربت « البهائية » من هذا التفكير اقتراباً ملحوظاً ، كما سعى « عباس أفندى » للتحلل بقدر الإمكان من وطأة الخرافات الأسطورية وأضاليل الخوارق ، التى كانت لا تزال عالقة بالمراتب الروحية السابقة ، إن لم يكن قد انتبذها كلّها جانباً وطرحها وراء ظهره لا يلوى على شىء . وكثيراً ما استعان بأسفار العهدين القديم

والجديد فى تطعيم رسالة أبيه ، محاولاً بذلك أن يؤثر فى بيئات أوسع مدًى ، من تلك التى نشر فيها أبوه ديانته الجديدة .

وقد توفى « عبد البهاء عباس » بمدينة حيفا عام ١٩٢٢ م بعد عمر مديد ، إذ شارف الثمانين ، ويلوح أنه كان شخصية فذّة قوية جذابة ، حتى لقد أَنِس به وأحبّه ، الكثيرون ممن ليسوا على دينه ، وجزعوا لموته جزعاً كبيراً .

* * *

وقد انتشرت الديانة « البهائية » انتشاراً واسعاً فى أوروبا وأمريكا ، لا سيما عند ما قام الدكتور « خير الله » — أحد أتباع « عبد البهاء » المعجبين به ، المتحمسين لديانته — بجولة فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٢ ، لإلقاء محاضرات تبشيرية للدعوة إلى هذا الدين ، فنجح فى مهمته نجاحاً كبيراً ، واستطاع بذلك جذب الآلاف من الأمريكيين إلى حظيرة « البهائية » .

يقول سيد الباحثين العلامة « جولدزيهر » Goldziher :

« إن النزعة العالمية الواسعة التى اتصفت بها البهائية ، قد جمعت حولها الأتباع والأنصار ، لا من مساجد المسلمين فحسب ، بل من كنائس النصارى وبِيَع اليهود ونيران المجوس »[١] .

وهكذا ازداد أعوان هذا الدين وأتباعه ، وإن كان من العسير على الباحث إحصاؤهم ؛ ويرجع ذلك إلى تكتم « البهائيين » واصطناعهم التقية وعدم الجهر بمعتقداتهم ، المناقضة تماماً للديانة الإسلامية ، وادعائهم أن هذه الديانة قد انقرضت وبطلت أحكامها ، وأن بهائيتهم دين جديد ؛ مما أثار عليهم الرأى الإسلامى العام ، وحاربهم كبار رجاله كالسيد جمال الدين الأفغانى — ذى النزعة الفلسفية ، وباعث النهضة الحديثة فى الشرق — فاضطر البهائيون إلى الانزواء ، واصطناع التقية ، وإحاطة ديانتهم بسياج من السرِّية والكتمان ، إلا حيث يجدون متنفَّساً فى البيئات التى لا تدين حكوماتها بالإسلام .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٤٨

ونلاحظ أن بعض اليهود المتحمسين للبهائية ، قد بلغ بهم الأمر أن عكفوا على أسفار العهد القديم ، واستخرجوا منها بزعمهم ما ينبئ عن ظهور « بهاء الله » وولده « عباس » ، فحشروا « البهائية » فى زمرة الأديان المنزلة ، المبشّر بها فى الكتب السماوية المقدسة[1] .

على أننا نلاحظ أيضاً — كما لاحظ غيرنا من الباحثين — أن كلمة « بهائى » فى البلاد الفارسية فى العصر الحاضر قد تحورت تحوراً كبيراً ؛ فهى لا تعطينا الاندماج فى هذا الفرع الأخير من « البابية » فحسب ، بل تعطينا أيضاً معنى التحرر من الديانات جميعاً ، وأن الكثيرين ممن يلقبون بها ، ليسوا فى الواقع إلا عقليين ماديين لا يعترفون بدين ما[2] .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٥٠

(٢) نفس المصدر ص ٢٤٩

المهدية فى الهـــند

الإسلام فى الهند :

يقول العلامة الفرنسى المسيو « كورديه » Cordier : « إنه لم توجد ديانة من الديانات الكبرى ، لا الزرادشتية ، ولا البوذية ، ولا النصرانية ، انتشرت بسرعة انتشار ملّة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فإنها بدون عضد امتدت فى ثلاثة قرون من البرانس إلى هملايا ، ومن قلب آسيا إلى قلب أفريقيا .

« ولم تكن أسباب سرعة هذا الانتشار سوى ضعف مملكتى بيزنطة وفارس ، وحماسة العرب الفائقة وفروسيتهم الباهرة ، وسذاجة العقيدة التى نشروها ، ثم باختلاط الغالبين بالمغلوبين تولّدت هذه الحضارة الإسلامية التى لمعت لمعاناً شديداً ، بينما كان الغرب هائماً فى الظلمات »[1] .

وقد عرف تجار العرب المسلمون البلاد الهندية قبل فتحها باسم الإسلام ، وأكبر الظن أن هذا الدين الحنيف ، قد دخل هذه البلاد — أول ما دخل — على أيديهم كمبشرين ثم افتتح المسلمون السند وجانباً من الهند فى صدر الإسلام ، إلى أن أكمل الفتح ناصر الملّة ويمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى حوالى عام ١٠٠١م فرسخت قدم الإسلام فى الهند من بعده وخفقت ألويته ؛ وكان إسلاماً سنّيًّا ، ثم ارتحل إليها التشيع أول ما ارتحل من فارس حوالى عام ١٥١٢ م ، والتشيع هناك يكاد يكون إسماعيلياً ، والإسماعيلية بأصولهم العربية والهندوسية ، يؤلفون شطراً كبيراً من الإسلام الهندى ، ويتزعمهم الثرى الإسماعيلى المعاصر « أغا خان » .

ونحن مدينون بمعرفتنا لحالة الإسلام فى الهند ، لتلك البيانات الرائعة التى حدثنا بها العلامة الطيب الذكر « جولدزيهر » Goldziher فى كتابه القيم الممتع حقاً :

---

(١) « حاضر العالم الإسلامى » : (تعليقات شكيب أرسلان) ج ٢ ص ٢٦١ الطبعة الثانية .

« العقيدة والشريعة فى الإسلام » ، وهى حالة تستحق من الباحثين — كما يرى « جولد زيهر » بحق — عناية خاصة ، ودراسة مستقلة لما فيها من ظواهر فريدة لامتزاج الوثنية بالإسلام[١] ، لا نكاد نعثر عليها فى أى قطر آخر من تلك الأقطار التى افتتحها وغزاها هذا الدين الحنيف ، ولا بدع فالهند قارة متباينة الأجناس ، مختلفة اللغات ، تموج فيها أنواع شتى من الديانات ، ولا يكاد يربط بين ساكنيها رباط من جنس أو لغة أو عقيدة[٢] .

يقول العلامة الأمريكى « لوثروب ستودارد » Lothrop-Stoddard :

« الهند بلاد الغرائب والمتناقضات ، تشتمل على وحدة جغرافية طبيعية ، من حيث إنها لم يتألف فيها شىء من الوحدة السياسية فى عصر من خاليات عصورها ، ولما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقوام المتحدرة من الأروم المتنازعة والعروق المتقاطعة فى كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهباً لحولها وقوّتها فعجزت عن صدّ الفاتحين ، ولم تقو على الوقوف فى وجه أهل الغلب والاجتياح ، الذين توالوا عليها دوراً بعد دور .

« وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد المتباينون عِرقاً وأرومة ، لم يختلطوا بعضاً ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لا تحصى ، يتعادون ويتنازعون وهم على ما لا نهاية له من الفوارق ، دماً ولغة وتهذيباً وديناً[٣] » .

والفتح الغزنوى لتلك القارة ، وإن كان بلا ريب قد استحدث شيئاً وأضاف للحضارة الهندية جديداً ، إلاّ أنه لم يستطع قط أن يغير أو يبدّل من الأشكال

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام « الترجمة العربية » ص ٢٥١ ومابعدها .

(٢) انقسمت القارة الهندية أخيراً ، بعد جهاد طويل إلى مملكتين مستقلتين استقلالاً داخلياً ، وهما «هندستان» أو «الهند» الهندوسية ، و « باكستان » الإسلامية ، ويخضعان فى سياستهما الخارجية للسياسة البريطانية ، وقد انفردتا أخيراً بالاستقلال أيضاً فى هذه السياسة ، حتى لقد جنحتا فى بعض الأحايين للناحية المضادة للسياسة البريطانية ، مما جعل لهما مكانة فريدة بين دول العالم ، وإن كانت الاضطرابات والقلاقل — مع الأسف الشديد — تسود بين المملكتين حول موضوع « كشمير » الذى لم يجد حلا حتى الآن .

(٣) أنظر حاضر العالم الإسلامى : The New Wor d of Eslam « الترجمة العربية » حـ ٤ ص ١٧٧ الطبعة الثانية .

المختلفة للديانات الهندية ، التى احتفظت بكامل كيانها فى المجتمع الهندى إبّان الحكم الإسلامى . ومع أن الديانة الإسلامية قد استطاعت حقًّا أن تغزو هذا المجتمع المفكك المنحل ، وتصل من النجاح إلى حدّ انزواء « البراهمية » ، وإسلام الكثيرين من أتباعها ، إلا أننا نجد أن القرآن الكريم — وهذه ظاهرة ملموسة — لم يحتل قط من نفوس هؤلاء المسلمين مركز « الڤيدا » [١] .

والباحث فى علم الأديان المقارن — والهند مدرسة كبرى لذلك العلم — يستطيع بسهولة ويسر أن يضع يده على تلك الآثار البارزة ، التى حدثت نتيجة لتلقيح أديان القارة الهندية المختلطة للدين الإسلامى ، ذلك الدين الجديد الوافد إلى أراضيها من بعيد ؛ فهؤلاء البراهميون الذين خرجوا من « البرهمية » ليدخلوا حظيرة الشريعة الإسلامية أفواجاً وجماعات ، قد نقلوا معهم — دون شك — إلى حياتهم الإسلامية الجديدة الكثيرَ من آرائهم ومبادئهم وتعاليمهم الاجتماعية والدينية ، كما قاموا فى الوقت نفسه بتعديل بعض التعاليم السائدة فى الإسلام ، تعديلاً يتفق وعقائدهم الهندية الماضية ؛ فتقديس الأولياء — المنتشر فى بيئات العامة من المسلمين — رغم كونه ليس من الإسلام فى شىء ، قد هيّأ — مع الأسف — مجالاً كبيراً للشعائر الهندية الشعبية ، فى أن تتسرب وتنساب إلى الدين الإسلامى فتغزوه بقوة ونجاح ، وقد تفاقم أثرها فى هذا الدين شيئاً فشيئاً ، حتى أنتجت — ولاسيما فى التشيع الهندى كما لاحظ ذلك بحق العلامة « جولدزيهر » Goldziher — ظواهرَ دينية فريدة تسترعى النظر ؛ فقد تحولت الآلهة الهندية القديمة إلى مجموعة من الأولياء ، وصبغت الأماكن المقدسة بالصبغة الإسلامية ، فامتزجت الديانات الوثنية بالإسلام ، حتى ليرى الباحث أن العبادة الظاهرية المحضة لله الواحد ، والتلاوة السطحية للقرآن ، واتباعَ السنن الإسلامية دون نظر أو تفكير ، قد قامت بجانبها بصورة قوية صريحة عبادةُ الموتى والشياطين وغيرُها من الأساطير الهندية القديمة [٢] .

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٥١

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٢ .

ويقول الدكتور « تيتوس » :

« فى بلاد كالهند نرى غالب المسلمين فيها من الطوائف الهندوكية الدنيا ، التى اعتنقت الإسلام إما رهبة من القوة الحربية ، أو رغبة فى نوال أمر يرجونه ، أو بدافع الإغراء . وإسلام هؤلاء كان بطبيعة الحال إسلاماً سطحياً ، فلم تصل روح هذا الدين قط إلى قلوبهم ، وإنا لنرى بين هؤلاء طوائف كبيرة متفرقة ، تتم حياتها الدينية والاجتماعية فى كل مناسبة تقريباً عن أصلها الهندوكى ، وهى مزيج غريب من القديم والجديد ، ولا نعجب من هذا كثيراً فجيوش المسلمين قد زحفت على البلاد موجة بعد موجة فى فترات مختلفة ، واستمر ذلك قروناً ، وكان ضغط البيئة الوثنية على من اعتنقوا الإسلام كبيراً ، وقد قام بجانب هؤلاء المسلمين ، جيرانُهم وأقاربهم الوثنيون فلا عجب أن تبقى عبادة الأوثان فى القرى كما كانت ، وأن تبقى العقائد الوثنية قائمة ، وأن يظل القسس البراهمة يؤدون عملهم ، وأن تظل الأعياد الهندوكية مرعية . وليس موطن العجب فى أن يتمسك الناس بهذه العقائد والعادات الموروثة ، بل العجب أنهم مع ذلك يدينون بالإسلام[1] ! » .

وهذه الحالة المؤسفة حقًّا فى الإسلام الهندى ، قد آلمت الكثيرين من رجال الإسلام السنِّى بالهند ، المتأثرين إلى حد كبير بالتعاليم الوهابية الصارمة ، فدفعتهم إلى العمل على تطهير الإسلام مما شابه من الشوائب ، والرجوع به إلى حالته الأولى النقية الخالصة مع الحيلولة دون تعلق المسلمين بالأولياء ، الذين ليسوا فى الواقع سوى صور منقولة عن آلهة الديانات الهندية .

وفى هذا المعترك قام الكثيرون من دعاة « المهدية » فى الهند ، ينشدون الإصلاح بدافع من غيرتهم الدينية ، ويطول بنا المقام لو تحدثنا عن هؤلاء الدعاة جميعاً ، فسنقصر دراستنا على اثنين منهم كانا أبعدهم خطراً ، وأعظمهم أثراً ، هما أحمد البار يلى وأحمد القاديانى .

(١) عن « وجهة الإسلام » بتصرف تعريب محمد عبد الهادى أبى ريدة .

البار يليـــة

دفعت النزعة الوهابية فى الهند حفيداً للحسن بن علىّ[1] ، هو السيد أحمد بن محمد البار يلى على القيام برسالته الإصلاحية ، وادّعائه المهدية . وقد وُلد صاحبنا هذا بمدينة « بريلى » فى غرة المحرم عام ١٢٠١هـ = ٢٤ أكتوبر عام ١٧٨٦ م ، وتلقى دروسه الأولى بمدينة « لكنهؤ » ، ثم حداه تعطشه للعلم وشغفه به إلى التوجه إلى « دهلى » حيث درس عام ١٢٢٢ هـ = ١٨٠٧ م على الشاه عبدالعزيز الصفوى ، المتمتع إذ ذاك بنفوذ علمى واسع ، وهو الابن الأكبر للصوفى الكبير الشاه ولىّ الله ، الذى كان من أشد الناس تأسفاً على حالة الإسلام فى الهند ، وشوقاً إلى تطهيره من أدران الوثنية الهندية ، حتى ليقال إنه هو الذى أوحى إلى السيد أحمد البار يلى ، بأن يقوم بدعوته بعد أن مال إليه وأنس منه الإخلاص للدين ، وصدق العزيمة فى الجهاد .

وقد تمكن ذلك الصوفى الكبير من إقناع الشاب — كما يقول الرواة — بأنه « صاحب الزمان » و « المهدى » المنتظر ، الذى يتم على يديه صلاح حال المسلمين فى الهند ؛ فبادر السيد أحمد وادّعى المهدية ، وسرعان ما ذاع صيته ، وامتد نفوذه ، واعتنق آراءه الوهابية آلافُ المسلمين ، و بو يع له فى كل مكان على أنه « المهدى » المنتظر .

وقد عمل هذا المهدى الجديد خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر ، على نشر المذهب الوهابى فى بقاع مختلفة من الهند الإسلامية ، كما جدَّ فى تنقية الدين الإسلامى الحنيف من أدران الوثنية الهندية ، التى غشيته غشياناً ظاهراً ، بصورة صارخة فى عبادة الأولياء وما يتصل بها من التقاليد الأسطورية ، مما يأباه الإسلام الصحيح وتنكره الوهابية — بحق — أشد الإنكار . ولم يدخر « البار يلى » جهداً فى القيام بدعاية تبشيرية دينية واسعة النطاق بين الهنود ، لترغيبهم فى اعتناق الديانة

---

(١) يزعم الرواة أنه الحفيد السادس والثلاثون . ا ، أنظر : دائرة المعارف الإسلامية « الترجمة العربية » مجلد ١ ص ٤٩٦

الإسلامية ، حتى ليقول بعض المؤرخين فى هذا الصدد : إن نيفًا وأربعين ألفًا من الهندوس قد اعتنقوا الإسلام تحت تأثير دعوته القوية[1] .

وفى عام ١٢٣٢ هـ = ١٨٢١ م اعتزم مهدى الوهابية الهندية زيارة الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج ، وفى طريقه إليها عرج على « كلكتا » فأقام بها عدّة أشهر يبثّ فيها دعوته الإصلاحية ، وقد كانت فى جملتها ترمى إلى إعادة الحياة الإسلامية إلى بساطتها الأولى ، ثم توجه إلى الحجاز حيث أدّى فريضة الحج ، وبعد عامين أى حوالى ١٨٢٣ م عاد إلى الهند وهو أكثر حماساً لمبادئه ، وأشدّ غيرة وأمضى عزيمة .

وأكبر الظن أنه رأى أن الوسائل السلمية لا تُجدى فى نشر دعوته ، رغم ما أحرزه من نجاح ، فأخذ يعدّ العدّة لإعلان الجهاد فى « البنجاب » متذرعاً بتحرير المسلمين القاطنين فى ذلك الإقليم من نير « السيخ » ، ولما وثق السيد أحمد من معاونة مسلمى « كابل » و « قندهار » قام بحملته عام ١٢٤١ هـ = ١٨٢٦ م ، وسار فى جيش لجب وجموع غفيرة من أنصاره المتحمسين ، واشتبك مع « السيخ » فى معارك دامية ، وبعد عدة أعوام كانت الحرب فيها سجالاً بين الفريقين . نشبت المعركة الفاصلة فى « بالكوت » عام ١٢٤٦ هـ = ١٨٣١ م ، وفيها دارت على المهدى الدوائر فلاقى مصرعه ، وفرّت فلول جيشه المتحطم لا تكاد تلوى على شىء ، ومع أن مغامرة الجهاد ، وما ارتبط بها من محاولات سياسية ، قد انتهت — كما يقول العلامة « جولدزيهر » Goldziher — بهذه النهاية المؤلمة ، إلا أن الحركة الدينية التى ابتعثها المهدى الوهابى « أحمد البارېلى » بين الجماعات الإسلامية ، ظلّت بعد وفاته قوية الأثر فى الإسلام الهندى[2] .

---

(١) أنظر دائرة المعارف الإسلامية . مجلد ١ ص ٤٩٦

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٥٣

الأحمدية أو القاديانية

على أطلال « الباريلية » المتهدمة ، وبدافع من الغيرة الدينية ، قامت أحدث فرقة إسلامية فى العالم الإسلامى وهى « الأحمدية » الناجمة من « البنجاب » — أو أرض الأنهار الخمسة ، وهى إحدى الولايات التى تشغل الركن الشمالى الغربى من الهند ، وتعتبر اليوم أهم جزء فى كيان دولة « باكستان » الهندية الإسلامية الوليدة — ففى « قاديان » إحدى مدن البنجاب وُلد — حوالى منتصف القرن التاسع عشر — مؤسس هذه الفرقة « ميرزا غلام أحمد القاديانى » وسط معترك متضارب من التيارات العقلية ، ولما شبّ واكتمل ، اتخذ من سلفه « أحمد الباريلى » أستاذاً ، وادّعى — هو الآخر — أنه « المهدى » الذى ينتظره المسلمون ، وقام يحدثنا — كما حدثنا كثير من الدعاة — أن النبى عليه السلام قال : « إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ، واستناداً على هذا الحديث — الذى طالما اتخذه الدعاة وسيلة لظهورهم ، والذى يرجع تاريخ وضعه إلى حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى — زعم « القاديانى » أن الله قد اصطفاه وبعثه على رأس القرن الرابع عشر الهجرى ، ليجدد مابلى من معالم الدين ويحيى ما اندثر من شعائره[1] .

وقد كانت البذور الإصلاحية التى ألقاها « أحمد الباريلى » من قبل ، تعمل فى نفوس المسلمين الهنود الملتهبين حماسة وغيرة ، وتدفعهم إلى الإصلاح بعنف وقوة ، وبذلك تمكن « القاديانى » — فى سهولة ويسر — من الجهر بمهديته عام ١٨٨٠م ؛ حيث ظهر المجلد الأول من كتابه « براهين أحمدية » مفعماً بالدلائل والحجج ، التى رآها تؤيد دعواه ، بيد أنه لم يطالب أصحابه بالبيعة إلاّ فى ٤ مارس عام ١٨٨٩ م[2] عندما كثر أتباعه وقوىَ عوده .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٦٠

(٢) أنظر ما كتبه العلامة « هوتسما » Houtsma عن « الأحمدية » بدائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ١ ص ٥٠٤ « الترجمة العربية » .

ولما وجد أن فى الآثار الملفقة ، ماينبئ بأن ظهور « المهدى » سيكون مقروناً ببعض الظواهر الفلكية ، سارع فأوّل كسوف الشمس وخسوف القمر ، الواقعين فى رمضان عام ١٣١٢ هـ = ١٨٩٤ م ، لصالحه ، ودعّم بوقوعها مهديته بلباقة وفطنة[١] . وأكبر الظن أن صاحبنا هذا — هو الآخر — كان ذا فراسة صادقة ونبوءات لاتخطئ ؛ فقد حدثنا الرواة[٢] أنه تنبأ بحدوث كوارث فادحة من الطاعون والزلازل ، كما تنبأ بوفاة بعض الأفراد ، وقد صدقت — بطريق المصادفة — نبوءاته هذه ، فاستغلّ ذلك استغلالاً حسناً فى ترويج بضاعته .

ومهدية « القادياني » هذه تلفت — بحق — نظر الباحثين ؛ فهى من نوع جديد ، يكاد يخالف تماماً عقيدة « المهدية » كما جاءت فى الروايات المتسمة بالصبغة الإسلامية ، سواء فى ذلك الإسلام السُّنّى والشيعى ؛ فمهدية الروايات الإسلامية ، تصور لنا « المهدى » قائداً حربياً يقاتل الكفار بالسيف ، وتلحّ فى هذا التصوير ، وتلجّ فيه ، بينما مهدية « القاديانى » لأول مرة فى التاريخ الإسلامى تتسم بالطابع السلمى ؛ إذ يقول « القاديانى » :

« إن مهمة المهدى هى الدعوة إلى الإسلام ، أما الجهاد فيجب ألاّ يقوم على امتشاق الحسام بل على وسائل سلمية »[٣] .

وبذلك أسقط مهدينا هذا فريضة الجهاد من الفرائض الإسلامية ، وحبّب إلى أتباعه المسالمة والتسامح ونهاهم عن التعصب ، وقد أظهر هو وجماعته الولاء الخالص للحكومة البريطانية ، التى أمِنت جانبهم ، وتركتهم يبشرون بمذهبهم السلمى ، فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا لاتنظر بعين الارتياح ، إلى أى حركة تتسم بطابع « المهدية » فى العالم الإسلامى ، بل تسارع من فورها فتقضى عليها وليدةً فى مهدها ، وذلك بعد الدروس القاسية التى تلقتها عن مهدى السودان .

ولم يكتف « القاديانى » بمخالفته للإسلام فى إسقاطه فريضة الجهاد فحسب ،

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٦٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٥٠٥

(٣) أنظر « هوتسما » Houtsma فى دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٥٠٥ ، وانظر أيضاً « جولدزيهر » Goldziher فى « العقيدة والشريعة فى الإسلام » ص ٢٦٠ وما بعدها .

بل نجده أيضاً قد خالف العقائد الإسلامية الصريحة مرة أخرى مخالفة تامة فى عقيدته فى « عيسى » ؛ إذ يقول — بجرأة — إن عيسى لم يصلب ولم يُرفع إلى السماء ، وإنما مات موتاً ظاهرياً ، ودُفن فى قبر خرج منه بعد ذلك ، حيث توجه تلقاء « كشمير » بالهند ليعلّم الإنجيل، وهناك أدركه الموت بالغاً من العمر مائة وعشرين عاماً ، ودفن فى قبر يُنسب خطأً لولىّ يُدعى « يوس أساف » ، وقد خرج « القادياني » بدعواه هذه على الروايات الإسلامية والمسيحية على السواء ، وهى تلك الروايات المتعلقة بحياة عيسى[1] .

وقد كان مهدى قاديان — بحق — كاتباً بارعاً وافر الإنتاج ؛ فبسط مذهبه للمسلمين فى أكثر من ستين كتاباً دينياً ، فى الفقه والعقائد باللغتين العربية والأوردية ، وساق فيها الأدلة التى رآها مؤيدة لمهديته ومساندة لمذهبه ، وكان الرجل محبًّا للعلم فحببه إلى أتباعه ، وحثّهم على التزود منه بأكبر قدر مستطاع .

وقد وجدت اللغة العبرية — لغة الكتاب المقدس — مكاناً لائقاً فى برنامج المواد التى ارتأى دراستها لتلاميذه ، كما كان الرجل معنياً بالأخلاق ، فجعل الفضيلة أصلاً من أصول الإيمان ، وكان يستشهد فى تعاليمه بشواهد من العهدين القديم والجديد ؛ مما يدلنا دلالة واضحة على قراءته لهما وتأثره بهما ، كما كان يستشهد أيضاً بالآيات القرآنية ، وبالصحاح من الأحاديث .

وقد عمل « القادياني » على أن يكون دائماً على وفاق ظاهرى مع ما جاء به القرآن فى غير مسألتى « عيسى والجهاد » اللتين شذَّ فيهما ، فانفرد بآراء تناقض صراحة ما جاءت به آيات القرآن . أما « الأحاديث » النبوية فقد كان يقبل منها ما يؤيد به مهديته ويدعِّمها ، وفيما عدا ذلك كان كثير الشك فى « الحديث » دائب النقد له ؛ فابتعد بذلك فى نقط كثيرة أيضاً — كما يقول « جولد زيهر » عن المعالم الرسمية للإسلام السنِّى ، بالقدر الذى تستند فيه هذه المعالم على « الحديث »[2] .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٦٠ ، وانظر أيضاً ما كتبه العلامة « هوتسما » Houtsma بدائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ ص ٥٠٠

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٦١

وقد توفى « أحمد القاديانى » بمدينة « لاهور » فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨ م ، ثم نقل جثمانه إلى « قاديان » حيث دفن هناك ، ونقشت على ضريحه هذه العبارة :

« ميرزا غلام أحمد موعود » ، ومعنى « موعود » : المهدى المنتظر

ولم ينس « القاديانى » أن يخبرنا فى وصيته ، بأن مهدياً جديداً آخر سوف يظهر من أسرته ، ولكن أحداً من هذه الأسرة لم يفكر قط فى استغلال هذه الوصية ، للقيام بدعوة إلى مهدية جديدة ، بل استكان المجتمع لتعاليم المهدى الراحل ، وأخذوا فى نشرها فى سلم ولين ؛ فازداد عديد « الأحمدية » الذين يوجدون بكثرة ظاهرة فى « البنجاب » وطن الدعوة الأول ، و إن كانوا يوجدون كذلك فى غيرها من بلاد الهند .

وفى كتاب « وجهة الإسلام » :

« من العسير أن نتكهن بمستقبل حركة الأحمدية ، كما يصعب أن نصدّق أن عقيدة جامدة كهذه ، ستقدر على البقاء طويلاً ، محاولة اجتذاب أنصار فى عصرنا هذا ، أو محاولة المحافظة على العقيدة الحالية لأنصارها دون تغيير .

« و إنا لنتساءل : هل فى وسع هـذا الوحى المعقد — الذى يرتكن إليه القاديانيون ، والذى جاء فى آخر الزمان ، والذى يتطلب إيماناً قوياً جداً — أن يقوى على الثبات فى هذه الأيام ، التى لم يبق فيها من الإيمان إلا النصف ، والتى نجد فيها المتعلمين إما ممن يأخذون بالشك ، و إما ممن يحكمون العقل فى المسائل الدينية ؟ ؟

« إن أحمدية لاهور ، قد أحسوا أنهم غير قادرين على قبول مزاعم « غلام أحمد » كاملة ، وسيرى الفرع الأكبر لفرقة قاديان نفسه مضطراً — فى يوم قريب — أن ينقّح عقائده[1] » .

وقد انتشرت تعاليم « الأحمدية » فى البلاد الإسلامية الأخرى ، فلاقت ذيوعاً وانتشاراً فى أفغانستان ، و إيران ، وشبه جزيرة العرب ، ومصر .

وللقاديانيين صحف ومجلات بالإنجليزية والهندوكية ، يبشرون فيها بمبادئهم وعقائدهم التى يتوقف انتشارها على مقدار ما يبذلونه من نشاط .

(١) عن « وجهة الإسلام » بتصرف ، تعريب الأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريده .

مراجع الكتاب

(١) « الكافى » للشيخ الصدوق ثقة الإسلام أبى جعفر الأعور محمد بن يعقوب الكُلينى — نسبة إلى كُلين إحدى قرى الرّى — (المتوفى ببغداد عام ٣٢٨ هـ) ، طبع طهران عام ١٢٨١ هـ .

(٢) « الفِصَل فى الملل والأهواء والنِحَل » للإمام أبى محمد على بن أحمد ابن حزم الظاهرى الأندلسى (المتوفى عام ٤٥٦ هـ) ، طبع المطبعة الأدبية ومطبعة التمدن ومطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٣١٧ هـ — ١٣٢١ هـ .

(٣) « الملل والنِحَل » للإمام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (المتوفى عام ٥٤٨ هـ) على هامش الطبعة السابقة لكتاب « الملل والنحل » لابن حزم .

(٤) « مقالات الإسلاميين واختلاف فرق المصلّين » للإمام الأشعرى أبى الحسن على بن إسماعيل (المتوفى عام ٣٢٤ هـ) ، طبع المستشرقين الألمان باستانبول عام ١٩٢٩ م .

(٥) « فِرق الشيعة » للنوبختى أبى محمد الحسن بن الحسين بن على (المتوفى عام ٤٠٢ هـ) طبع المستشرقين الألمان باستانبول .

(٦) « الفَرْق بين الفِرق » للبغدادى أبى منصور عبد القاهر بن طاهر (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) نشر السيد عزت العطار الحسينى بالقاهرة عام ١٩٤٨ م .

(٧) « أصول الدين » للبغدادى أيضاً طبع استانبول عام ١٩٢٨ م .

(٨) « مختصر الفَرق بين الفِرق » للرَّسعنى عبد الرزاق بن رزق الله بن أبى بكر بن خلف (من رجال القرن السابع الهجرى ، وهو مجهول الوفاة) نشر الأستاذ فيليب حتّى بمطبعة الهلال بالقاهرة عام ١٩٢٤ م .

(٩) « التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفِرق الهالكين »

للإسفرايينى أبى المظفر عماد الدين (المتوفى عام ٤٧١ هـ) ، نشر العطار بالقاهرة مطبعة الأنوار عام ١٩٤٠ م .

(١٠) « التمهيد » للإمام الباقلّانى أبى بكر محمد بن الطيب (المتوفى عام ٤٠٣هـ) طبع دار الفكر العربى بالقاهرة .

(١١) « محصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين » للرازى فخر الدين أبى عبد الله محمد بن عمر بن الحسين (المتوفى عام ٦٠٦ هـ) طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة عام ١٣٢٣ هـ

(١٢) « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » للرازى أيضاً طبع القاهرة عام ١٩٣٨ م

(١٣) « فضائح الباطنية » للغزالى حجة الإسلام أبى حامد محمد بن محمد (المتوفى عام ٥٠٥ هـ) نشر العلامة « جولد زيهر » Goldziher بليدن عام ١٩١٦ م

(١٤) « المواقف » للإيجى عضد الملة والدين القاضى عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار (المتوفى عام ٧٥٣ هـ) طبع مطبعة العلوم بالقاهرة عام ١٣٥٧ هـ .

(١٥) « الاعتصام » للشاطبى أبى إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمى الغرناطى (المتوفى عام ٧٩٠ هـ) طبع مطبعة المنار بالقاهرة عام ١٩١٣ م .

(١٦) « تلبيس إبليس » لابن الجوزى أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد (المتوفى عام ٥٩٧ هـ) طبع مطبعة النهضة بالقاهرة عام ١٩٢٨م .

(١٧) « الإنتصار والرد على ابن الراوندى الملحد » للخياط المعتزلى أبى الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان (من رجال القرن الثالث الهجرى وهو مجهول الوفاة) طبع دار الكتب المصرية بعناية الدكتور « نيبرج » Nyberg عام ١٩٢٥ م .

(١٨) « أعز ما يطلب » لابن تومرت مهدى الموحدين أبى عبد الله الهرغى (المتوفى عام ٥٢٤ هـ) ، نشر « لوسيانى » Luciani بالجزائر عام ١٣٢١ هـ .

(١٩) « عقيدة ابن تومرت » لمهدى الموحدين أيضاً ، طبعها « الكردى » فى مجموعة بالقاهرة عام ١٣٢٨ هـ .

(٢٠) « الفتاوى الحديثية » لابن حجر الهيثمى أبى العباس شهاب الدين أحمد ابن محمد (المتوفى عام ٩٧٣ هـ) ، طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣٠٧ هـ .

(٢١) « مسند أحمد » للإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزى (المتوفى عام ٢٤١ هـ) ، طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣١٣ هـ .

(٢٢) « سنن أبى داود » للشيخ الإمام سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدى السجستانى (المتوفى عام ٢٧٥ هـ) ، طبع المطبعة الكاستلية عام ١٢٨٠ هـ .

(٢٣) « سنن ابن ماجة » لأبى عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعى القزوينى (المتوفى عام ٢٧٣ هـ) ، طبع المطبعة العلمية بالقاهرة عام ١٣١٣ هـ .

(٢٤) « سنن الترمذى » ويقال له أيضاً « جامع الترمذى » أو « الجامع الصحيح » للشيخ الإمام أبى عيسى بن محمد بن عيسى السلمى الترمذى (المتوفى عام ٢٧٩ هـ) طبع بولاق عام ١٢٩٢ هـ .

(٢٥) « صحيح البخارى » أو « الجامع الصحيح » للإمام أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى البخارى (المتوفى عام ٢٥٦ هـ) ، طبع بولاق من ١٣١١ — ١٣١٣ هـ .

(٢٦) « صحيح مسلم » أو « الجامع الصحيح » للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيرى النيسابورى (المتوفى عام ٢٦١ هـ) ، طبع بولاق عام ١٢٩٠ هـ .

(٢٧) « جامع البيان فى تفسير القرآن » للطبرى أبى جعفر محمد بن جرير (المتوفى عام ٣١٠ هـ) ، طبع بولاق من ١٣٢٣ — ١٣٢٩ هـ .

(٢٨) « تفسير الألوسى » (روح المعانى) للعلامة شهاب الدين محمود الألوسى (المتوفى عام ١٢٧٠ هـ) ، طبع بولاق عام ١٣٠١ هـ

(٢٩) « شرح نهج البلاغة » أو « شرح النهج » لابن أبى الحديد عز الدين أبى حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنى (المتوفى عام ٦٥٥ هـ) ، طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣٢٩ هـ .

(٣٠) « مقدمة ابن خلدون » أبى زيد ولىّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون التونسى الحضرمى الإشبيلى (المتوفى عام ٨٠٨ هـ) طبع بولاق عام ١٢٧٤ هـ .

(٣١) « تاريخ الأمم والملوك » أو « تاريخ الطبرى » لشيخ المؤرخين — هيرودوت — العرب أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (المتوفى عام ٣١٠ هـ) طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة .

(٣٢) « الكامل فى التاريخ » أو « تاريخ الكامل » أو « كامل التواريخ » أو « تاريخ ابن الأثير » للشيخ أبى الحسن عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد الشيبانى الجزرى المعروف بابن الأثير (المتوفى عام ٦٣٠ هـ) طبع الحلبى بالقاهرة عام ١٣٠٣ هـ .

(٣٣) « تاريخ اليعقوبى » لأحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الأخبارى (قيل إنه توفى عام ٢٨٤ وقيل توفى بعد عام ٢٩٢ هـ) طبع مطبعة الغرى بالنجف الأشرف بالعراق عام ١٣٥٨ هـ .

(٣٤) « طبقات الصحابة والتابعين » أو « الطبقات الكبير » أو « الطبقات الكبرى » أو « طبقات ابن سعد » لكاتب الواقدى أبى عبد الله محمد بن سعد (المتوفى عام ٢٣٠ هـ) طبع ليدن بعناية المستشرقين .

(٣٥) « الأغانى » لأبى الفرج على بن الحسين بن محمد الكاتب الأصبهانى (المتوفى عام ٣٥٦ هـ) طبع بولاق عام ١٢٨٥ هـ وطبع الساسى عام ١٣٢٢ هـ وطبع دار الكتب المصرية .

(٣٦) « مقاتل الطالبيين » لصاحب الأغانى أبى الفرج طبع الحلبى بالقاهرة عام ١٩٤٩ م .

(٣٧) « مروج الذهب » للمسعودى أبى الحسن على بن الحسين بن على (المتوفى عام ٣٤٥ هـ) طُبع بهامش تاريخ ابن الأثير من الجزء الأول إلى الجزء العاشر ، نشر الحلبى بالقاهرة عام ١٣٠٣ هـ .

(٣٨) « البدء والتاريخ » للمطهر بن طاهر المقدسي (من رجال أواخر القرن الرابع الهجري) ، والكتاب منسوب خطأ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي (المتوفى عام ٣٢٢ هـ) ، نشر « هيار » Huart بباريس عام ١٩٠٦ م .

(٣٩) « أنساب الأشراف وأخبارهم » للبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (المتوفى حوالى عام ٢٧٩ هـ) طبع القدس .

(٤٠) « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لابن خلّكان ، قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم الأربلي (المتوفى عام ٦٨١ هـ) طبع المطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣١٠ هـ .

(٤١) « فوات الوفيات » للكتبي محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (المتوفى عام ٧٦٤ هـ) طبع بولاق عام ١٢٩٩ هـ .

(٤٢) « مختصر الدول » لابن العبري غريغوريوس بن أهرون أبي الفرج الملطي (المتوفى عام ٦٨٥ هـ) ، نشر الأب اليسوعي أنطون صالحاني ببيروت عام ١٨٩٠ م .

(٤٣) « الأخبار الطوال » للدينوري أبي حنيفة أحمد بن داود (المتوفى عام ٢٨٢ هـ) طبع السعادة بالقاهرة عام ١٣٣٠ هـ .

(٤٤) « معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين منهم قديماً وحديثاً » لرشيد الدين أبي جعفر محمد بن علي بن شهراشوب السَّروي (المتوفى عام ٥٨٨ هـ) ، والكتاب تتمة لكتاب « الفهرست » للشيخ أبي جعفر الطوسي ، وقد نشره في طهران عباس إقبال عام ١٣٥٣ هـ .

(٤٥) « تذكرة الحفاظ » للمؤرخ الجليل الحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان التركاني الذهبي (المتوفى عام ٧٤٨ هـ) ، الطبعة الثانية بحيدر أباد بالهند عام ١٣٣٣ هـ .

(٤٦) « دول الإسلام » وهو مختصر في التاريخ على ترتيب السنين للإمام الذهبي أيضاً ، الطبعة الثانية بحيدر أباد عام ١٣٦٤ هـ .

(٤٧) « البداية والنهاية » لابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (المتوفى عام ٧٧٤ هـ) طبع السعادة بالقاهرة عام ١٩٣٢ م .

(٤٨) « الكامل في اللغة والأدب » لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد (المتوفى عام ٢٨٥ هـ) ، نشر وشرح سيد بن علي المرصفي باسم « رغبة الآمل من كتاب الكامل » طبع القاهرة ١٩٢٧ — ١٩٣٠ م .

(٤٩) « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » لمجير الدين أبي اليمن القاضي عبد الرحمن بن محمد الحنبلي (المتوفى عام ٩٢٧ هـ) طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة عام ١٢٨٣ هـ .

(٥٠) « مختصر تذكرة الإمام أبي عبد الله القرطبي » للشعراني عبد الوهاب ابن أحمد بن علي (المتوفى عام ٩٧٣ هـ) طبع بولاق عام ١٣٠٠ هـ .

(٥١) « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » أو « الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار » أو « خطط المقريزي » للشيخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (المتوفى عام ٨٤٥ هـ) طبع بولاق عام ١٢٧٠ هـ .

(٥٢) « اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » للمقريزي أيضاً طبع القاهرة عام ١٩٤٨ م .

(٥٣) « رسائل الخوارزمي » لجمال الدين أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي (المتوفى عام ٣٨٣ هـ) طبع بولاق (مطبعة عبد الرحمن رشدي) عام ١٢٧٩ هـ وطبع الجوائب عام ١٢٩٧ هـ .

(٥٤) « نَكْت الهِمْيَان في نُكَت العُميان » للصفدي صلاح الدين خليل ابن أيبك بن عبدالله (المتوفى عام ٧٦٤ هـ) طبع المطبعة الجمالية بالقاهرة عام ١٩١١ م بعناية المرحوم أحمد زكي .

(٥٥) « الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » لابن الطقطقي

محمد بن على بن طباطبا (من مخضرمى القرنين السابع والثامن) طبع مطبعة الموسوعات عام ١٣١٧ هـ .

(٥٦) « العِبَر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاهدهم من ذوى السلطان الأكبر » ويعرف « بتاريخ ابن خلدون » للشيخ المؤرخ أبى زيد ولىّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨ هـ) ، طبع بولاق عام ١٢٨٤ هـ .

(٥٧) « تاريخ بغـداد » للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (المتوفى عام ٤٦٣ هـ) طبع مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٩٣١ م .

(٥٨) « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » للمؤرخ أبى الفلاح عبد الحى ابن العماد القاضى الحنبلى (المتوفى عام ١٠٨٩ هـ) . نشر حسام الدين القدسى بالقاهرة من ١٣٥٠ — ١٣٥١ هـ .

(٥٩) « اللباب فى تهذيب الأنساب » لابن الأثير عز الدين أبى الحسن على ابن محمد صاحب الكامل (المتوفى عام ٦٣٠ هـ) نشر القدسى بالقاهرة من ١٣٥٧ — ١٣٦٩ هـ .

(٦٠) « صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » للقلقشندى أحمد بن على بن أحمد (المتوفى عام ٨٢١ هـ) طبع بولاق من ١٩١٣ — ١٩٢٠ م .

(٦١) « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى جمال الدين أبى المحاسن يوسف (المتوفى عام ٨٧٤ هـ) طبع دار الكتب المصرية ابتداء من عام ١٩٢٩ م ولم ينته طبع الكتاب بعد .

(٦٢) « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة الدينورى أبى محمد عبد الله ابن مسلم (المتوفى عام ٢٧٦ هـ) . طبع مطبعة النيل بالقاهرة عام ١٩٠٤ م

(٦٣) « عيون الأخبار » لابن قتيبة أيضاً طبع دار الكتب المصرية من ١٩٢٥ — ١٩٣٠ م .

(٦٤) « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة كذلك طبع « الكردى » بالقاهرة عام ١٣٢٦ هـ .

(٦٥) « تهذيب الأسماء واللغات » للنووى أبى زكريا محى الدين بن شرف النووى (المتوفى عام ٦٧٦ هـ) طبع منير الدمشقى بالقاهرة .

(٦٦) « تهذيب تهذيب الكمال فى معرفة الرجال » لابن حجر العسقلانى قاضى القضاة شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن محمد الكنانى (المتوفى عام ٨٥٢ هـ) طبع حيدر أباد عام ١٣٢٥ هـ .

(٦٧) « العقد الفريد » لابن عبد ربه أبى عمر أحمد بن محمد الأندلسى القرطبى (المتوفى عام ٣٢٨ هـ) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة من ١٩٤٠ — ١٩٥٣ م .

(٦٨) « الفهرست » لابن النديم أبى الفرج محمد بن إسحاق بن أبى يعقوب البغدادى الورّاق (المتوفى حوالى عام ٣٨٥ هـ) ، طبع المطبعة الرحمانية بالقاهرة عام ١٣٤٨ هـ .

(٦٩) « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » أو « معجم الأدباء » لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى (المتوفى عام ٦٢٦ هـ) طبع دار المأمون بالقاهرة .

(٧٠) « رسائل الجاحظ » أبى عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (المتوفى عام ٢٥٥هـ) نشر السندوبى بالقاهرة عام ١٩٣٣ م .

(٧١) « مجموعة رسائل الجاحظ » لأبى عثمان أيضاً ، نشر الساسى بالقاهرة عام ١٣٢٤ هـ .

(٧٢) « البيان والتبيين » لأبى عثمان الجاحظ كذلك ، نشر عبد السلام هارون بالقاهرة من ١٩٤٨ — ١٩٥١ م .

(٧٣) « ألف باء » لابن الشيخ أبى الحجاج يوسف بن محمد البلوى (قيل إنه توفى عام ٥٧٦ وقيل إنه كان موجوداً عام ٦٠٣ هـ) طبع الوهبية بالقاهرة عام ١٢٨٧ هـ .

(٧٤) « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى شهاب الدين أحمد

ابن عبد الوهاب بن محمد البكرى التيمى القرشى (المتوفى عام ٧٣٣ هـ) ، طبع دار الكتب المصرية ابتداء من عام ١٩٢٣ م ولم ينته طبع الكتاب بعد .

(٧٥) « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى محمد أمين بن فضل الله ابن محب الله الدمشقى (المتوفى عام ١١١١ هـ) طبع الوهبية بالقاهرة عام ١٢٨٤ هـ

(٧٦) « ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا » للخفاجى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (المتوفى عام ١٠٦٩ هـ) ، طبع بولاق عام ١٢٧٣ هـ .

(٧٧) « المختصر فى أخبار البشر » أو « تاريخ أبى الفدا » للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبى الفدا صاحب حماة (المتوفى عام ٧٣٢ هـ) طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة عام ١٣٢٥ هـ .

(٧٨) « تتمة المختصر » أو « تاريخ ابن الوردى » لأبى حفص زين الدين عمر ابن محمد (المتوفى عام ٧٤٩ هـ) طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة عام ١٢٨٥ هـ .

(٧٩) « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » أو « تاريخ الأندلس » للمراكشى محى الدين أبى محمد عبد الواحد بن على التميمى (من مخضرمى القرنين السادس والسابع) طبع مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٣٢٤ هـ .

(٨٠) « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين » للسيوطى أبى الفضل عبد الرحمن ابن الكمال (المتوفى عام ٩١١ هـ) طبع المطبعة الميمنية عام ١٣٠٥ هـ .

(٨١) « ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى » لمحب الدين الطبرى أبى العباس أحمد بن عبد الله (المتوفى عام ٦٩٤ هـ) نشر القدسى بالقاهرة .

(٨٢) « لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار » أو « طبقات الشعرانى » للشعرانى أبى المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الأنصارى (المتوفى عام ٩٧٣ هـ) ، طبع بولاق عام ١٢٧٦ هـ .

(٨٣) « الكشكول » للعاملى بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الرحمن الحارثى (المتوفى عام ١٠٣١ هـ) طبع بولاق عام ١٣٢٩ هـ .

(٨٤) « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار » لابن غلبون أبى عبد الله محمد بن خليل الطرابلسى (من رجال القرن الثانى عشر الهجرى) طبع القاهرة عام ١٣٥٤ هـ .

(٨٥) « غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة » أو « الغرر والعرر » للوطواط أبى إسحاق جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على الأنصارى ، المروى الأصل المصرى المولد الكتبى الورّاق (المتوفى عام ٧١٨ هـ) طبع بولاق عام ١٢٨٤ هـ .

(٨٦) « القصائد الهاشميات » أو « هاشميات الكميت » للشاعر المتشيع الكميت ابن زيد الأسدى (المتوفى عام ١٢٦ هـ) طبع مطبعة شركة التمدن بالقاهرة عام ١٣٢٩ هـ .

(٨٧) « ديوان مهيار الديلمى » للشاعر المتشيع أبى الحسن مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسى الديلمى (المتوفى عام ٤٢٨ هـ) طبع دار الكتب المصرية من ١٩٢٥ — ١٩٣١ م .

(٨٨) « ديوان ابن هانئ الأندلسى » للشاعر المتشيع متنبى الغرب أبى القاسم محمد بن هانئ الأزدى الأندلسى (المتوفى عام ٣٦٢ هـ) ، طبع بولاق عام ١٢٧٤ هـ .

(٨٩) « ديوان كثيِّر » أو « شرح ديوان كثيِّر » للشاعر المتشيع أبى صخر كثيِّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة الخزاعى المعروف بكثيِّر عزَّة (المتوفى عام ١٠٥ هـ) طبع الجزائر بعناية « هنرى بيرس » Henri Peres من ١٩٢٨ — ١٩٣٠ م .

(٩٠) « ديوان حسان » أو « شرح ديوان حسان بن ثابت » لحسان بن ثابت ابن المنذر الأنصارى الخزرجى شاعر الرسول (المتوفى عام ٥٤ هـ) طبع المطبعة الرحمانية بالقاهرة عام ١٩٢٩ م بعناية الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى .

(٩١) « ديوان سبط ابن التعاويذى » لمجد الدولة والدين جمال الكتّاب أبى الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله المعروف بسبط ابن التعاويذى (المتوفى

عام ٥٨٤ هـ) طبع بعناية الأستاذ « مرجليوث » Margoliouth بمطبعة المقتطف بالقاهرة عام ١٩٠٣ م .

(٩٢) « اللزوميات » أو « لزوم ما لا يلزم » لشاعر المعرّة أبى العلاء أحمد ابن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرّى (المتوفى عام ٤٤٩ هـ) طبع بمطبعة المحروسة بالقاهرة بعناية عزيز زند من ١٨٩١ — ١٨٩٥ م .

(٩٣) « النهاية فى غريب الحديث والأثر » لابن الأثير مجد الدين أبى السعادات المبارك ابن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى (المتوفى عام ٦٠٦ هـ) طبع المطبعة العثمانية بالقاهرة عام ١٣١١ هـ .

(٩٤) « لسان العرب » لابن منظور جمال الدين أبى الفضل محمد بن جلال الدين أبى العز مكرّم الأنصارى الإفريقى المصرى (المتوفى عام ٧١١ هـ) طبع بولاق من ١٢٩٩ — ١٣٠٨ هـ .

(٩٥) « جمهرة أنساب العرب » لأبى محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى الأندلسى (المتوفى عام ٤٥٦ هـ) طبع دار المعارف بالقاهرة بعناية العلامة « ليفى بروفنسال » Provençal عام ١٩٤٨ م .

(٩٦) « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول نشره بالرباط العلامة « بروفنسال » Provençal عام ١٩٣٤ م .

(٩٧) « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » للوزير أبى عبيد عبد الله ابن عبد العزيز البكرى الأندلسى الأونبى (المتوفى عام ٤٨٧ هـ) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة بعناية الأستاذ مصطفى السقا من ١٩٤٥ — ١٩٥٢ م .

(٩٨) « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » أو « رحلة ابن بطوطة » لرحالة القرن الثامن شرف الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة (المتوفى عام ٧٧٧ هـ) طبع مطبعة التقدم بالقاهرة عام ١٣٢٢ هـ .

(٩٩) « الفتوحات الإسلامية بعد مضىّ الفتوحات النبوية » لمفتى الشافعية بمكة أحمد بن زينى بن أحمد دحلان (المتوفى عام ١٣٠٤ هـ) طبع مكة عام ١٣١١ هـ

(١٠٠) « الإسلام الصحيح » (الجزء الأول) للنشاشيبي محمد إسعاف طبع القدس عام ١٣٥٤ هـ .

(١٠١) « الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة » لموسى جار الله طبع النجف الأشرف بالعراق عام ١٩٣٥ م .

(١٠٢) « العقيدة والشريعة فى الإسلام » Vorlesungen Uber Den Islam للمستشرق العلامة « جولدزيهر » Goldziher « الترجمة العربية » للأساتذة محمد يوسف موسى ، وعبد العزيز عبد الحق ، وعلى حسن عبد القادر ، طبع دار الكاتب المصرى بالقاهرة عام ١٩٤٦ م .

(١٠٣) « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » La Domination Arabe, Le Çhitisme et les Croyances Messianiques Sous Le Khalifat des Omayades للمستشرق « ڤان ڤلوتن » Van Vloten « الترجمة العربية » للأستاذين حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم ، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٩٣٤ م .

(١٠٤) « عقيدة الشيعة » — وهو كتاب عن تاريخ الإسلام فى إيران والعراق — للدكتور « دوايت . م . دونلدسن » Donâldson تعريب « ع . م » طبع مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٩٤٦ م .

(١٠٥) « دائرة المعارف الإسلامية » الترجمة العربية — مواد متفرقة .

(١٠٦) « دائرة معارف الدين والأخلاق » البريطانية : مقال المستشرق « مرجليوث » Margoliouth عن « المهدية » .

(١٠٧) « دائرة معارف وجدى » لصاحبها محمد فريد وجدى .

(١٠٨) « ضحى الإسلام » لأحمد أمين (الجزء الثالث) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٣٦ م .

(١٠٩) « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » للأستاذ محمد عبد الله عنان طبع دار النشر الحديث بالقاهرة عام ١٩٣٧ م

(١١٠) « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » للأستاذ عنان أيضاً ، طبع دار الكتب المصرية عام ١٩٣٤ م .

(١١١) « تراجم إسلامية شرقية وأندلسية » للأستاذ عنان أيضاً ، طبع دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٤٧ م .

(١١٢) « أعيان الشيعة » للسيد محسن الأمين الحسينى العاملى (الجزآن الثالث والرابع) طبع دمشق عام ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ م .

(١١٣) « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » Die Renaissance Des Islams لآدم ميز Adam Mez ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريده ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة من ١٩٤٠ — ١٩٤١ م .

(١١٤) « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » Gechichte Spaniens und Porbugals, zur Zeit der Herrschaft der Almorariden und Almohaden المؤرخ الألمانى « يوسف أشباخ » Aschbach ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان وطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة من ١٩٤٠ — ١٩٤١ م .

(١١٥) « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » A Short History of the Saracens لسيد أمير على ، ترجمة رياض رأفت طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨ م .

(١١٦) « فى التصوف الإسلامى وتاريخه » للأستاذ « نيكلسون » Nicholson ترجمة الأستاذ أبى العلا عفيفى ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٧ م .

(١١٧) « وجهة الإسلام » تعريب محمد عبد الهادى أبى ريدة ، طبع القاهرة

(١١٨) « حاضر العالم الإسلامى » The New World of Islam للعلامة « ستودارد » Stoddard ترجمة عجاج نويهض وتعليقات شكيب أرسلان (الطبعة الثانية) طبع القاهرة ١٣٥٢ هـ .

(١١٩) « تاريخ السودان القديم والحديث » لنعوم شقير ، طبع القاهرة .

(١٢٠) « السودان بين يدى غردون وكتشنر » لإبراهيم فوزى ، طبع القاهرة .

(١٢١) « تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر » لجرجى زيدان ، طبع مطبعة الهلال بالقاهرة عام ١٩٠٢ م .

(١٢٢) « تاريخ مصر الحديث » لجرجى زيدان أيضاً ، الطبعة الثانية بمطبعة الهلال بالقاهرة عام ١٩١١م .

(١٢٣) « الإيقان » لبهاء الله ميرزا حسين على ، نشر المجمع البهائى بالقاهرة .

(١٢٤) « الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية » للبحاثة ميرزا عبد الحسين آواره ، ترجمه عن الفارسية أحمد فائق رشد (الجزء الأول) ، طبع المطبعة العربية بالقاهرة عام ١٩٢٤ م .

(١٢٥) « معجم المطبوعات العربية والمعرّبة » ليوسف إليان سركيس ، طبع القاهرة ١٩٢٨ — ١٩٣١ م .

(١٢٦) « القاموس المحيط » لمجد الدين الفيروزابادى محمد بن يعقوب بن محمد ابن إبراهيم (المتوفى عام ٨١٧ هـ) ، طبع المطبعة المصرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ م .

فهرست

لأعلام الأناسى والعقائد والفرق والأماكن وللبلدان

(ا)

(ب)

(ت)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)